

نسخ غير منقحة من الحياة

قصص قصيرة

رياض سعد



ليس كليل من تزله،
يحيا كما نظن.
في مدينة ما.
من قصص لم تُكتب،
ومن أرواح لم تُرو؛

...

إلى مجهول،
نكتب لنفهم،
ونروي لنحيا،
ونترك أثرًا.

نسخ غير منقحة من الحياة

نسخ غير منقحة من الحياة
رياض سعد
التصنيف : الادب والروايات
الطبعة: الاولى

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (بلا) لسنة (بلا)

ISBN: 9922 – 978 – 5525 – 14



دار تركيب الرقيم السومري للطباعة والتوزيع والنشر الالكتروني
العراق – ديالى – بعقوبه – شارع الاوقاف
هاتف : 07775262892
manager@sss-publisher.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو وسيلة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

نسخ غير منقحة من الحياة

رياض سعد

2026

تنضيد الكتاب
معهد الترجمة والكتاب المالي
«ماليزيا»

تصميم الغلاف
معهد التكنولوجيا
« الهند »

مراجعة لغوية
الدكتور مهند محمد كاظم
«العراق»

المقدمة

لم أكتب هذه القصص لأنني كنت أبحث عن بطولة أدبية، ولا لأنني كنت أظن أن العالم بحاجة إلى حكاياتي بقدر ما كنت أشعر أن بعض الأشياء، إذا لم تكتب، فسوف تختنق داخل صاحبها إلى الأبد.

منذ سنوات طويلة، وأنا أنظر إلى الحياة بوصفها نصًا غير مكتمل؛ مليئًا بالشطب، والارتباك، والنسخ المشوّهة، والاعترافات المؤجلة...؛ وربما لهذا السبب اخترت لهذه المجموعة عنوان: «نسخ غير منقحة من الحياة».

لأن ما ستقرأه هنا ليس قصصًا مصقولةً تمامًا، ولا شخصياتٍ مثالية، ولا عوالم مرتبة كما ينبغي للروايات الهادئة أن تكون...؛ إنها أشبه بأوراقٍ خرجت من قلب الحياة مباشرة، قبل أن تمسّها يدُ التجميل أو الخوف أو الرقابة.

نعم...؛ أنا كتبتُ هذه القصص، لكنني لم أختَر دائمًا الطريق نفسه للوصول إليها...؛ فبعضها وُلد من رحم الواقع، من مشاهد عشتها أو سمعتها أو مررتُ بالقرب من وجعها، وبعضها الآخر كان من بنات الخيال؛ خيالٍ حاول أن يقول ما عجز الواقع أحيانًا عن قوله؛ وبعضها طلب أصحابها مني صياغتها ونقشها على ذاكرة الزمن...؛ وأكثرها نسجتُها من أحداث الحياة وقائع الزمن وهموم والام الناس.

هناك قصصٌ حقيقية إلى حدٍ كبير، وأخرى تتكئ على السريالية والتأمل والرمز، لأنّ الإنسان نفسه ليس كائنًا واقعيًا بالكامل، بل خليطٌ غامض من الحقيقة والوهم، من الذاكرة والحلم، ومن الحياة كما نعيشها والحياة كما نتخيلها.

هذه النصوص كُتبت في أوقاتٍ مختلفة، وتحت مزاجاتٍ متناقضة، ونُشرت في مواقع وصحف عديدة، منها موقع صوت الأمة العراقية، ومنبر العراق الحر، وإيلاف، والحوار المتمدن وغيرها...؛ بعضها

كُتِبَ في ليالٍ مثقلةٍ بالأرق، وبعضها وُلِدَ من موقفٍ عابر، أو من خيبةٍ قديمة، أو من صورة إنسانٍ مرَّ في حياتي سريعًا لكنه بقي عالِّقًا في ذاكرتي طويلًا كندبةٍ لا تزول.

أنا لا أؤمن كثيرًا بالقصص التي تتعالى على البشر، ولا بالشخصيات الورقية التي لا تخطئ ولا تنهزم... ؛ فالإنسان الحقيقي هشّ، متناقض، مرتبك، ومحمّلٌ بأعباءٍ لا يراها أحد... ؛ ولهذا حاولتُ دائمًا أن أقرب من تلك المناطق المنسية في الداخل الإنساني؛ من الخوف الصامت، والوحدة، والخذلان، والحنين، ومن ذلك التعب الغامض الذي يسكن أرواح الناس حتى وهم يبتسمون.

في هذه المجموعة ستجد شخصًا يشبهون الذين نصادفهم كل يوم: رجلًا أنهكته الحياة حتى صار يتحدث مع ظله، وامرأةً تخفي خرابها خلف الصمت، وعجائز يراقبون العالم كأنهم فائضُ زمنٍ قديم، وشبابًا يحاولون النجاة وسط واقعٍ يتآكل ببطء... ؛ وربما ستجدي أنا أيضًا متخفيًا بين السطور؛ في جملةٍ حزينة، أو فكرةٍ قلقة، أو شخصيةٍ لم أستطع أن أنقذها من مصيرها.

لقد حاولتُ أن أكتب بلا أقنعة، وأن أترك اللغة قريبةً من نبض الروح، لا من الزخرفة وحدها... ؛ لذلك قد تبدو بعض القصص واقعيةً حدّ القسوة، فيما تميل أخرى إلى السريالية أو التأمل الفلسفي، لأنّ الحياة نفسها لا تسير بطريقةٍ واحدة، ولأنّ الإنسان ليس كائنًا بسيطًا كما يبدو.

أعرف أنّ الأدب لا يغيّر العالم دائمًا، لكنه يستطيع على الأقل أن يجعلنا نفهم وجعنا بصورةٍ أقلّ قسوة، وأن يمنح وحدتنا صوتًا... ؛ وإذا استطاعت هذه القصص أن تجعل قارئًا واحدًا يشعر أنّ ما يختلج داخله قد وجدته مكتوبًا أمامه، فسأشعر أنّ كل هذا التعب لم يذهب سدى.

هذه المجموعة ليست سوى البداية... ؛ بدايةً محاولةٍ طويلة لفهم الإنسان، والعالم، وتلك الفوضى التي نسميها حياة.

رياض سعد

حارس الذاكرة (١)

كان هناك رجلٌ يُدعى "الراوي"... أو هكذا كان يُستدعى في السجلات التي لا يقرأها أحد.

أما اسمه الحقيقي فكان قد سُحب منه منذ زمنٍ غير قابلٍ للتحديد، كما تُسحب بطاقة هوية من جيب ميتٍ دون أن يلاحظ.

كان يعيش في مدينة تُدعى "نسيان".

مدينة لا تُرى بوضوح... بل تُحسّ كصداعٍ طويلٍ في مؤخرة الوعي.

شوارعها ليست مرصوفة بالحجر، بل بطبقاتٍ من محوٍ متكرر، كأن كل خطوة فيها تُعيد كتابة العالم ثم تمسحه فوراً.

الناس هناك لم يكونوا يمشون... بل كانوا ينجرفون.

يمسكون رؤوسهم بأيديهم كأنهم يمنعونها من السقوط، أو كأن أفكارهم صارت أشياء مادية تتسرب من فتحات غير مرئية.

كانوا يبتسمون أحياناً، لكن الابتسامة تصل متأخرة... بعد أن تكون المشاعر قد غادرت.

الراوي وحده كان مختلفاً.

لم يكن ينام.

ليس لأن الأرق يسكنه، بل لأن النوم كان يرفضه.

كلما أغمض عينيه، ظهرت امرأة.

ليست رؤية كاملة... بل تشظي ضوء داخل العتمة.

وجهها بلا ملامح ثابتة، لكنه يحمل يقيناً عاطفياً مخيفاً...؛ كأنه يعرفها قبل أن تُخلق ذاكرته.

كانت تأتي كل ليلة، لا تمشي، بل تتكئف عند حافة إدراكه.

تضع شمعة صغيرة داخل رأسه، ثم تتركها تشتعل وحدها... قبل أن تنطفئ مع أول خفقة قلب.

في إحدى الليالي، لم تختف بسرعة.

بقيت أطول.

وفي تلك الليلة تحديداً، بدأ الراوي يسمع العالم بوضوح مؤلم.

ذهب إلى “دار النسيان العام”.

مبنى ضخم يشبه أرشيفاً بلا كتب، تديره وجوه ممسوحة من التعبير، كأن شخصاً ما مسح ملامحهم بقطعة قماش رطبة ثم نسي أن يعيدها.

في الداخل، كان الناس يصطفون لتلقي “حقنة النسيان الرحيم”.

جرعة صغيرة تمحو الألم دون أن تطرح أسئلة مزعجة عن المعنى.

عندما جاء دوره، سئل:

— ما الذي تريد أن تنساه؟

صمت.

ثم قال:

— لا أعرف.

سأله:

— وما الذي تريد أن تتذكره؟

وهنا حدث شيء غير متوقع...

كأن السؤال لم يوجّه إليه، بل انفتح من داخله.

قال:

– امرأة... لا أعرف اسمها، لكن وجودها يضغط على صدري كأنها حقيقة لم تكتمل.

ضحك الموظف، ضحكة تشبه احتكاك ورق قديم:

– إذن أنت مصاب بـ”الذاكرة العاطفية المزمنة”.. , حالة غير قابلة للعلاج.

– وما نهايتها؟

– إما أن تُنسى... أو تتحول إلى شخص آخر لا يعرف أنه أنت.

خرج الراوي من الدار، لكن المدينة لم تعد كما كانت.

الجدران صارت تلمح له.

الأبواب تفتح نصف فتحة ثم تتراجع.

حتى اللافتات بدت وكأنها تكتب نفسها خصبًا له.

في أحد الأزقة، وجد طفلًا يرسم وجهًا على الجدار.

لم يكن الرسم جميلًا، لكنه كان دقيقًا بشكلٍ يزعج الحقيقة.

قال الراوي:

– من هذا؟

لم يرفع الطفل رأسه:

– هذا أنت... حين كنت لا تزال تعرف لماذا تتألم.

ارتجف الراوي.

لأول مرة، لم يشعر أنه يتذكر... بل أنه يُستخدَم للتذكر.

فهم فجأة أن المدينة ليست مكانًا، بل جهاز كبير لإدارة النسيان.

وأن كل شيء فيها —الأطفال، الهواء، الصمت— يعمل كموظف في وزارة محو الذاكرة.

وفي تلك اللحظة، قرر أن يغادر “نسيان”.

لم يكن قرارًا... بل انهيارًا في نظام الطاعة الداخلي.

عند حدود المدينة، حيث يبدأ الرمل ولا ينتهي المعنى، أوقفه رجل عجوز.

كان العجوز جالسًا كأنه لم يقم من مكانه منذ اختراع الزمن.

قال:

— إلى أين تذهب؟

أجاب الراوي:

— إلى حيث لا يقرر أحدٌ عني ما الذي يجب أن أتذكره.

ضحك العجوز، لكن ضحكته لم تتحرك من مكانها:

— لا يوجد “هناك”.. , التذكر ليس مكانًا... إنه انكشاف خطر.

ثم أضاف:

— كل من خرج من هنا، عاد بشكلٍ مختلف... أو لم يعد أصلاً.

لكن الراوي مشى.

ليس لأنه شجاع، بل لأن البقاء أصبح شكلاً من أشكال الموت البطيء.

مشى في الصحراء.

لم تكن صحراء فارغة... بل صحراء تمسح نفسها كل لحظة لتتأكد أنها موجودة.

حتى ظهرت الخيمة .

وحيدة، كفكرة نسيت صاحبها.

دخل.

وفي الداخل كانت تجلس هي.

نفس المرأة.

أو ما يشبهها بما يكفي ليكسر القلب.

لكنها لم ترفعه نحوه.

لم ترتبك.

لم تتذكر.

قالت بهدوء:

— من أنت؟

توقف الزمن داخل حلقه.

ثم قال:

— أنا من ظلّ يتذكرك حتى فقد اسمه.

نظرت إليه طويلاً، كأنها تفحص فراغاً تعرفه ولا تستطيع تسميته.

ثم ابتسمت:

– غريب... أشعر أنك مألوف، كالم قديم لا أعرف متى حدث.

صمت.

ثم أضافت:

– لكنني لا أتذكرك.

قال:

– وأنا أتذكرك أكثر مما ينبغي.

ابتسمت مرة أخرى، هذه المرة بمرارة خفيفة:

– إذن نحن في وضع غير عادل... أنت تحماني كاملة، وأنا لا أحملك حتى كظل.

جلسا.

لم يكن هناك لقاء... بل تصادم هادئ بين ذاكرة تقاوم الانطفاء ونسيان بدأ يتعلم المشاعر.

هو يحاول أن يستعيد ذاكرة حقيقة.

وهي تحاول أن تتجو منه كذكرى لم تطلب أن تولد.

وفي الخارج، بدأت المدينة تتلاشى ببطء، كأن "نسيان" نفسه فقد وظيفته.

ذلك المكان، حين توقف الزمن عن تحديد من يتذكر من...

سُمي لاحقاً:

“حافة الذاكرة”

ندوب القدر وثرات الغدر (٢)

في زحام الحياة، حيث لا أحد يلتفت لندوب الآخرين، كنتُ أركض لا
كإنسانٍ كامل، بل كظلٍ يطارده ظلُّ أقدم منه...، غريمٌ قديم خرج من
بين خرائب الذاكرة، كأن السنوات لم تُطفئه بل زادت حدة.

كان الثأر ليس فكرةً في رأسي، بل كائنًا حيًّا يسكن صدري..، يوقظني
بلا استئذان، ويدفعني إلى الشوارع كأنني آله لا تعرف التوقف.

عشر سنوات وأنا ألاحقه؛ لا لأن العدالة تريد ذلك، بل لأن شيئًا في داخلي
تعفّن ولم يعد يقبل التأجيل.

في ذلك اليوم، كان الجوع ينهشني قبل الغضب..، جسدي ينهار، لكن
رأسي ما زال مشدودًا إلى وجهه، إلى تلك اللحظة التي يجب أن يسقط
فيها... أو أسقط أنا.

دخلتُ مطعمًا صغيرًا في السوق الشعبي..، الهواء هناك كثيف برائحة
الخبز والزيت والعرق القديم..، جلستُ بلا وعي، كأن الطاولة جذبتني
إليها كمنقذٍ مؤقت من انهيارٍ قريب.

لم أنتبه أول الأمر للشيخ الذي كان يجلس قبالي.

كان وجهه ككتابٍ قديم لم يُغلق منذ عقود..، التجاعيد فيه ليست علامات
عمر، بل آثار حروبٍ داخلية لم تُعلن..؛ عرفته..، أو ظننته كذلك..،
رجل من حكايةٍ قديمة في الحي، من سلالةٍ ثارٍ لا ينتهي.

كان الثأر في عائلته مثل مرضٍ وراثي: بدأ بدمٍ واحد، ثم صار سلسلةً بلا
طرف..، ابن عمٍ قُتل بدافع الغضب، ثم جاء الردّ بعد سنوات، بابنٍ سقط
بدل أبيه، ثم تحوّل البيت إلى مقبرةٍ بلا شواهد..، والشيخ بقي وحده...،
الناجي الوحيد الذي لم يعرف إن كان بقاءه نعمة أم لعنة.

كان صامتًا..، لكن صمته لم يكن فراغًا، بل ضغطًا خفيًا، كأن الهواء
بيننا ممتلئٌ بجملٍ غير منطوق.

في عينيه شيء يشبه الاعتذار المتأخر، وشيء آخر يشبه التحذير.. , لم يقل شيئاً، لكنني فهمت الرسالة بوضوح غريب:

“الثأر لا ينتهي عند من تبدأ به... بل يبدأ منك أنت.”

كان الجوع في بطني، لكن شيئاً أعمق بدأ ينهشني: الشك.

أي معنى أن أصل إليه الآن؟

أن أسحب كل هذا التاريخ إلى لحظة واحدة من الرصاص أو السكين؟

وماذا بعد؟

من يضمن أنني لن أصبح نسخة جديدة من نفس الدائرة التي أكرهها؟

خرجت من المطعم ولم أفعل شيئاً.. , تركته خلفي، أو ربما تركت نفسي هناك.

قررت أن أوجل الدم... , ليس كجب، بل كمن يوقف آلة كانت تبتلع روحه.

مرّت السنوات كما تمرّ الأشياء التي لا تعترف بنا.. , تغيّرت المدن، وتغيّر وجهي، لكن ذلك الثقل بقي في مكانه، لا يشيخ.

وفي يومٍ عابر، وسط شارع مزدحم لا يحمل أي ذاكرة، التقيت رجلاً من الحي القديم.. , لم يكن اللقاء مهمّاً في بدايته، مجرد حديثٍ عن الغائبين، عن الذين تأكلوا بصمت الزمن.

ثم قالها كمن يرمي حجراً في ماءٍ راكد:

“عدوك القديم... مات.. , حادث سيارة.. , بلا قصة تقريباً.”

توقفت اللغة داخلي لحظة.. , كأن المعنى تأخر عن الوصول.

تابع:

“زوجته تتسوّل الآن قرب المساجد.. وأولاده تفرّقوا... كل واحد في جهة.. الحياة لم ترحمهم.”

لم أشعر بانتصار.. لم أشعر بالراحة أيضاً.. كان هناك شيء ثالث أكثر تعقيداً: فراغٌ أخلاقي لا اسم له.

تذكّرت وجه الشيخ في المطعم.. لم يكن يحذرني منه، بل كان يحذرني مني أنا.

فهمتُ متأخراً أن الثأر لا ينتهي حين يموت العدو، بل حين نكتشف أننا كنا جزءاً من قتل أكبر... ؛ حتى ونحن لا نطلق الرصاص.

ومع ذلك، بقي سؤالٌ واحد يرافقتني كظلٍ لا يمشي:

هل كان تركه للقدر عدالة... ؛ أم تأجيلاً آخر للجريمة بشكلٍ مختلف؟

نافذة في الطابق الرابع عشر (٣)

في الطابق الرابع عشر من فندقٍ زجاجيٍّ يطلُّ على طهران، كان زيد يشعر أنّ العالم قد تحوّل إلى شاشة عملاقة، وأنه ليس سوى إصبعٍ يهبط ويصعد فوقها بلا إرادة.

الغرفة باردة رغم التدفئة.

الستائر نصف مفتوحة.

والمدينة تحت النافذة تبدو ككائنٍ ضخمٍ لا ينام؛ أضواءٌ ترتجف، طرقاتٌ تمتد كالشرابين، ومآذن بعيدة تشبه مسامير صغيرة تدقُّ السماء.

أما هو، فكان غارقاً في هاتفه.

لم يعد يتصفح... بل كان يُسحب.

المقاطع القصيرة تتدفق كطلقات متتابعة:

فتاة ترقص بعينين زجاجيتين.

رجل يصرخ عن النجاح والثروة.

واعظ إلكتروني يبيع الحكمة بدقيقة ونصف.

محلل سياسي يضحك بينما الخرائط تحترق خلفه.

ومؤثرون يشبهون نسخًا رديئة من بعضهم، كأن خوارزمية واحدة أنجبتهم جميعًا.

كان يشعر أن التطبيق لا يعرض المحتوى، بل يلتهم وعيه قطعة قطعة.

قال بصوتٍ خافت:

— ما الذي أفعله هنا؟

لكن الهاتف لم يُجب.

الهاتف لا يجيب أبدًا.

إنه فقط يفتح أبوابًا جديدة للضياح.

مرّ مقطع لحرب بعيدة، ثم إعلان لعطر، ثم جثة طفل تحت الأنقاض، ثم نكتة، ثم راقصة، ثم شيخ يتحدث عن القيامة.

اختلط كل شيء.

الموت والإعلان.

الشهوة والدين.

الدم والضحك.

حتى فقدت الأشياء معناها.

أطفأ الصوت للحظة، ف شعر أن العالم صار أكثر رعبًا.

الصمت داخل التطبيقات يشبه الفراغ داخل المقابر.

رفع رأسه نحو النافذة.

انعكس وجهه على الزجاج كوجه رجلٍ آخر؛ شاحب، متعب، بعينين

محمرتين من السهر والقلق.

همس:

— متى أصبحت هكذا؟

لكن السؤال الحقيقي كان أعمق:

متى صار الإنسان مجرد مستهلكٍ لوحشته؟

رنَّ إشعار جديد.

عاد تلقائيًا إلى الشاشة، كمدمنٍ يعرف أن السم في الكأس لكنه يشربه لأنه

لم يعد يحتمل العطش.

ثم حدث الشيء الغريب.

وسط هذا السيل الملوّث من الأصوات، ظهر مقطعٌ ثابتٌ بلا مؤثرات،

بلا موسيقى، بلا ألوان صارخة.

صورة قديمة لقاريٍ يجلس بخشوع.

وانساب صوت محمد صديق المنشاوي:

{ألا بذكر الله تطمئن القلوب}

توقف إصبعه.

فقط... توقف.

كان أحداً أمسك الزمن من عنقه.

تسللت الآية إلى الغرفة لا كصوت، بل كشيء أقدم من الصوت؛ كذكرى
منسية تعود فجأة من طفولة بعيدة، من بيت طيني، من أم كانت توقظه
للفجر، من أب مات قبل أن يفهمه.

شعر زيد بشيء ينكسر داخله.

ليس انكسار الألم...

بل انكسار القشرة.

أعاد الآية مرة أخرى.

ثم الثالثة.

وكان كل تكرار ينزع طبقة من الضباب عن قلبه.

نهض فجأة.

ارتطم الهاتف بالسرير.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يلتفت إليه.

دخل الحمام.

فتح الماء البارد.

عندما لامس الماء وجهه، شعر كأن آلاف الإبر تخترق جلده، لكن خلف
ذلك البرد كان هناك شيء يشبه النجاة.

غسل يديه طويلاً.

كأنه يحاول إزالة آثار العالم عنه.

وحين مسح رأسه، تذكر عبارة كان يسمعها قديماً:

“أخطر الحروب ليست تلك التي تدور على الحدود... بل تلك التي تحتل
الداخل.”

توقف.

نظر إلى نفسه في المرآة.

وسأل انعكاسه:

— وهل احتلّ داخلي فعلاً؟

لم تُجبه المرآة.

لكن عينيه فعلتا.

عاد إلى الغرفة ببطء.

اقترب من النافذة.

كانت طهران تتمدد تحته مثل إمبراطورية من الضوء والتعب؛ مدينة
مثقلة بالتاريخ، بالعقوبات، بالخوف، بالأناشيد، بالقبور، وبالأحلام
المؤجلة.

فكر فجأة:

كم مدينةً في العالم تبدو هادئة الآن... بينما الطائرات في مكانٍ ما تستعد
لمحوها؟

تخيّل الصواريخ وهي تعبر السماء كنيازك سوداء.

ناطحات الزجاج تنهار.

المآذن تصرخ بالنار.

الأمهات يركضن بأطفالهن في الشوارع.

وشعر برعبٍ غامض.

ليس خوفًا على المدينة فقط...

بل خوفًا من الإنسان نفسه.

كيف استطاع هذا الكائن أن يطوّر التكنولوجيا أسرع من تطوير روحه؟

الهاتف في الخلفية أضاء مجددًا.

إشعار جديد.

صورة جديدة.

حرب جديدة.

فضيحة جديدة.

استدار إليه.

حدق بالشاشة طويلاً.

ثم قال كأنه يخاطب عدوًا قديمًا:

— أنت لا تتقل العالم... أنت تصنعه.

في تلك اللحظة أدرك أن المنصات لا تبيع المحتوى فقط، بل تعيد تشكيل الإنسان؛

تُعيد برمجة خوفه، شهوته، غضبه، وحتى حزنه.

كل شيء صار قابلاً للاستهلاك.

حتى الروح.

جلس على السجادة.

كانت ركعته ثقيلتين في البداية، كأن جسده نسي الطريقة.

لكنه حين ركع، شعر أن شيئاً داخله ينحني لأول مرة منذ زمن.

وحين سجد... انهار.

لا دموع عالية.

لا صراخ.

فقط انهيار داخلي هادئ، كجدارٍ قديم تعب من حمل الخراب.

همس في سجوده:

— يا الله... لقد أكلني العالم.

وبقي صامتاً.

خارج الفندق كانت المدينة تواصل ضجيجها.

السياسيون يهددون.

الشاشات تشتعل.

الأسواق تصرخ.

والجيوش تتحرك في الخرائط.

أما هنا، في هذه الغرفة الصغيرة، فكانت حرب أخرى تُحسم.

حرب رجلٍ ضد الفراغ.

وحين انتهى من الصلاة، شعر أن الهواء تغيّر فعلاً.

كان الغرفة اتسعت.

كان الجدران تراجعت قليلاً إلى الخلف.

نظر نحو الهاتف.

كان مطفاً الشاشة، ساكناً، بلا سطوة.

وللمرة الأولى، بدا صغيراً.

اقترب من النافذة مرةً أخيرة.

في السماء فوق طهران، كان هناك نجم وحيد يقف وسط العتمة، كحارسٍ قديم.

ابتسم زيد ابتسامة خفيفة.

ثم فهم شيئاً متأخراً:

أن النجاة لا تأتي دائماً من هزيمة العالم...

أحياناً تأتي فقط من استعادة النفس قبل أن تتحول إلى تطبيقٍ آخر داخل هاتفٍ بارد.

وليمة الأجنحة المكسورة (٤)

كانا صديقين... لا، لم يكونا كذلك تماماً.

كانا شقيين لروح واحدة تاهت بين الماء والتراب، ثم اضطرت أن تتعايش في مدينة لا تشبه أحداً.

عباس خرج من الأهوار كما يخرج الضوء من شقّ في ظلمة كثيفة.

ابنُ قصبٍ يتنفس الضباب، ويحفظ في دمه خفة الطيور أكثر مما يحفظ أسماء الأشياء.. , كان يمشي وفي داخله ماءٌ لا يهدأ، كأنه خلُق ليغادر دائماً نحو شيء لا يُسمّى.

وعلي خرج من جهة أخرى من الحكاية.

ابنُ أرضٍ ثقيلة، مشدودة بالعشيرة والحقول والطقوس القديمة.. , يعرف قيمة الثقل في كل شيء: في اللحم، في الكلام، في الصمت، وحتى في الصداقة.. , كان يمشي كمن يحمل ظلّ الأرض على كتفيه، لا يرفعه عنه حتى في الأحلام.

في العاصمة، التقيا.

المدينة لم توحدّهما، بل أخفّتهما داخل قناع واحد اسمه “الطالب”.

لكن تحت القناع، كان عباس يسمع خريز الأهوار كلما أغمض عينيه، وكان علي يشعر بأن التراب يتحرك في دمه كلما ضحك.

كانا معاً لأن الغربة تصنع صداقات سريعة، لكنها لا تضمن لها البقاء.

في البداية، لم يكن بينهما شيء سوى الأكل والكلام والوقت الضائع.

لكن عباس كان يرى في الطعام طقساً للعودة، لا مجرد حاجة.. , كان يشتاّق إلى لحم الطيور كما يشتاّق الغريق إلى سطح الماء.

أما علي، فكان يرى في الطعام تشبيهاً للوجود، شيئاً يجب أن يكون ثقیلاً بما يكفي ليُطمئن الأرض في داخله.

علي، كان يؤمن أن اللحم ينبغي أن يكون ثقیلاً، أرضياً، له صوف وذاكرة مراعي خضراء ...

كان أحدهما يأكل ليحلم، والآخر يأكل ليبقى.

في صباحٍ عادي، استيقظ عباس على رغبة لم يفهم مصدرها.

لم تكن جوعاً، بل نداءً قديماً.

كان طائرًا مبللاً بالطين يقرع نافذة ذاكرته.

أمسك هاتفه، وكتب رسالة إلى قريبه في ميسان:

“أرسل لي من الطيور الحرة... ما يكفي لوليمة.”

لم يكن يطلب طعاماً فقط.

كان يطلب نسخة من نفسه قبل أن تضيع.

دعا علياً إلى الوليمة.

قال له بصوتٍ فيه شيء من الرجاء:

“تعال... ستأكل شيئاً لا يشبه الأرض.”

تردد علي.

فكرة الطيور لم تكن تثير فيه شهوة، بل شكاً غامضاً.

لكنه جاء، احتراماً لشيء لا يعرف اسمه: ربما الصداقة، ربما العادة،

وربما الفراغ.

وقبل الموعد بيوم، تسلمت إلى علي رسالةً من عباس يخبره فيها بأن

وليمة الغد ستكون من لحم طائر “الحذاف”، وهو أقل جودة من بقية

الطيور الحرة غالبية الثمن والتي اشتراها من محافظة ميسان .

لم تكن الكلمات إشادة ولا تحذيراً، بل اعترافاً بالحقيقة العارية... ؛ وهنا،

في صمت المضيق، انكسر الخيط العنكبوتي... ؛ وقرأ علي بين

السطور إهانةً لم تُكتب... ؛ اذ رأى في “الحذاف” رمزاً للبدل

الرخيص، للقيمة المُستَهانة...؛ كانت الكلمات قصيرة، لكنها وقعت على قلب علي كحجر في كأس ماء.

قرأ الرسالة مرات...

ثم بدأ داخله يتحدث بلغة الميراث:

لماذا الأدنى لي، والأعلى له؟

هل الصداقة تُطعم الفئات؟

وهل الكرم يُقاس بما يبقى في يد المعطي؟

“يحتفظ بالغالي لنفسه، ويُطعمني فئات موائده!” هكذا حكم .

فأرسل اعتذارًا باردًا مهذبًا ، نسيجه من حجج شفافة كالزجاج، تُخفي وراءها صخرة كبرياء... ؛ تخيل أن الدعوة حجابٌ لُطِّخَ بازدراء، لا جسرٌ من لحمٍ وریش... ؛ فالحقيقة كانت أكثر مرارة: لقد شعر بالإهانة.

إذ اعتبر أن هذه الدعوة إهانة لا تكريمًا؛ فقد استبدل عباس الأغلى والأطيب بالأدنى، وهذا يدل — في نظره — على أن عباس يحتفظ لنفسه بالطيور الحرة غالية الثمن، بينما يطعم أصحابه ما هو أدنى وأرخص...

في تلك الليلة، جلس عباس وحيدًا أمام الطيور المشوية...

لم يفهم لماذا انكسر الجسر فجأة...

كان يظن أن المشاركة وحدها كافية...

لم يكن يدري أن بعض القلوب لا تبحث عن الطعام ؛ بل عن الاعتراف والتقدير والاحترام .

وأن بعض النفوس لا تقبل أن تُطعم مما لا يُحب صاحبه أن يخسره...

هناك، في مكانٍ ما بين القدر والصحن، تذكر علي في بيته الآية القرآنية :
((لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون))

فالبر ليس وليمة...

البر امتحان خفي للنوايا...

وفي المدن الكبيرة، لا تموت الصداقات بسبب الجوع ... ؛ بل بسبب
سوء الترجمة بين ذاكرة الماء وذاكرة الأرض...

ولعل الآية الكريمة كانت ناظرة إلى مثل هذه النفسانيات؛ فبعض النفوس
أنانية تشح بالخير، وبعضها يؤثر الآخرين على نفسه وينفق مما يجب.

نعم، إن كتاب القرآن الكريم كان يعلم أن بعض النفوس الأبيية لا تقبل
بفتات الموائد، ولا بما رخص من الطعام.

في تلك الليلة، لم ينم علي بسهولة.

لم يكن غاضبًا بقدر ما كان مثقلًا بفكرة واحدة:

أن الإنسان لا يُهزم بما يُقال له... بل بما يظنه عن نفسه حين يُقال له
شيء صغير.

كان يعرف حديثًا قديمًا، لم يعد يذكر أين سمعه:

أن البر لا يُقاس بالنية فقط، بل بما يُنفق من المحبة حين تكون المحبة
مؤلمة.

لكن الألم، حين يختلط بالكرامة، لا يعود حكمة... بل يصيح جدارًا.

وفي مدينة كبيرة كهذه، لا تموت الصداقات فجأة.

تموت ببطء...

عبر رسالة صغيرة، أو طائرٍ أقل مما يجب، أو معنى لم يُشرح في وقته.

وهكذا، بين الماء الذي يفسّر كل شيء بالحنين، والأرض التي تفسّر كل شيء بالكرامة،
سقطت وليمة أخرى...

لا على الطاولة، بل بين قليبين كانا يظنان أنهما يفهمان بعضهما.

مصطبة بين عالمين (٥)

كان أحمد يمشي في الحياة كما يمشي رجلٌ يعرف أن الوجوه خلقت لتلتفت إليه...

طويلاً، مشوقاً، يجزّ وراءه ظلاً من الهيبة الباردة؛ كأن الجمال لم يكن صفة فيه، بل سلطة خفية تُمارس على الآخرين دون قصد.. , شفاته ورديتان كفجرٍ خجولٍ يتردد في إعلان نفسه، وخداه يحملان دفناً دائماً، كأن الحياة قبلته هناك ذات شغفٍ قديم ولم تغادر.. , أما أنفه الروماني فكان حاداً كقطعة مرمري نحتتها يد الزمن بصبر نبوي، بينما شعره الأسود الكثيف بدا كموجٍ ليليٍّ هائج، تاجاً من كبرياء لا يعترف بالروس المنحنية.

وحين يمشي، لا يعجل الخطى أبداً...

كان يسير الهويني، كأن الشوارع خلقت لتفسح له الطريق، فنتبعه العيون دون وعي، وتتعرّ به القلوب كما تتعرّ الفراشات بنورٍ لا تعرف إن كان خلاصاً أم احترافاً.

النساء كنّ يفتنّ بنظرته؛ تلك النظرة التي تجمع بين برودة الرخام ولهيب الكبرياء، لكن أحداً لم يكن يدرك أن خلف ذلك الوجه المضيء كانت

تعيش نفس متعبة، موشومة بندوب نرجسية قديمة، وقلب يشبه قلعة مهجورة يسكنها طائر أسود من العقد، لا يغرد إلا لنفسه.

لقد تعلم أحمد، منذ سنوات بعيدة، أن اللامبالاة أكثر أناقة من الاعتراف بالألم.

وحين خانه أول حب في شبابه، لم يبكِ... بل شيد داخل روحه جداراً من التعالي، وأقنع نفسه أن البشر مجرد ظلال عابرة، وأن الاقتراب ضعف، وأن الحنان فخ لا يليق بمن يريد النجاة.. ومنذ ذلك الحين، صار يوزع ابتساماته كما يوزع الأثرياء الصدقات: بيروء محسوب، دون أن يمنح قلبه لأحد.

في مساء معتدل، خرج بعد عشاء ثقيل بلا شهية، يتمشى في حيّ الرافقي، حيث الأشجار الباسقة تتبادل الأسرار فوق الرؤوس، والحدائق العامة تُسرح أنفاسها الخضراء في صدور المارة.. جلس على مصطبة حديدية في الحديقة المقابلة للمقهى المعتاد، وطلب قهوته السوداء.. جاءه العامل مسرعاً، لا لأن القهوة تحترق شوقاً إليه، بل لأن إكرامية أحمد كانت تعادل نصف أجر يوم كامل.

أشعل سيجارة، وراح يرتشف القهوة متصنعاً لذة لا يشعر بها.

كان يبدو هادئاً، لكن داخله كان صحراء واسعة؛ نجاح، شركات، علاقات عابرة، نساء كثيرات... ومع ذلك، ثمة فراغ غامض ينهشه بصمت، كدودة سوداء تأكل جذور شجرة تبدو من الخارج مزدهرة.

حينها جلس إلى جانبه رجل خمسيني قصير القامة، أبيض اللون، يرتدي معطفاً قديماً بعناية مبالغ بها، كأن الفقر حاول إذلاله طويلاً لكنه فشل في انتزاع كرامته.

كانت ملامحه تشبه أساتذة الأزمنة الغابرة؛ أولئك الذين يحملون في أعينهم تعب الكتب القديمة ورائحة الورق المعتق.. اسمه حسين..

رجلٌ اعتاد الهرب من حيّه الفقير في أطراف العاصمة إلى هذه الحديقة كلما ضاق صدره، حتى صار الحلم نفسه أضيق من أن يتسع لأنفاسه.

تبادلا التحية.

سلامٌ عابر في ظاهره، لكنه بدا كأن القدر كتبه منذ زمن بعيد ثم نسي أن يسلمهما إياه إلا الآن.

لاحظ أحمد شيئاً غريباً منذ اللحظة الأولى...

ذلك الرجل البسيط، المختلف عنه في كل شيء، كان يملك حضوراً دافئاً يهزم برودة المكان.. لهجته الشعبية، هندامه المتواضع، طريقته القديمة في الكلام، كلّها بدت بعيدة عن عالم أحمد الأنيق؛ ومع ذلك شعر نحوه بألفة مربكة، كحنينٍ إلى ذكرى لم يعيشها قط، أو كأن روحاً قديمة داخله تعرّفت إلى روح أخرى كانت تنتظرها منذ سنوات.

بدأ حسين يتكلم، وبدأ أحمد ينصت.

ولأول مرة منذ زمن طويل، لم يكن يصغي بدافع التهذيب، بل بدافع الجوع.

جوع خفيّ للفهم... للصدق... لشيء لا يُشترى بالمال.

حكى حسين عن شبابه، عن زوجته التي ماتت مبكراً وتركت له ابنة تزوجت ورحلت، وعن الوظيفة الحكومية التي أفنت عمره ثم رمت به إلى التقاعد كعلبة معدنية فارغة.

كان يتكلم بمرارة ساخرة، بينما عيناه تحملان ذلك الحزن الناضج الذي لا يصرخ، بل يجلس بهدوء داخل الروح مثل شيخٍ متعب.

أما أحمد، فوجد نفسه يتكلم دون حذر، كأن شيئاً في صوت حسين كان يفتح الأبواب المغلقة داخله.

حكى عن نجاحه، عن السفر، عن النساء اللواتي مررن في حياته كالعطور السريعة، وعن شعوره الدائم بأن الجميع يريدون شيئاً منه، لا منه هو.

اعترف، للمرة الأولى، بأنه يشعر أحياناً كأن حياته صالة فاخرة مليئة بالمرايا، لكنها خالية من البشر الحقيقيين.

مرّ الوقت كحلم قصير.

أغلق المقهى، وخَلَّت الحديقة، وبقي الرجلان على المصطبة الحديدية يتحدثان كما لو أنهما يعرفان بعضهما منذ عمرٍ كامل.. , وحين انتهيا للوقت، كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً.

نهضا مرتبكين من دهشة القرب السريع.

تبادلا أرقام الهواتف، وافترقا، لكن كليهما كان يحمل داخله قللاً جميلاً؛ ذلك القلق الذي يشبه بداية الحب أو بداية النجاة.

في اليوم التالي، استيقظ حسين مساءً على اتصالات فائتة من أحمد.

ابتسم بعفوية لم يعرفها منذ سنوات، واتصل به فوراً، لكن الهاتف كان مغلقاً.. , أعاد المحاولة مراراً...؛ عبثاً.. , مرّت الأيام ثقيلة، والحديقة صامتة، والمصطبة باردة كأنها فقدت سرّها.

وللمرة الأولى منذ وفاة زوجته، شعر حسين أن الوحدة تعود لتنهش قلبه بأسنان حادة.

لم يفهم كيف استطاع شاب لم يعرفه إلا لساعات أن يترك داخله هذا الأثر العميق.. , لكنه أدرك أن الإنسان، مهما كبر، يبقى محتاجاً إلى روح تشبهه أو قد تختلف عنه اختلافاً جذرياً كي لا يسقط تماماً في هاوية نفسه.

أما أحمد، فقد باغته اتصال عمل عاجل من دبي، فسافر على عجل.

أراد أن يخبر حسين، لكنه نسي هاتفه الشخصي؛ ذلك الهاتف الذي خصصه للحالات الإنسانية والعاطفية الخاصة، وكان العاطفة عنده ملفّ منفصل عن بقية الحياة.

في دبي، بين الأبراج الزجاجية والوجوه اللامعة، شعر أحمد بغربةٍ لم يشعر بها من قبل.

كان يسير وسط المدينة الأكثر صخبًا، لكنه يسمع داخله صمتًا هائلًا.

كل شيء هناك يلمع: السيارات، النساء، الفنادق، الاجتماعات... لكن روحه كانت تتطفئ ببطء.. , وكان شبح حسين يطارده كظلّ ضمير طويل؛ يتذكر ضحكته البسيطة، طريقته في الإصغاء، ودفع الكلمات الخارجة من قلبٍ متعب لكنه صادق.

حينها فقط أدرك أحمد أن العمل الذي ملأ حياته لم يكن إلا ضجيجًا كثيفًا يغطي على صمت الروح.

أنهى أعماله بسرعة، وعاد بعد تسعة أيام بدت له دهرًا كاملاً.

بحث عن حسين بجنونٍ مكتوم؛ عاد إلى الحديقة يوميًا، جلس على المصطبة نفسها، طلب القهوة ذاتها، راقب الوجوه العابرة، واتصل مرارًا... , لكن الفراغ كان يجيبه كل مرة.

وفي الجهة الأخرى من الحكاية، كان حسين قد سافر إلى الهند لإجراء فحوصات طبية معقدة بعد تدهور صحته.

مكث شهرًا كاملاً في أروقة المستشفى، محاطًا برائحة الأدوية والموت البطيء، ولم يكن يملك من العالم سوى صورة أحمد العالقة في خياله؛ صورة ذلك الشاب الجميل المتعالي الذي اكتشف خلف غروره قلبًا خائفًا يشبه طفلًا ضائعًا في مدينة ضخمة.

كان يفكر به كثيرًا... أكثر مما ينبغي.

أحيانًا كابنٍ لم يُرزق به، وأحيانًا كصديقٍ متأخر أنقذه من وحشة
الشيخوخة، وأحيانًا كشيءٍ غامض لا اسم له؛ شيء يتجاوز العلاقات
المألوفة، ويشبه حاجة الأرواح إلى بعضها حين تتعب من العالم.
وحين عاد أخيرًا، اتصل به.

رفع أحمد السماعه، وما إن سمع صوت حسين حتى سرت قشعريرة حادة
في جسديهما، كأن صعقة كهرباء أيقظت شيئًا نائمًا في أعماق الروح.
تواعدا على العشاء.

وحين التقيا، تعانقا طويلاً... لا كصديقين، بل كناجين من وحدةٍ مشتركة،
كأن كل واحد منهما كان يمسك بالآخر كي لا يسقط مجددًا في هاوية
نفسه.

منذ تلك الليلة، تغير كل شيء.

صار حسين جزءًا من حياة أحمد اليومية؛ يشاركه الطعام، السفر
القصير، وحتى صمته الطويل.

وكان أحمد، للمرة الأولى، يشعر براحةٍ حقيقية حين يجلس قرب إنسان
دون حاجة إلى التظاهر بالقوة أو الكمال.

أما حسين، فقد عاد إليه الإحساس بقيمته الإنسانية.

لم يعد ذلك المتقاعد المنسي الذي يذوب ببطء في أطراف المدينة؛ إذ تكفل
أحمد بمعيشته، ونقله إلى منزلٍ أنيق، وأشركه في إحدى شركاته مستشارًا
إداريًا بعد تقاعده، لا بدافع الشفقة، بل اعترافًا بقيمة رجلٍ لم تُفسده الحياة
رغم قسوتها.

كان كلُّ منهما مرآةً للآخر.

أحمد رأى في حسين الشرف والطمأنينة والمعنى الذي افتقده وسط عالم المال البارد، وحسين رأى في أحمد فرصة متأخرة للعدالة؛ كأن الحياة اعتذرت له أخيراً عن سنوات الحرمان الطويلة.

وهكذا، على مصطبة حديدية في حديقة عامة، تصالحت طبقتان اجتماعيتان، وتعانق جرحان قديمان، واكتشف رجلان أن الخلاص لا يأتي دائماً في هيئة معجزة... بل قد يأتي أحياناً في هيئة إنسان يجلس إلى جوارك مصادفة، ثم يرمم داخلك بصمت.

ومنذ ذلك اليوم، أصبحا عالمين متكاملين:

أعطى أحمد حسين دفء الحياة المادية؛ منزلاً يضيء كقلعة في ليل الفقر، وعملاً يُلقي بحكمته، وأماناً طال انتظاره...

وأعطى حسين أحمد ما لم تمنحه له كل ثرواته: معنى يملأ الفراغ، وحكمة تهدئ العاصفة داخله، وحناناً أبويّاً أعاد إلى قلبه القدرة على الشعور.

ففي تلك المصادفة العابرة، وجد النرجسي أخيراً من يتجاوز مرآته ليرى العالم، ووجد الحكيم من يحول كلماته إلى ملجأ حي.

واختلطت الأقدار على تلك المصطبة، حتى بدا كأن الزمن نفسه توقّف هناك قليلاً... ليُرمم جزءاً صغيراً من خلله الكوني.

مرايا الإسفلت (٦)

في ليلةٍ كانت المدينةُ فيها تبدّل جلدّها الأخير من السنة، جلس عباس في المقهى كمن يجلس داخل ذاكرته لا على كرسيّ خشبي.

الأضواء المعلقة فوق الشارع بدت شاحبة، مثل ابتسامات موظفين أُجبروا على الفرح، فيما كان الضباب يهبط ببطء على الأرصفة، كأن السماء نفسها تريد إخفاء شيء ما قبل منتصف الليل.

أمام عباس، جلس صديقه القديمان: سالم وحيدر.

ثلاثتهم تجاوزوا الأربعين بقليل، لكن وجوههم تحمل تعب رجالٍ عاشوا أعماراً إضافية داخل أقبية أجهزة الأمن والحروب والتحقيقات والخيبات الوطنية.

كانوا يشربون الشاي والقهوة بصمتٍ متقطّع، ذلك الصمت الذي لا يخصّ الأصدقاء، بل الناجين.

قال سالم وهو يحرك المعلقة:

— الغريب أننا كلما كبرنا، صرنا نخاف من الهدوء أكثر من الضجيج.

ابتسم حيدر بسخرية باهتة:

— لأن الضجيج واضح... أما الهدوء ففيه كمان.

ضحك عباس قليلاً، لكنه لم يكن يصغي إليهما تماماً.

كان مأخوذاً بانعكاس وجهه على زجاج المقهى؛ وجهٌ بدا له غريباً، متعباً، كأنه يخصّ شخصاً مات منذ سنوات ولم يُدفن بعد.

وفجأة... تجمّد.

في الجهة المقابلة من الشارع، لمح رجلاً يخرج من محلّ للمعجنات ممسكاً بكيس ورقّي، وخلفه شاب عشريني يشبهه حدّ التطابق، سوى أن ملامحه لم تتعلّم القسوة بعد.

شعر عباس بأن شيئاً بارداً انغرس في معدته.

همس:

— إنه هو...

رفع سالم رأسه فوراً.

أما حيدر، فاكتفى بالنظر إلى وجه عباس؛ كان يعرف أن بعض الأسماء لا تحتاج إلى نطق، لأن الجسد نفسه يتذكّر لها قبل اللغة.

الرجل كان خصمهم القديم: فاضل الكرخي.

ضابط سابق تحوّل بعد سقوط الدولة إلى تاجر ظلال، ثم إلى مسؤول نافذ يسرق المؤسسات كما تُسرق الجيوب في الزحام.

كان واحداً من أولئك الذين يخرجون دائماً من الحروب أنظف من ضحاياهم.

راقبه عباس من خلف الزجاج.

لم يكره فاضل فقط؛ كان يشعر نحوه بإهانة شخصية، كأن وجوده الحرّ في المدينة دليلٌ على فشل العدالة كلها.

قال عباس بصوت منخفض:

— انظروا إليه... حتى وهو يشتري المعجنات يبدو كأنه يوقّع صفقة فساد.

لكن ما أربكه حقاً لم يكن فاضل، بل ابنه.

الشاب كان يضحك بعفوية وهو يختار قطع الحلوى، يلتفت إلى أبيه أحياناً كما لو كان ينظر إلى بطلٍ لا إلى لصّ.

وفجأة تسلّل سؤالٌ خبيث إلى رأس عباس:

هل الشرُّ يُورَث؟

أم أن الأبناء مجرد مرايا بريئة لأباء معطوبين؟

خرج الثلاثة من المقهى بحذر.

لم يكن قرار المطاردة قراراً واعياً تماماً؛ بدا الأمر كما لو أن سنواتهم القديمة في التعقّب والاستجواب نهضت وحدها داخل أجسادهم.

ركبوا سيارة عباس.

كانت المدينة مزدحمة بأبواق السيارات واحتفالات رأس السنة، لكن عباس شعر بأن كل شيء حوله صامت.

عيناه معلّقتان بسيارة فاضل الحكومية التي تشقّ الشوارع بثقة رجلٍ تعود ألا يحاسب.

قال حيدر:

— لا تقترب كثيراً.

أجاب عباس بعصية:

— أعرف.

لكن الحقيقة أنه لم يكن يعرف شيئاً.

كان يقود بانفعالٍ دفين، كأن المطاردة ليست لفاضل وحده، بل لكل ما خسره خلال السنوات الماضية: عمله، زواجه، إيمانه بالدولة، وحتى صورته عن نفسه.

انعطفت سيارة فاضل أكثر من مرة.

مرة تدخل شارعاً فرعياً، ثم تعود إلى الطريق العام.

مرة تتباطأ فجأة، ثم تسرع.

قال عباس:

— لقد كشفنا.

رد سالم:

— أنت مصاب بالارتياح يا رجل.

لكن الارتياح كان المهنة القديمة التي لم تغادرهم أبداً.

حتى بعد التقاعد، ظلّوا ينظرون إلى العالم بوصفه مؤامرة ناقصة.

بعد ساعة تقريباً، وصلوا إلى حيّ راقٍ عند أطراف المدينة.

توقفت سيارة فاضل أمام منزل ضخم تحيطه كاميرات وحراسة خفيفة.

أطفأ عباس المحرك.

ظلّ يحدّق بالبيت طويلاً.

قال حيدر:

— وماذا الآن؟

لم يُجب.

في داخله، كان شيء أكثر ظلمة يتشكّل.

لم يعد يريد فضح فاضل أو الانتقام منه فقط؛ كان يريد أن يثبت لنفسه أن

العالم لم يفقد منطقه بالكامل.

قال سالم:

— ربما نستطيع الوصول إلى ملفاته القديمة... أو نسرب مستندات...

قاطعه عباس:

— لا... هذا النوع لا يسقط بالوثائق.

ثم أضاف بعد صمت:

— يسقط بالخوف.

نظر إليه صديقه بقلق.

كانا يريان التحول الذي يحدث فيه ببطء؛ ذلك الخط الرفيع بين مطاردة المجرم والرغبة في التشبه به.

في طريق العودة، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.

الألعاب النارية بدأت تظهر بعيداً فوق المدينة، مثل انفجارات ملونة بلا معنى.

عباس كان يقود بسرعة زائدة.

قال حيدر:

— خفف السرعة.

لكن عباس لم يسمعه.

كان غارقاً في أفكاره:

وجه فاضل...

ضحكة الابن...

البيت الفخم...

سنوات الفقر...

وإحساسه المهين بأنه عاش شريفاً بلا جدوى.

وفجأة، ظهرت الشاحنة.

خرجت من العتمة كقدرٍ أعمى.

صرخة قصيرة.

ضوء أبيض.

ارتطام هائل.

ثم صمت.

في صباح اليوم التالي، استيقظت المدينة على خبر الحادث كما تستيقظ دائماً على مآسي الآخرين: بسرعة، ثم بلا اكتراث.

مات سالم فوراً.

أما حيدر، فدخل في غيبوبة طويلة.

عباس وحده نجا، لكن النجاة نفسها بدت له شكلاً آخر من العقاب.

في المستشفى، ظلّ يتذكّر لحظة الاصطدام لا بوصفها حادثاً، بل كأنها حكمٌ خفيّ.

كان يشعر أن الشاحنة لم تصدم السيارة فقط، بل صدمت الوهم الذي عاشوا داخله سنوات: وهم أنهم ما زالوا قادرين على إصلاح العالم أو حتى فهمه.

بعد أسابيع، خرج عباس بعكازٍ ووجهٍ جديد.

صار يمشي ببطء قرب الطرق السريعة، يحدّق بالإسفلت طويلاً، كأنه يقرأ عليه سيرةً سرّية.

اكتشف متأخراً أن فاضل لم يكن عدوه الوحيد.

كان هناك عدو آخر أكثر قرباً ووحشية: ذلك الفراغ الذي يتكوّن داخل الإنسان حين يشعر أن الشرّ أكثر نجاحاً من الفضيلة.

ومنذ تلك الليلة، كلما رأى انعكاسه على زجاج السيارات أو برك المطر،
كان يتذكّر حقيقة مرعبة:

نحن لا نطارد أعداءنا فقط...

بل نطارد النسخ المحتملة من أنفسنا.

نعم، بعد الحادث، ظلّ الإسفلت مرآةً كبيرةً تعكس ما لا نريد رؤيته: أن
الشر لا ينتصر لأنه قوي، بل لأن الصدفة كثيراً ما تصطفّ إلى جانبه...
؛ وأن بعض المطاردات لا تنتهي بإمساك الهدف، بل بانكشاف معنى
أعمق: نحن نلاحق أشباحنا بقدر ما نلاحق أعداءنا، وحين نعتقد أننا نكتب
النهاية، يكون القدر قد طوى الصفحة وبدأ قصةً أخرى مغايرة...!!

مرأة الله المكسورة (٧)

ياسر: سيرة رجلٍ كان يظنُّ أن الروح تُهَدَّبُ الجسد، قبل أن يكتشف أن
الجسد هو الامتحان الأخير للروح.

في مدينةٍ عراقيةٍ كانت تتأكل ببطء تحت أحذية الخوف، وُلد ياسر كأثمه
خطأً روحيّ في دفتر العالم.

لم يكن طفلاً بقدر ما كان سؤالاً مبكراً عن الله.

الأطفال في الزقاق يركضون خلف الكرات والدعابل، أمّا هو فكان يقف
قرب الجدار الطيني الطويل، يحدّق في السماء كما لو أنّ ثمة باباً سرّياً
فوق الغيوم نسيه الله مفتوحاً.

كان يشعر أنّه أقدم من عمره، كأنّ طفولته لم تحدث أصلاً، أو حدثت
لشخصٍ آخر ثم أُعطيت له بالخطأ.

لم يتعلّم اللعب، بل تعلّم المراقبة.

يراقب الناس كما يراقب ناسكٌ قافلةً عابرةً في صحراءٍ لا تخصّه.

كان أبوه يظنّه مؤدّبًا، وأمّه تظنّه صالحًا، والجيران يرونه هادئًا أكثر من اللازم.

لكنّ الحقيقة كانت أعمق من ذلك بكثير:

كان ياسر يخاف الحياة.

كلّما اقترب من البشر شعر أنّ روحه تتّسخ.

وكلّما اقترب من الله شعر أنّ جسده يفضحه.

في الليل، حين ينام الجميع، كان يستلقي على فراشه ويحدّق في السقف المظلم، ويتمتم:

— لماذا وضعتني داخل هذا الجسد يا الله، إذا كنت تريدني أن أطيّر؟

لكنّ الله لم يكن يجيب.

وكان الصمتُ يكبر داخله ككهف.

كبر ياسر في عراق الحروب والمشانق والحصار.

بلادٌ تُعلّق أبناءها على أعمدة السياسة ثم تطلب منهم أن يغنّوا للوطن.

رأى النعوش أكثر مما رأى الأعراس، وسمع بكاء الأمهات أكثر مما سمع الموسيقى.

وحين كان الآخرون يتعلّمون معنى الحياة، كان هو يتعلّم معنى الذنب.

أصبح الديّن ملجأه الوحيد.

يقرأ الكتب القديمة بنهم يشبه الجوع، يحفظ أسماء الله الحسنى، ويُطيل
السجود كأنه يريد أن يحفر بجهته نفقاً نحو السماء.

لكن شيئاً آخر كان ينمو في الظل.

جسده.

ذلك الحيوان الصامت الذي لم يكن يفهم اللغة التي تتكلمها روحه.

كانت الشهوة تأتبه على هيئة رؤى مباغتة:

وجه امرأة مجهولة، عنق أبيض، شعر مبتلّ، أصابع ناعمة، أو رائحة
أنثى تعبر قربه صدفة فتقلب داخله خرائط اليقين.

وكان يكره نفسه بعد كل ارتعاشة.

يشعر أنه يعيش بحقيقتين متناقضتين:

متصوّف يريد الفناء في الله،

وكائن أرضيّ تسحبه الغريزة إلى قاع الطين.

كان يتطهر كثيراً، يصلي كثيراً، ويبكي كثيراً.

لكن الرغبة كانت تعود دائماً، أكثر دهاء من التوبة.

شيئاً فشيئاً، صار يشعر أنّ الله يراقبه من داخل مرآة مكسورة:

كل قطعة فيها تعكس وجهًا مختلفاً له.

الزاهد.

الخاطئ.

العاشق.

المريض.

الطفل المرتعب.

والذئب المختبئ تحت جلد الناسك.

ثم ظهرت دلال.

ظهرت في الزقاق ذات ظهيرة خانقة، ومشيت ببطء كأنها خارجة من حلم قديم.

كانت ترتدي حجاباً بسيطاً، وتمشي مطأطئة الرأس، لكن حضورها كان يهز المكان كله.

شعر ياسر، لحظة رآها، أن العالم انقسم إلى نصفين:

ما قبل دلال،

وما بعدها.

عرف لاحقاً أنها ابنة رجلٍ أعدمه النظام لأنه متدين.

وكان في الأمر ما يشبه القرابة الخفية بينهما:

كلاهما يحمل داخله خراباً لا يراه أحد.

صار ينتظر مرورها كل يوم.

يقف عند زاوية الزقاق كأنه من حراس المعابد القديمة.

لم يكن يحبها بطريقة طبيعية.

كان يحبها كما يحب الجائع الخبز في سنوات المجاعة، وكما يحب السجين نافذته الوحيدة.

كانت بالنسبة إليه رمزاً أكثر منها امرأة.

الطهارة التي يريد لمسها.

والجنة التي يريد اقتحامها.

وهنا بدأ انهياره الحقيقي.

كان يتخيلها كثيرًا.

ثم يكره نفسه كثيرًا.

كلما حاول أن يراها روحًا، أعادها الجسد إلى الأرض.

وكلما حاول أن يشتهيها، شعر أنه يدنس شيئًا مقدسًا.

كان يعيش حربًا أهلية داخل جسده.

في اليوم الرابع والأربعين، حدث ما سيُفسد حياته كلها.

كانت وحدها في الزقاق.

وكان هو ممتلئًا حتى الاختناق.

اقترب منها فجأة، كأن شخصًا آخر خرج من داخله ودفعه نحوها.

قبّلها بسرعة مرتبكة، قبلةً خاطفة على وجهها ورقبتها، ثم هرب.

لم تستغرق اللحظة سوى ثوانٍ، لكنها مرّقت عمره إلى الأبد.

سمع صرختها خلفه، لا كصوت امرأة، بل كصوت ضمير يُذبح.

ظلّ يركض طويلاً.

وحين وصل غرفته، نظر إلى يديه كما لو أنّهما إذا شخص ارتكب جريمة.

في تلك الليلة لم يبك.

البكاء كان أرحم من شعوره الحقيقي.

لقد اكتشف شيئاً مرعباً:

أن الإنسان يستطيع أن يتحوّل إلى ما يكرهه خلال لحظة ضعفٍ واحدة.

ومنذ ذلك اليوم بدأ تعذيبه الداخلي.

لم يعد يرى نفسه عاشقاً، بل معتدياً على براءة شخصٍ آخر.

صار يشعر أنّ كلّ صلاةٍ لا تصل، وكلّ دعاءٍ يرتطم بسقف الغرفة ويعود إليه مكسوراً.

وكان السؤال ينهشه بلا توقف:

كيف يمكن لرجلٍ أحبّ الله بهذا العمق أن يؤذي إنساناً بهذه القسوة؟

مرّت السنوات.

كبر ياسر، لكنّ الحادثة بقيت حيّة داخله، كشوكةٍ في الروح.

تعرّف لاحقاً إلى أخيها محسن في المدرسة، وصارا صديقين.

وكان كلّ لقاءٍ معه يشبه وقوفه أمام محكمةٍ سرّية.

ثم حدث ما لم يكن مستعداً له.

ذهب ذات مساءٍ إلى بيت محسن.

طرق الباب.

فتحت دلال.

تجمّد الزمن.

لم تقل شيئاً، لكنه رأى في عينيها تلك اللحظة القديمة كاملةً، كأنّها لم تنتهِ بعد.

أغلقت الباب بهدوء.

وكان ذلك الهدوء أشدّ عليه من أيّ شتيمة.

عاد إلى البيت محطّمًا، وشعر أنّ الإنسان قد يُسامح على أخطائه كلّها، إلا الأخطاء التي تُشعر الآخر بأن جسده لم يعد آمنًا للحظة واحدة.

ومنذ تلك الليلة، صار يفهم الأخلاق بطريقة مختلفة:

ليست الأخلاق قمع الرغبة،

بل حماية هشاشة الآخر من عنف رغباتنا.

بعد سنواتٍ أخرى، شاهد زفةً دلال.

كانت ترتدي الأبيض.

لكنّ الأبيض بدا له كالكفن.

شعر أنّه يخسر شيئاً لم يكن يملكه أصلاً.

لا المرأة فقط، بل النسخة النقيّة من نفسه التي ماتت يوم قبّلها بالقوة.

تزوَّج لاحقًا من امرأةٍ أخرى، عاش حياةً عاديةً في ظاهرها، لكنّ الداخل ظلّ خرابًا مؤجّلاً.

وفي أحد الأيام، عادت زوجته من زيارةٍ لبيت دلال، وقالت له بهدوء:

— دلال تسأل: هل تاب ياسر؟

ارتجف.

لم تكن تسأله إن كان قد صلّى أو استغفر.

كانت تسأله إن كان فهم.

إن كان أدرك أخيراً أنّ التوبة ليست خوفاً من الله فقط، بل اعتناقاً كاملاً
بإنسانية الآخر.

دخل غرفته تلك الليلة، وأغلق الباب، ثم كتب على الجدار:

“الخطيئة ليست ما تفعله الأجساد فقط...”

الخطيئة الحقيقية أن ترى الإنسان موضوعاً لرغبتك، لا عالماً كاملاً من
الألم والكرامة والخوف.”

ثم جلس طويلاً في الظلام.

وحين نام، رأى دلال في الحلم طفلةً تحمل مصحفاً مبللاً بالمطر، وتنتظر
إليه بحزنٍ عميق.

قالت له:

— تب إلى قلبك أولاً... فالله لا يسكن القلوب التي تؤذي ثم تبرّر.

استيقظ فجراً.

توضّأ ببطء، كأنه يتعلّم الماء للمرة الأولى.

وحين رفع يديه إلى السماء، لم يطلب المغفرة هذه المرة.

بل طلب أن يصبح إنساناً.

مذكرات رجلٍ لم يعد يخاف من شيخوخته (٨)

في بيتٍ قديمٍ عند أطراف المدينة، بيتٍ يشبه ذاكرةً رطبةً أكثر مما يشبه مكاناً للسكن، جلس حسين قرب النافذة الخشبية يتأمل الغبار وهو يعبر شعاع المغيب ببطءٍ جنازي.

كان بيت زيد دائماً يثير فيه شعوراً غامضاً؛ كأن الأرواح التي مرّت من هنا لم تغادر تماماً، بل بقيت عالقة في الستائر الثقيلة ورائحة القهوة والكتب الصفراء.

في تلك الأمسية، كان رضائي هناك.

جلس في الزاوية المعتادة، نصف غارق في الظل، كأنه رجل خرج لتوّه من صورة قديمة.

كان أكبر من حسين بخمسة عشر عاماً، لكن الفارق الحقيقي لم يكن في العمر، بل في التعب.

رضائي بدا كمن عاش أكثر من حياة داخل جسد واحد؛ رجلٌ أكلته المدن، وخانتها الأحلام، ثم عاد من كل ذلك بوجهٍ هادئٍ يشبه الحكمة أو الاستسلام، ولم يكن حسين يعرف أيهما بالضبط.

منذ سنوات، كان يعتبره نوعاً من "الأخ الأكبر المتأخر"... أو الأب الذي يصل بعد خراب البيت.

أشعل رضائي سيجارة، راقب الدخان وهو يصعد ملتوياً، ثم سأل فجأة:

— كم عمرك الآن يا حسين؟

ضحك حسين بخفة:

— خمس وثلاثون... أو أقل بقليل من الخيبة الكاملة.

ابتسم رضائي دون أن يضحك.

كانت لديه تلك الابتسامة التي لا تمنح الطمأنينة، بل تمنح شعورًا بأن
الرجل يعرف شيئًا مرعبًا عن المستقبل.

قال بهدوء:

— الخامسة والثلاثون أخطر من العشرين... لأنك تبدأ فيها بسماع
صوت التصدعات الأولى.

سكت قليلاً، ثم مال نحوه:

— هل تعرف ماذا يحدث بعد الأربعين؟

رفع حسين كتفيه:

— يزداد الوزن... يتساقط الشعر... يبدأ الناس بالحديث عن الضغط
والسكري والموت المبكر.

هزّ رضائي رأسه ببطء.

— لا... بعد الأربعين يحدث الانقلاب الحقيقي.

الجسد لا يشيخ فجأة... الروح هي التي تتعب أولاً.

تكتشف أنك لم تعد تركض نحو الحياة، بل تحاول فقط ألا تسقط منها.

ثم أضاف وهو يحدّق في فئجانه:

— قبل الأربعين، يظن الإنسان أن الوقت لا نهائي.

بعدها، يبدأ برؤية نهايته في التفاصيل الصغيرة:

في صعود الدرج...

في أسماء ينساها فجأة...

في الوحدة التي تأتي ليلاً دون سبب.

كان صوت المطر بالخارج يزداد.

أما حسين فشعر بشيء ثقيل يستيقظ داخله.

قال رضائي:

— اسمعني جيداً... أسوأ ما يحملته الرجل إلى شيخوخته ليس

المرض... بل الأشياء التي لم يعشها.

رفع حسين حاجبيه:

— تقصد الندم؟

— الندم ليس فكرة... الندم كائن حي.

يأكل الإنسان من الداخل ببطء، ثم يجلس مكان قلبه.

ظلّ حسين صامتاً.

أكمل رضائي، بصوتٍ بدا كأنه اعتراف شخصي أكثر من كونه نصيحة:

— الناس يظنون الفضيلة هي أن تقمع نفسك دائماً... , لكن الكبت

الطويل يتحول إلى عفن روحي.

الرغبات التي لا تُعاش لا تموت...؛ بل تبقى متجمدة داخلك، ثم تعود في

الشيخوخة مشوهة ومذلة.

ثم ضحك فجأة، ضحكة قصيرة متعبة:

— أتدري ما مأساة الشيخوخة يا حسين؟

أن الجسد يتحول إلى مترجم سيئ للرغبات.

تشعر بالجوع ولا تستطيع الأكل.

تستهي النوم فيطردك الأرق.

تشتاق إلى امرأة، فيقف الجسد بينك وبين خيالك كحارسٍ عجوز خائن.

ابتسم حسين رغم قلقه.

لكن رضائي لم يكن يمزح.

قال وهو يطفئ سيجارته:

— افعل ما تستطيع الآن.

سافر.

أحب.

اخطئ.

اخسر مالك إن لزم الأمر.

جرب الحياة قبل أن تتحول إلى متحف ذكريات ممنوع اللمس.

ثم اقترب منه أكثر:

— لا توجل نفسك يا حسين... , لأن الإنسان حين يوجل حياته طويلاً،

ينتهي به الأمر وهو يعيش بقايا عمرٍ لا يشبهه.

تسللت الكلمات إلى حسين كسمٍ بطيء.

في تلك الليلة، خرج من بيت زيد وهو يشعر أن العالم اتسع فجأة.

كان رضائي لم يمنحه نصيحة، بل سلمه مفتاحاً سرياً للحياة.

وخلال السنوات التالية، عاش حسين بعنف.

سافر كثيرًا، أحب نساءً كثيرات، خسر أموالًا، دخل في صداقات مدمرة،
وخرج منها، شرب الحياة حتى الثمالة.

كان يصرف مدخراته كما لو أن المستقبل عملية احتيال اخترعها
الخائفون.

كان يريد أن يهزم الندم قبل أن يولد.

لكنه، دون أن يشعر، كان يهرب أيضًا.

يهرب من فكرة الفراغ.

من خوفه القديم أن يصبح رجلًا عاديًا يعيش ثم يموت دون أثر.

وحين بلغ الأربعين، لم يشعر بشيء خارق.

لا أبواب سماوية فتحت، ولا حكمة هبطت عليه.

فقط تعبٌ خفيف بدأ يسكن المفاصل.

ثم جاءت الخمسون.

وهنا بدأت الفاتورة.

ارتفع الضغط.

ضعف القلب.

صارت الأدوية مصطفة قرب سريره كجنودٍ يحرسون هزيمته اليومية.

وأصبح جسده الذي حمله عبر المغامرات يتصرف نحوه بشيءٍ من
الانتقام.

وفي ليلة شتوية قاسية، استيقظ مذعورًا على ضغطٍ حاد في مثانته.

حاول النهوض.

لكن جسده كان أبطأ من الإلحاح.

وقبل أن يصل إلى الحمام، انفلت البول دافئاً ومهيباً فوق ساقيه وملابسه.

تجمد في مكانه.

كانت الإهانة أشد من الألم.

نظر إلى نفسه طويلاً، كأنه يرى للمرة الأولى النهاية الحقيقية للإنسان:

ليس الموت... بل انهيار السيطرة.

جلس على حافة السرير يلهث.

ثم، وسط تلك اللحظة القاسية، عاد صوت رضائي من مكانٍ بعيد داخل ذاكرته:

“بعد الأربعين... لا نعيش كما نشاء، بل كما نستطيع.”

ضحك حسين فجأة.

ضحكة صغيرة، مكسورة، لكنها صادقة.

أدرك حينها شيئاً تأخر نصف عمره ليفهمه.

رضائي لم يكن يدعو إلى التهام الحياة بجنون...

بل كان يحذّره من أن يعيش مؤجّلاً.

الحرية لم تكن في الإفراط.

الحرية الحقيقية أن تصل إلى الشيوخوخة دون شعور بأن حياتك سُرقت منك.

نهض ببطء، غير ملابسه، ثم جلس قرب النافذة.

كان الفجر يتكوّن فوق المدينة مثل فكرة جديدة.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يشعر بالخوف من شيخوخته.

لقد خسر جسده تدريجيًا... نعم.

لكنّه لم يخسر حياته.

وفي ذلك الصباح البارد، فهم أخيرًا أن العمر ليس عدد السنوات التي نعبرها...

بل عدد المرات التي عشنا فيها بصدق، قبل أن يتحول كل شيء إلى ذكرى.

مدينة الدخان.. ومزرعة المعنى (٩)

١ - جحيم الرتابة

كانت الأيام تمر فوق رأس فاضل كقطار صدي لا يتوقف، يحمل في عرباته نفس الوجوه، نفس الغبار، نفس الحر الذي يوشك أن يغلي عروقه

في إحدى مدن العراق الوسطى القريبة من الجنوب؛ مدينة يشبه صيفها فرئًا مفتوحًا على مدار العام، شمسها لا تعرف الحياء، والهواء فيها ثقيلٌ كأنه يحمل تاريخًا طويلًا من الغبار والتعب؛ ولد فاضل في مدينة كان مناخها صحراويًا حارًا، جافًا، مشمسًا، وقليل الأمطار على مدار العام...

؛ وكأن السماء هناك نسيت أن للفصول وجوهاً مختلفة، فبقيت معلقة في صيف أبدي لا يرحم .

كانت المدينة التي يعيش فيها فاضل تشبه قدرًا كبيرًا تُغلي فيه الشمس البشر ببطء ... ؛سماءً بيضاء من شدة الضوء، وشوارع يغطيها غبارٌ قديم كأن الأرض تحاول أن تخفي تعبها تحت طبقة من التراب. الهواء نفسه بدا أحيانًا كأنه مريض؛ يتنفس بصعوبة ويُعدي صدور الناس بضيق يشبه ضيق الأيام ... ؛كان فاضل واحدًا من أولئك الذين ولدوا في مدنٍ لا تتغير... ؛ الأيام فيها تتشابه كما تتشابه النوافذ في بناية حكومية قديمة، والسنون تمرّ ببطءٍ كأن الزمن يجزّ قدميه فوق الإسفلت الساخن... .

نشأ فاضل بين رتابتين متوازيتين :

رتابة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات المتشابكة، ورتابة المناخ القاسي الذي لا يتغير... ؛ اذ كانت الأيام تتشابه حتى صار الزمن نفسه نسخة مكررة من ذاته ...

نعم , تسالت الرتابة إلى عظام فاضل كالمرض المزمن: رتابة الحياة الاجتماعية بعلاقاتها المتكررة، ورتابة الاقتصاد بضنكه الأبدي، ورتابة العلاقات العامة التي لا تقضي إلى عمق، ورتابة المناخ القاسي الذي لا يتغير. كان يعيش في صحراء مزدوجة: صحراء الطبيعة وصحراء الروح .

لكن ذاكرة فاضل كانت تقاوم هذا الجمود ... ؛كان يتذكر عقد الثمانينيات من القرن المنصرم ، حين كان الليل أبرد، والنسيم أرقّ، والسماء أكثر رافة بالبشر... ؛ كان أهله يضعون الرقي والبطيخ فوق السطوح ليبردوا وحدهما، ويتركون الماء في الحبّ الطيني فيصير باردًا دون كهرباء أو أجهزة... ؛ وكان الناس ينامون على الأسطح تحت النجوم , ويتحدثون مع القمر ؛ يكتفون بنسيم الليل بدل المكيفات... ؛ لكن تلك الايام ذهبّت من غير رجعة ... ؛ الان صار الهواء ثقيلًا، كأن المدينة ترتدي معطفًا من الدخان ... ؛ كان العالم أقل تعقيدًا... وربما أقل اختناقًا .

جسده نفسه صار مرآةً لبيئته الملوثة , اذ لم يحتمل هذه الحياة ... ؛ عانى فاضل طويلاً من الأجواء المناخية المسمومة... , اختنق , مرض , وتحسس ... ؛ كان يتحسس من كل شيء: حساسية في الأنف والرتتين والدم والجلد والعين ... ؛ باختصار , كان يتحسس من كل ما هو ملوث , سام , كيميائي , وغير طبيعي... ؛ كان جسده يرتجف كإنذار مبكر لكارثة بيئية آتية , لكن أحداً لم يكن يصغي .

نعم , كان يعاني من حساسية تشبه احتجاجاً بيولوجياً ضد العالم... ؛ أنفه يرفض الغبار , ورتناه تعترضان على الدخان , وجلده يحتج على السموم , وعينه تدمعان من تعب الهواء ... ؛ كأن جسده يعلن عصيانياً صامتاً على البيئة التي يعيش فيها .

ذات يوم , وبينما كانت شمس الظهيرة تضغط على صدور الناس , خرج بعض شباب الحي في تظاهرة احتجاجية يطالبون بالخدمات وتحسين الواقع الصحي... ؛ لكنهم أشعلوا النيران في إطارات السيارات الكبيرة ... ؛ فتقلع قطع الأسفلت من الشوارع العامة , وتقطع طرق المواصلات , وتتلوث البيئة , وتنتشر الأمراض الخطيرة ... ؛ ثم تكدست سحب سوداء كثيفة في السماء... ؛ وبدأ فاضل يختنق ... ؛ كان الدخان يتسلل إلى صدره كوحش خفي... ؛ ومع كل نفس كان يشعر أن الهواء نفسه صار خصماً له ...

وقف فاضل يتأمل المشهد المتناقض: شباب يطالبون بتوفير الخدمات وتحسين الواقع الصحي وإنشاء البنى التحتية , وهم أنفسهم يحرقون إطارات السيارات الكبيرة , فتقلع قطع الاسفلت من الشوارع العامة , وتقطع طرق المواصلات , وتتلوث البيئة , وتنتشر الأمراض الخطيرة .

وفي لحظة بين السعال والدوار تساءل في نفسه : هل الطريق إلى الفضيلة يمر عبر الرذيلة؟

وهل يبدأ الإصلاح بالخراب؟

وهل المطالبة بتحسين الواقع الصحي تتجانس مع إحراق الممتلكات العامة وإطلاق الروائح السامة وتلويث الهواء ؟

لم يجد جواباً ...!!

بدت له المدينة وكأنها تفكر بمنطقٍ معكوس؛ كأن الناس يريدون إنقاذ الغريق بإلقاء ماء البحر عليه ...!!

٢- ابنه الذي يرث الجرح

كان المشهد كله يبدو له مثل مفارقة كونية :ناس يطالبون بالصحة... وهم يصنعون المرض بأيديهم ... ؛لكن الألم الحقيقي جاء لاحقاً ... ؛ ابنه الصغير علي أصيب بعد تلك الحادثة بالربو والتهاب الرئتين، وأصبح مثله يتحسس من تلوث الجو... ؛ ورث الابن مرض الأب، كما يرث أبناء هذا الوطن جراحاته المزمنة... ؛ فما كسر قلبه حقاً لم يكن مرضه هو، بل مرض ابنه الصغير ؛ اذ صار صدر الطفل الصغير يصقّر عند كل نفس، كنايةٍ حزينٍ يعزف لحن التعب ... ؛ حينها شعر فاضل أن الهواء نفسه صار عدواً لعائلته ... ؛ وصار يتمنى لو كان باستطاعته استبدال هذا الوطن بآخر

٣-دعوة من الجبل

اتصل به أخوه الأكبر، طالب، وقال له بصوتٍ يحمل شيئاً من الطمأنينة :

يا فاضل، لماذا لا تأتي إلى الشمال؟

هناك قرية جبلية في السليمانية... ؛ ولدي صديق كردي طيب اسمه كاكّا عبد القادر، يملك فيها مزرعةً تتوسطها فيلا جميلة... الهواء هناك نظيف... ، كأنه خرج لتوه من رئة الغابة ؛ وقد تحدثت معه عن حالتك أنت وابنك، وقد دعاكم للإقامة أسبوعاً هناك.

صمت فاضل لحظة، وكأن الفكرة تبدو له كحلٍ بعيد ... ؛كانت الفكرة تشبه نافذة تُفتح فجأة في غرفةٍ خائفة .

وقال :متى نذهب؟

طالب :

غداً... , إن شئت .

استعد فاضل للسفر كالذي يستعد للحج ... ؛ حزم حقائبه كمن يحزم بقايا روحه ، ملأ سيارته بالبنزين، غير زيت المحرك، ذهب إلى السوق للتسوق... , واشترى مؤونة الطريق... ؛ كان يشعر أنه مسافر إلى جسد آخر غير جسده ... ؛ وكأنه على موعد مع خلاص ما ...

٤-رياح الجنة

في صباح اليوم التالي، انطلقت سيارة فاضل ... ؛ كانت العائلة معه: زوجته مريم، وأطفاله علي وسارة وقيس

مروا ببغداد ثم ديالى فصالح الدين فكركوك، حتى دخلوا حدود السليمانية بعد خمس ساعات من السفر... ؛ توقفوا خلالها للصلاة، ولتناول الطعام، ولشراء الفاكهة ...

كان الطريق طويلاً، لكنه بدا وكأنه رحلة من زمن إلى زمن ... ؛ كلما ابتعدوا عن الجنوب، خف ثقل الهواء ...

على تخوم السليمانية، فتحت الرياح الباردة ذراعيها لاستقبالهم... ؛ كانت النسمة كيد أم حنون تمسح على وجوههم المتعبة... ؛ تنفسوا بعمق، وكأنهم يتنفسون لأول مرة منذ أن خُلِقوا... , امتلأت صدورهم بالهواء النقي ، كأنهم خرجوا للتو من وادٍ مليء بالسموم إلى بستان من الأوكسجين!!

قالت مريم وزفرتها كشهقة عاشق : هكذا يكون الهواء ... ؛ كأننا خرجنا من فرنٍ ودخلنا الجنة .

كان السؤال يحمل في طياته خمسة وثلاثين عاماً من الاختناق...!!

٥- المزرعة : امرأة من ياقوت

وصلوا إلى المزرعة بعد أن دلهم برنامج الخرائط في جهاز الموبايل...
؛ وجدوا مفتاح البوابة الرئيسية كما قال كاكأ عبد القادر، فوق إحدى
دعامات البوابة الخارجية... ؛ فتحوا البوابة، وإذا بالمزرعة تستقبلهم
استقبال الجنة لأهلها ...

دهشوا للمناظر: أرضية معبدة بالحجر والمرمر تؤدي إلى الفيلا عبر
سلالم من المرمر الأبيض ؛ المرمر الأبيض كان يلعب كأنه سكر نثرته
الجن على الأرض ... ؛ نوافذ من الزجاج المضلل الجميل تغطي غرف
الفيلا ذات الطابقين، أعمدة إنارة حديثة تصطف على جانبي الطريق
كأنها حرس ملكي مهيب ...

أما الأشجار الباسقة فكانت قصة أخرى... ؛ خمسة دوانم من الجنة
الموزعة بدقة: عند المدخل تصطف أشجار الرمان و تقف كجنود
يحملون قناديل حمراء ... ؛ والحمضيات التي تنبعث منها روائح
الأزهار العطرة ؛ تعطر الهواء كبخور في محراب : البرتقال، الليمون،
ال نارنج، اللنكي، والسندي... ؛ ثم الأكواخ الخشبية التي تظلل كراج
السيارات وفناء الفيلا الأمامي، حيث العنب الذي يتساقط الأخشاب
كرياضي يتباهى بعضلاته وهو يصعد الجبال بزهو، ثم تتدلى عناقيده
الناضجة كمجوهرات سلطانية تضيء للناظر من بعيد .

ثم أشجار التفاح والإجاص، والجوز واللوز، والورود والزهور التي تملأ
المزرعة ... ؛ وكأنها أرواح قديمة تحرس المكان ومن فيه ...

دخلوا الفيلا عبر الصالة الكبيرة التي يتوسطها درج كبير مزين بمقابض
خشب الصاج الجميل، يؤدي الداخل إلى الطابق العلوي...، الدرج
الرخامي يصعد بهم إلى طابق الأحلام .

من السقف تتدلى ثلاث سلاسل طويلة تحمل ثلاث ثريات كريستال كبيرة،
تمنح المكان قدسية مرقد ديني أو فخامة فندق خمسة نجوم ... ؛ أربعة

أبواب خشبية تطل على الصالة: اثنان يؤديان إلى غرف نوم كبيرة مؤثثة بأثاث راقٍ و بذوقٍ هادئ، والثالث إلى مطبخ يلحق به فناء صغير فيه فرن لخبز الخبز وغسالة ملابس ومستلزمات منزلية أخرى ، والرابع إلى حمامات مزينة بأرقى أنواع الكاشي والسيراميك وأحواض الاستحمام الجميلة .

دخل فاضل وزوجته إلى الغرفة الأولى، ودخل الأولاد إلى الثانية .

٦- حوار في الجنة المؤقتة

جلست مريم على حافة السرير، تنظر من النافذة إلى الجبل البعيد، ثم قالت بصوت شجي كأنه بكاء قديم : لماذا لم نخلق نحن هنا... ؟ لماذا نحن هناك وهم هنا ؟

أجاب فاضل وعيناه تبحثان عن شيء لا يُرى: لو أن الطرق كانت سالكة، والأقذار مطاوعة ، والأسباب متيسرة، لهرب الجميع من الجميع... ؛ حتى هؤلاء الذين تراهم في جناتهم، يتمنون لو يهربون إلى جنة أخرى ...

مريم : لكن لماذا يا فاضل !؟

فاضل :الإنسان يستطيع أن ينتقل من مدينة إلى أخرى... ومن بلدٍ إلى بلد... ؛لكن المشكلة ليست دائماً في المكان ... ؛ فالإنسان يا مريم لا يهرب من المكان فقط... ؛ قد يهرب من ذكرياته، من فقره، من نظام جائر، من ماضٍ لا يغفر، من جريمة اقترفها أو عار لحق به، من روتين يقتله ببطء... ؛ كل إنسان يحمل في جعبته سبباً للهروب... ؛ نعم : لكل إنسان شيئاً يريد الهروب منه... ؛ أو شيئاً يريد الوصول إليه ... ؛ لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى الهجرة من منطقته في يوم من أيام حياته ... ، ولو أتاح الله للناس الأقدار، وتحكموا بها كما يشاؤون ؛لما بقي أحد في داره وحيه ومدرسته وعمله ومنطقته وبلده... ؛ لهرب الكل من الكل ، ولانهارت الدنيا وانقلبت الأمور رأساً على عقب .

ثم أضاف بصوتٍ هادئ : بعضهم يهرب من الظلم، وبعضهم من الفقر،
وبعضهم من الماضي، وبعضهم يبحث فقط عن نفسه، وبعضهم لا
يعرف لماذا يمكث ولماذا يرحل...!!

فاضل : ولهذا السبب تغيرت ظروف الناس وتفاوتت معاشهم
وأحوالهم... ؛ لكن طالما عانى أحرار الناس من هذه المعادلة... ؛ بل إن
بعضهم ضجر وتذمر واعترض على هذه الأقدار التي رفعت أناساً
وخفضت آخرين، وأسكنت ناساً في قصور وآخرين في أكواخ... ؛ وفي
لحظة صفاء، تذكر فاضل بيت الشعر الذي يلخص مأساة الإنسان مع
قسمته الضيزى، فأنشد بصوت خافت :

لو كنتُ كالله لي يدٌ في حركة الأفلاك *** لمحوث ما للفلك من آثار

وخلقتُ عوالم أخرى *** تسيرُ وفق مشيئة الأحرار

تأملت مريم كلماته، ثم قالت: “الله في خلقه شؤون.

٧-ضحكة الجنون المقدس

انتهى النقاش... ؛ راحت مريم تتفقد الأطفال في الغرفة الثانية، بينما
دخل فاضل إلى الحمام... ؛ بعد خروجه، أمرهم بالاستحمام، ثم أعد
الشاي وأحضر معجنات...

جلسوا في المساء جميعاً لأول مرة في حياتهم على طاولة مستديرة من
خشب الصاج الفاخر، حولها كراسي من الخشب المطرز بالألوان
الذهبية...

احتسوا الشاي حول الطاولة المستديرة، والمزهرية الكريستالية تتوسطهم
– فيها باقة ورد طبيعي تفوح رائحتها في المكان- كشاهد على لحظة
استثنائية... ؛ كانوا ينظرون إلى وجوه بعضهم ويبتسمون... ؛ ثم بدأ
الضحك كهمة خفيفة، ثم كموج، ثم كعاصفة...

فجأة علي ضحك ، فتبعه الجميع : ضحكت سارة وقيس ، ثم انفجرت مريم ضاحكة ، وبعد لحظة كان الجميع يضحكون بلا سبب ؛ ضحكوا حتى كادت الفيلا أن تطير بهم ... ؛ ضحكوا حتى امتلأت الصالة بالقهقهات ... ؛ صار الضحك عدوى تنتقل عبر الأثير.

لم يعرفوا لماذا يضحكون... ؛ ربما ضحكوا لأنهم كانوا سعداء حقاً لأول مرة، والسعادة الحقيقية لا تحتاج أسباباً ... ؛ ربما لأن الضحك كان غائباً عن حياتهم منذ زمن طويل ... ؛ ربما لأن أرواحهم، مثل صدورهم، احتاجت قليلاً من الهواء ... ؛ ربما لأن الضحك كان سجيناً في صدورهم منذ سنوات ... ؛ أو ربما لأن الإنسان حين يقترب قليلاً من السعادة...، يكتشف أن قلبه لم ينسَ كيف يفرح .

لم يعرفوا لماذا ضحكوا بلا سبب... ؛ خصوصاً أن جيل فاضل ومريم كان جيلاً مؤمناً بمقولات وأمثال كانت أشبه بدساتير للحياة الاجتماعية، منها (الضحك بلا سبب من قلة الأدب) لكنهم ربما ضحكوا على تلك المقولة البالية التي لاحقتهم طوال عمرهم: “الضحك بلا سبب من قلة الأدب”... ؛ ربما ضحكوا لأنهم اكتشفوا أن الضحك بلا سبب هو أجمل أنواع الضحك... ؛ ولعل هذه الضحكات هي الضحكات الحقيقية الصادقة البريئة التي حرموا منها بسبب الكبت والتقييد بالعادات والتقاليد والرؤى العفنة .

٨- حفلة الشواء اللذيذ

خلدوا الى النوم باكراً ، ثم استيقظوا في اليوم الثاني عند الواحدة ظهراً ... ؛ وبعد تناول الفطور الذي عوضهم عن وجبة الغداء ... ؛ نهضوا وراحوا يمشون في المزرعة، جابوها طويلاً وعرضاً، لم يتركوا متراً إلا وطئوه بأقدامهم... ؛ شاهدوا مسبحاً كبيراً ممتلئاً بالماء الصافي الزلال، وحوله كراسي ومصاطب للجلوس ...

غابت الشمس سريعاً... ؛ أضاءوا الفيلا والمزرعة بالمصابيح الكهربائية، وأخرجوا الموقد الحديدي للشواء، وأعدوا الحطب... ؛ ثم

قامت مريم بإعداد أسياخ اللحم والكفتة والكباب... ؛ عندما احترق الخشب، خرجت منه رائحة زكية... ؛ ثم هبت عليهم نسمة شمالية عذبة زادت من سعي النار ومن لهيب قلوبهم العطشى لمثل هذه الأجواء الجميلة التي تشعرهم بأن للدنيا فصولاً وطقوساً مختلفة ورياحاً متغيرة... ؛ فقد سئما الحر وضوء الشمس الحارق في منطقتهم المنكوبة .

قال علي ببراءة: بابا، هذا اللحم طيب جداً، كأنني أكل اللحم لأول مرة.

أجاب فاضل: نعم يا بني، لأن الحطب طبيعي من أشجار الغابات، واللحم طري، والهواء عليل... ؛ اعلم يا بني أن السعادة تتكون من عدة أجزاء، وكل شيء جميل يتكون من عدة عناصر... ؛ هناك أشياء لا تتم إلا باكتمال جميع عناصرها... ؛ مثل الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، يتكون من عنصرين أساسيين: الهيدروجين والأكسجين... ؛ فلولا اجتماع هذين العنصرين، لما صار الماء عذباً يمنحك طعم الحياة... ؛ لكن الناس يا بني يعفون تلك الحكمة، ويطلبون من الحياة نتائج مكتملة بمقدمات ناقصة... !!

٩- ليلة الرعب الوهمي

في الليلة الثانية ذهب كل الى فراشه , لكنهم لم يناموا ... ؛ فقد هبت رياح قوية كأرواح ثائرة ... ؛ و الرعد يضرب السماء، والبرق يشق الظلام.

الابواب صرت كأبواق يوم القيامة , الاشجار تمايلت كسكارى , الامطار انهمرت في شهر أيار... , لأول مرة يشاهدون المطر في شهر أيار؛ وكأن الزمن أصيب بالجنون ...

انطفأت الكهرباء، فصار الظلام كثيفاً كقطيفة سوداء... ؛ الاطفال التصقوا ببعضهم... ؛ اصوات الرعد كانت كطبول معركة همجية بدائية لا قوام متوحشة ... ؛ و تحركت ستائر النوافذ ... , وبدت الفيلا كأنها سفينة في بحر هائج.

خاف الأطفال ... ؛ ولكن فاضل قال لهم وهو يهدئهم :

الإنسان البدائي كان يخاف من هذه الظواهر الطبيعية ويربطها بعالم
الاشباح والقوى الخفية ... ؛ لأنه لم يفهمها ... ؛ بعضهم عبدها ... ؛
وبعضهم تخيل فيها آلهة أو شياطين.

ثم نظر إلى النافذة وأضاف:

انتم ايضاً , تخافون منها لأنكم لا تفهمونها...؛ لكن الخوف الحقيقي ليس
من الرعد، بل من بشر لا يفهم النواميس الكونية والقوانين الطبيعية ... ؛
فالخوف غالباً ما يولد من الجهل لا من الحقيقة .

سأل علي بصوته المتهدج: وهل توجد الجن والشياطين حقاً؟

أجاب فاضل: البعض يخلقونها في عقولهم ثم يخافون منها... ؛ كما ان
البعض يخلقون الأكاذيب والأوهام ثم يستमितون في الدفاع عنها... ؛
فالعبرة يا بني في الإنسان نفسه، فهو وحده القادر على اليقين أو
الرفض... ؛ بعض الناس يفسرون سلوكك تفسيراً مقلوباً لأنه ينسجم مع
تصوراتهم المسبقة عنك... ؛ فلا تكن مثلم... ؛ لا تخلق شياطين ثم
تخاف منها .

نعم ،الأطفال ما زال بعضهم يخاف من هذه الظواهر بسبب جهله
بحقيقتها، أو إيمانه ببعض الأفكار الماورائية التي تتحدث عن مخلوقات
تظهر في الظلام.

صرير الأبواب وأصوات الأشجار شكلت سيمفونية رعب لم يسمعوها
من قبل... ؛ دهشوا ... ؛ لم تغمض عيونهم إلا بعد ساعات من
المراقبة... ؛ رغم كلام فاضل ..، ثم ناموا تعباً .

نهضوا في الساعة الحادية عشرة صباحاً... ؛ لم يشاهدوا أشعة الشمس
القوية التي كانت تنزل عمودياً على رؤوسهم في منطقتهم، لأن المزرعة

كانت بين جبلين يحجبان ضوء الشمس العمودي عنها وعن المزارع القريبة .

أعدت مريم الفطور، وجلسوا على المائدة الجميلة يتحدثون عن الليلة الماضية ...

قالت سارة : الاجواء كانت مخيفة للغاية .

رد قيس : لم تكن كذلك عندما كانت الكهرباء موجودة... ؛ نعم، بعد انطفاء الكهرباء، شكل الظلام مع أصوات الرعد والبرق والرياح تحالفاً مخيفاً.

٩- الشواء الاخير

في الليلة الرابعة، أعدوا الشواء... ؛ اللهب كان يرقص والحطب يئن بأريج عذب؛ ومريم كانت تشوي الكباب ككاهنة تؤدي طقسها الاخير ...

نظروا إلى بعضهم في صمت... ؛ كانوا يعرفون أن هذه الليلة قد تكون الأخيرة ... ؛ فقد جاء الاتصال من المدينة قبل بضعة ساعات كصاعقة في ليلة صافية : أم فاضل في المستشفى، فقد تعرضت لوعكة صحية.

قضوا أربعة ليالي جميلة مليئة بالسعادة والفرح والبهجة... ؛ انفتحت شهيتهم للطعام، وأصبح بعضهم يناقش بعضاً كأنهم يتعرفون على بعضهم لأول مرة... ؛ غمرتهم الطاقة الإيجابية.

١٠- العودة الى الجحيم

حزموا حقائبهم بسرعة... ؛ والطريق الى المدينة كان أسرع من طريق المجيء ... ؛ كأن السيارة نفسها كانت تعرف أنها عائدة الى السجن ؛ فأسرعت لتنتهي فترة الافراج المؤقت .

في الطريق، كان علي يسعل... ؛ الغبار يلاحقهم كقدر لا مفر منه... ؛
نظر فاضل في المرأة، فرأى وجه ابنه الشاحب، وخلفه جبال السليمانية
تبتعد كحلم ينتهي سريعاً .

قالت سارة بصوتها الطفولي: متى نعود إلى المزرعة يا بابا؟

لم يجب... ؛ كان يعرف أن العودة قد لا تحدث أبداً... ؛ ليس لأن المسافة
بعيدة، بل لأن الظروف قد لا تساعد على السفر مرة أخرى .

وفي النهاية، نحن جميعاً مسجونون في جغرافيا أقدارنا، حتى لو زرنا
الجنة مؤقتاً، سنعود لنستيقظ على رائحة الإطارات المحترقة، وصوت
طفل يبحث عن هواء نقي في وطن لا يعرف سوى ريح السموم .

١١ - الرجوع الى الرتبة والتلوث البيئي

عاد فاضل إلى حيه القديم، إلى ذكرياته القديمة، إلى روتينه القاتل، إلى
أمراضه المزمنة، إلى التلوث والتخلف... ؛ لكن شيئاً في داخله قد
تغير... ؛ تلك الليالي الأربعة تركت في روحه جرحاً جميلاً... ؛ جرحاً
سيجعله يقاوم أكثر، يحلم أكثر، وربما يوماً ما؛ يهرب أكثر .

نام علي تلك الليلة وفي صدره أزيز خفيف، لكن على وجهه ابتسامة لا
تفارق... ؛ كان يحلم بالمزرعة، بالجبل، بالهواء الذي يداعب وجهه كأم
لم تتجبه... ؛ وفاضل بقي ساهراً ينظر إلى السقف، يتمنى لو كانت له يد
في حركة الأفلاك، فيمحو آثار الفلك ويخلق عوالم أخرى تسير وفق
مشيئة الأحرار...

لكنه عاد ليضحك في الظلام، ذلك الضحك المجنون الذي تعلمه هناك،
ويهمس لنفسه : الحرية ليست في امتلاك الجنة، بل في زيارتها من حين
لآخر... ؛ ربما السعادة ليست في الهروب الدائم، بل في جرعة أوكسجين
تكفي لتعيش بقية عمرك في وطنك.

وعاد إلى صدره نفس ثقيل، لكن في قلبه نسمة عذبة لا تموت .

ولو مرة واحدة، أنها موجودة."

مدينة الانتظار.. حكاية الرجل الذي وُلد في الطابور (١٠)

في مدينة لا تظهر على الخرائط، كان الناس يولدون بأرقام لا بأسماء.

الاسم امتياز مؤجل، مثل الكهرباء، مثل العدالة، مثل الحياة نفسها.

وحين يولد الطفل، يُعلّق في معصمه شريط معدني يحمل رقماً طويلاً، ثم يُقال لأمه ببرود الموظفين:

— احتفظي به جيداً... سيأتي دوره في "النداء العظيم".

لا أحد يعرف ما هو النداء العظيم بالضبط.

البعض يقول إنه وظيفة حكومية.

البعض يقول إنه بيت.

آخرون يعتقدون أنه جواز سفر.

أما الشيوخ، فكانوا يضحكون بصمت، كأنهم يعرفون السرّ لكنهم تعبوا من شرحه.

الرجل الذي سنسميه مؤقتاً "٧٢١" وُلد في الطابور، كما وُلد أبوه قبله، وكما سيموت ابنه لاحقاً وهو ينتظر شيئاً لا يعرفه.

كانت مدينة الانتظار مبنية كأنها ثكنة عسكرية تنكّرت في هيئة وطن.

شوارعها مستقيمة أكثر من اللازم، رمادية أكثر من اللازم، وصامتة بطريقة تثير الشك.

الجدران العالية تحجب الأفق، واللافتات الحكومية تملأ السماء:

“الطاعة استقرار.”

“الصبر يصنع المجد.”

“المواطن الصالح لا يسأل كثيراً.”

في المدرسة، لم يتعلم ٧٢١ كيف يفكر، بل كيف يردد.

كان المعلم، رجلاً أصلع تفوح منه رائحة تبغ رخيص وخيبة قديمة، يدخل الصف كل صباح ويقول:

— الوطن سفينة... ومن يشكك بالقائد يثقبها.

ثم يوزع عليهم دفاتر رديئة الورق، ويطلب منهم كتابة الإنشاء ذاته كل أسبوع:

“لماذا نحن أسعد شعوب الأرض؟”

كان ٧٢١ يكتب مثل الآخرين، لكنه في الليل كان يشعر بشيء معطوب يتحرك داخله، كحيوان محبوس تحت جلده.

كان يرى أمه تخطط ملابس الجيران حتى الفجر كي تشتري الزيت، ويرى أباه يعود من الدائرة الحكومية بعينين مطفأتين، فيسأل نفسه:

إذا كنا سعداء... لماذا يبدو الجميع كأنهم نجوا بالكاد من كارثة؟

كبر الصبي، وكبرت معه المدينة كمرض مزمن.

دخل الجامعة، تلك القلعة الإسمنتية التي تشبه سجنًا تعليمياً أكثر من كونها مؤسسة معرفة.

الممرات مليئة بصور رجال ميتين مازالوا يحكمون الجدران، والقاعات مزدحمة بطلاب يحفظون نظريات عن الحرية وهم يخشون الكلام.

هناك تعرّف إلى “١٣”، شاب نحيل يبيع السجائر المفردة أمام الكلية كي يدفع أجور النقل.

كان المواطن ١٣ يقول دائماً:

— نحن لا ندرس لنعيش... نحن ندرس كي نؤجل الانهيار.

ضحك ٧٢١ أول مرة سمع العبارة، ثم اكتشف لاحقاً أنها أدق تعريف للجامعة.

كانوا يقرؤون عن المدن الحديثة، عن العدالة الاجتماعية، عن اقتصاد السوق، عن الديمقراطية، عن الإنسان بوصفه قيمة عليا... ثم يخرجون من المحاضرة ليتقاتلوا على مقعد في حافلة متهترئة.

وحين تخرّج ٧٢١، سلّموه شهادة مختومة بعناية، كأنها وثيقة مقدسة.

عاد بها إلى البيت منتشياً، وكانت أمه تبكي فرحاً وهي تقبل الورقة.

لكن أباه، الذي كان يعرف المدينة أكثر، اكتفى بالنظر إليه طويلاً وقال:

— الآن يبدأ الطابور الحقيقي.

في سوق العمل، اكتشف ٧٢١ أن الكفاءة نكتة ثقيلة.

الوظائف تُباع مثل اللحم.

المدير ابن مسؤول.

الموظف ابن حزب.

الحارس ابن طائفة.

أما الغرباء، فعليهم أن يدفعوا أو يركعوا أو يختفوا.

ظلّ أشهراً يتنقل بين الدوائر، يحمل ملفه الأزرق كمتسوّل يحمل وعاء فارغاً.

كل مكتب كان يطلب ورقة جديدة، توصية جديدة، ختماً جديداً، أو إذلالاً إضافياً.

وفي إحدى الدوائر، قال له موظف بدين دون أن ينظر في وجهه:

— شهادتك ممتازة... لكن ملفك فقير.

فهم ٧٢١ العبارة فوراً.

الملف الفقير يعني: لا واسطة، لا رشوة، لا اسم عائلة يفتح الأبواب.

بعد عامين، وجد عملاً أخيراً في شركة يملكها رجل لا يعيش في المدينة أصلاً.

كان يعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً مقابل راتب يكفي لأسبوع واحد من الحياة الرديئة.

ومع ذلك، أقنع نفسه أنه محظوظ.

ففي المدن المريضة، يصبح الحد الأدنى من الكرامة نوعاً من الرفاهية.

ثم أحب.

أو ظن أنه أحب.

كانت “٧” تعمل في مكتبة صغيرة قرب النهر الأسن الذي يشطر المدينة.

امرأة بعينين متعبتين وصوت يبدو كأنه قادم من حياة أفضل.

كانت تسأله دائماً:

— هل تتخيل نفسك عجوزاً هنا؟

ولم يكن يعرف كيف يجيب.

تزوجا رغم كل شيء، كأنهما يرتكبان خطأ جميلاً ضد المنطق.

استأجرا شقة ضيقة بسقف متشقق، وكانا يضعان الأواني تحت نقاط
المطر في الشتاء.

في الليلة الأولى بعد الزواج، قالت له وهي تنظر إلى الرطوبة التي
تزحف على الجدار:

— هل هذه حياة؟

أجابها بعد صمت طويل:

— لا... لكنها الشيء الوحيد المتاح.

أنجبا طفلين.

ومع الطفلين دخلت المدينة بيتهما بالكامل.

المستشفى يطلب مالاً أكثر من العلاج.

المدرسة تبني النجاح.

الدوائر تبني التوقع.

والأسواق ترفع الأسعار كلما ازداد الفقراء جوعاً.

صار ٧٢١ يركض طوال الوقت.

يركض خلف الإيجار.

خلف الحليب.

خلف الدواء.

خلف الديون.

وفي كل مرة يظن أنه اقترب من النجاة، كانت المدينة تسحب الأرض من تحته بهدوء خبير.

أما زوجته ٧، فقد بدأت تنطفئ تدريجياً.

لم تعد تتحدث كثيراً.

كانت تقضي الليل تحق في الفراغ بينما الأطفال نائمون، كأنها تسمع انهياراً بعيداً لا يسمعه سواها.

وفي أحد الأيام قالت له:

— نحن لا نعيش... نحن فقط نمنع الكارثة ونهرب من الموت.

في المساء، كان يذهب إلى المقهى ذاته.

المقهى الذي يشبه غرفة انتظار جماعية لوطنٍ يحتضر.

أصدقائه هناك:

١٣ الذي صار أصلع قبل الثلاثين.

و ٥٥ الذي باع كتبه ليشتري دواء لأمه.

و ٢١ الذي يحلم بالهجرة أكثر مما يحلم بالحياة.

كانوا يدخنون بصمت بينما التلفاز يكرر الأخبار نفسها:

الحاكم يبتسم.

المشاريع قادمة.

الأزمة مؤقتة.

الوطن بخير.

وفي كل مرة، كان رواد المقهى يضحكون تلك الضحكة القصيرة التي تشبه السعال.

ثم يعود الصمت.

صمت مدينة تعرف أنها خُدعت طويلاً، لكنها فقدت حتى طاقة الغضب.

وذاث ليلة، بينما كانت الكهرباء مقطوعة كعادتها، صعد ٧٢١ إلى سطح البناية.

المدينة تحته بدت كوحش ضخم يتغذى على سكانه ببطء.

أضواء القصور تلمع بعيداً، بينما الأحياء الفقيرة تغرق في العتمة والرطوبة والكلاب الضالة.

لأول مرة، فهم الحقيقة كاملة:

النداء العظيم لن يأتي.

لم يكن هناك نداء أصلاً.

كانت مجرد أسطورة اخترعتها المدينة كي يبقى الجميع واقفين في الطابور دون تمرّد.

نظر إلى معصمه.

الشريط المعدني القديم ما زال هناك، باهتاً كذكرى مهملة.

“٧٢١”.

رقم لا أكثر.

ضحك فجأة، ضحكة حادة أفزعت حتى نفسه.

ثم بكى.

بكى على أبيه الذي مات منتظراً.

على أمه التي استنزفت عمرها في الخياطة والصبر.

على ٧ التي تحولت إلى ظل امرأة.

على طفليه اللذين ورثا الطابور قبل أن يتعلما الكلام.

وفي تلك اللحظة، أدرك الشيء الأكثر رعباً:

أن المدينة لم تكن سجناً لأن أبوابها مغلقة...

بل لأن سكانها، بعد سنوات طويلة من القهر، نسوا أصلاً أن الأبواب
يمكن أن تُفتح.

ما تبقى بين الأصابع... (١١)

كان اللقاء الأول أشبه بحبة رمل دخلت العين عن غير قصد... ؛ لم
يخطط أحدٌ منهم لهذا التشابك الغريب... ؛ سالم، بابتسامته الواسعة التي
تخفي فراغاً أشبه ببئر مغلق، جمع بين عليّ ذي النظرة الحادة التي تبحث
عن خطيئة تعكس خطيئتها الخاصة، ومحمد الحامل بين ضلوعه طيف
رجلٍ آخر كان يُريد أن يكونه... ؛ التقوا، فصاروا ثلاثة ظلال تطول
وتقصر تحت أضواء خافتة في عُرف لا تذكر وجوه من يمر فيها.

نعم، تصادفت أرجلهم على طريقٍ وعيرٍ، وسَطَ ضبابِ المدينة، حيثُ
جمَعَتْهُمُ أصابعُ الصُّدْفَةِ العَادِرَةِ... ؛ كَانَ سَالِمٌ - ذَلِكَ الْمُوظَّفُ الَّذِي
تَأْكَلَتْ ضَمَائِرُ يَدَيْهِ بِحَبَّاتِ الذَّهَبِ السَّامَةِ - هُوَ الْخَيْطُ الْوَاهِي الَّذِي نَسَجَ
عَلَى جِسْرِهِ لُغْزَ اللَّقَاءِ بَيْنَ عَلِيٍّ، الشَّرْطِيِّ الْخَائِقِ عَلَى نَفْسِهِ، وَمُحَمَّدٍ،

رَجُلُ الْأَعْمَالِ الَّذِي تَخْتَبِي الرِّيحُ فِي جُيُوبِ مِعْطَفِهِ الْبَاهِي... ؛ اِلْتَقَوْا عَلَى مَوَائِدَ لَحْمِهَا دُهْنِيٍّ وَخَمْرُهَا كَدْرٌ، وَتَحْتَ سُقُوفٍ شَقَقِ حَمْرَاءَ تَبْكِي عَلَى عَوْرَاتِهَا... ؛ حَتَّى أَنَّهُمْ، فِي لَيْالِي السُّكْرِ الْبُلْهَاءِ، تَشَابَكَتْ أَجْسَادُهُمْ فِي رَفْصَةٍ بَهِيمِيَّةٍ عَبِيَّةٍ، كَالْحَوَامِ الَّتِي تَلْتَهُمْ بَعْضُهَا فِي أَعْمَاقٍ مُظْلِمَةٍ.

لم يكن ما جمعهم صداقة، بل فراغا مشتركا... ؛ والفراغ، حين يطول، يخلق أوهاما تشبه المعنى.

سالم كان يؤمن، في قرارة نفسه، أن العالم صفقة خاسرة، وأن النجاة لا تكون إلا بالتحايل... ؛ كان يرى البشر أرقاما مؤقتة، والضمير ترفا لا يليق بمن يريد البقاء... ؛ لم يكن شريرا بالمعنى التقليدي، بل كان فارغا، والفراغ أشد فتكا من الشر.

أما علي، فقد عاش عمره كله وهو يبني صورة لنفسه، صورة رجل مستقيم، منضبط، يمكن الوثوق به... ؛ لكنه لم ينتبه إلى أن الصورة، حين تطول، تتحول إلى قيد... ؛ كان يخشى أن يرى الآخرون ما يراه هو في داخله: رغبة دفينة في السيطرة، في الامتلاك، في أن يكون مركز الدائرة لا طرفها.

محمد لم يكن أفضل منهما، لكنه كان أكثر وعيا... ؛ كان يدرك أن الإنسان كائن مزدوج: وجه للعلن، وآخر للظل. غير أنه أخطأ حين ظن أن المعرفة وحدها تحمي... ؛ فالفهم لا يمنع السقوط، بل يجعله أكثر إيلاما.

نعم ؛ هم لم يلتقوا لأنهم متشابھون، بل لأن الصدفة تحب أن تجمع المتناقضات كما تجمع النار بالماء، علها تراقب أيهما سينطفئ أولا.

في البدء، بدوا كأنهم ثلاثة كؤوس على طاولة واحدة، تختلف سوائها لكنها تتجاوز... ؛ ضحك، سهر، أحاديث تنكسر على حواف الليل، وموائد عامرة بمالد وطاب، بينما كانت القيم تُترك عند الباب مثل معاطف قديمة.

غير أن القرب يكشف ما لا تكشفه المرايا... ؛ فالموظف المرتشي سالم، حين يغيب عقله، كان يظهر وجهه الآخر، وجها خشنا يدهس الضعفاء، ويبرر فوضاه بأنها سُكر، وكأن الغياب المؤقت للوعي يمنح رخصة لانتهاك كل شيء...!!

وعلي، الذي بدا في البداية نقياً، كان يخفي في داخله رغبة صامتة في الامتلاك، لا المشاركة، وفي السيطرة لا الرفقة، وفي الانانية لا في الايثار...

مال محمد إلى علي، لا لأنه أفضل، بل لأنه كان أكثر براعة في إخفاء عيوبه... ؛ غير أن الأنانية لا تصبر طويلاً؛ اذ بدأت تتسرب من تصرفات صغيرة، من نظرات تحكم، ومن أوامر غير منطوقة، حتى صار الكرم مشروطاً، والصداقة انتقائية، والآخرين مجرد أدوات في مسرح الذات بالنسبة لعلّي...

جلسوا معاً طويلاً، يتبادلون الضحك، بينما كانت الأسئلة الكبرى تُوجَل:

من نحن حين لا يرانا أحد؟

وهل الأخلاق اختيار أم خوف مقنع؟

بمرور الوقت، بدأت التشققات تظهر...

سالم صار أكثر فجاجة، كأنه يتحدّى العالم أن يوقفه...

وعلي صار أكثر تضيقاً، كأنه يخشى أن يفقد ما يظنه ملكاً له...

ومحمد، العالق بينهما، بدأ يشعر بأن وجوده نفسه مهدد، لا جسدياً، بل معنوياً...

في لحظة ما، أدرك محمد حقيقة موجعة: أن أسوأ أنواع العلاقات هي تلك التي تُبنى على إنكار الذات... ؛ وأن الصمت الطويل ليس حكمة دائماً، بل تواطؤ مؤجل.

وَإَكِنَّ الْقُلْبَيْنِ - قَلْبَ عَلِيٍّ وَقَلْبَ مُحَمَّدٍ - انْجَذَبَا فِي سِرِّيَّةٍ خَارِجِ إِطَارِ ذَلِكَ
الْمَرْجُ الْفَاسِدِ... ؛ كَانَ شَيْئاً غَرِيباً نَبَتَ بَيْنَهُمَا ، كَزَهْرَةِ سَامَةِ تَتَمُو فِي
صَدْعِ حَائِطٍ ... ؛ وَ أَذْرَكَا أَنَّ سَالِمًا بَحْرُ آسِنٍ، يُقَذِّفُ إِلَى شَوَاطِئِهِ بِحَيْفِ
الْفُضُولِ وَالْعُنْفِ... ؛ وَ هَاهُو يَنْهَبُ حَقَائِبَ نِسَاءٍ مُهَشَّمَاتٍ، وَ هَاهُو يُلْقِي
بِنَفْسِهِ عَلَى جَسَدِ زَيْدِ الْمَرَاهِقِ الْكَاسِرِ، مُلْبَسًا اغْتِصَابَهُ ثَوْبَ السُّكْرِ
وَالْتَّبَرِيرِ الْعَفِنِ... ؛ فَارْتَدَّتْ نُفُوسُهُمَا - رُغْمَ أَنْفُسِهِمَا - عَنْ ذَلِكَ الْوَحْلِ،
لِتَتَأَخَى فِي هَوَامِشِ نَقَائِهَا الْمُرَيَّفِ... .

وجدا في صمت أحدهما إجابةً لصمت الآخر... ؛ وبدأت نظراتهما
تتحاشى سالم حين يُحول السكرُ روحه إلى وحشٍ صارخ. ذات ليلة، بينما
كان سالم يُغني بصوتٍ مبجوح، نظر علي إلى محمد وقال بلهجة لم
يسمعهما منه أحد من قبل: “ألا يُخيفك أننا نغرق معاً؟”... ؛ لم يجب
محمد، لكن عينيه قالت: نعم.

وتحوّل الاثنان إلى جُزرٍ منعزلة في محيط سالم العاتي... ؛ في شقة علي
البسيطة، حيث صورة لوالدته المتوفاة تُراقبهم من الإطار، كانا يشربان
كأس الخمر كما لو كانا يتناولان دواءً للألم... ؛ كان محمد يأتي بفتياتٍ
من عالمٍ آخر، يتركن معهما رائحة أحلامٍ رخيصة... ؛ وكان عليّ يُعامل
كلّ واحدةٍ منهنّ بتلك اللطافة الحزينة، وكأنه يُريد أن يطلب الصفحة عن
شيءٍ لم تفعله.

كَانَ عَلِيٌّ يُقَدِّمُ الطَّعَامَ وَالْخَمْرَ، مُقَابِلَ أَنْ يُمَتِّحَهُ مُحَمَّدٌ قَتَاةً تَأْتِي كَالْهَوَاءِ
الْعَبِيٍّ، تُلْبِسُ جَسَدَهَا لِلرِّجَالِ ثَوْبَ رِضًا مُوقَّتًا... ؛ وَلَكِنَّ تَحْتَ جِلْدِ هَذِهِ
الصَّدَاقَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمُنَتْ حَيَّةُ الشَّاكِّ... ؛ فَعَلِيٌّ - ذَا الْأَصْلِ الْمُحَافِظِ
وَالْمَتَّهِمِ بِالْخُبَثِ وَاللُّؤْمِ كَمَا هُوَ شَانِعٌ عَرَفَا - بَدَأَ يُكْثِفُ عَنْ أَنْيَابِ نَفْسِهِ
الْخَوِيَّةِ... ؛ كَانَ يَنْهَرُ الْقَتَاةَ إِذَا مَا أَبَدَتْ لِمُحَمَّدٍ إِشَارَةَ إِعْجَابٍ، مُحَوِّلاً لَدَّةَ
الصَّدِيقِ إِلَى مِلْحٍ فِي جُرْجِهِ... ؛ وَسَرَّعَانَ مَا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْحَرَكََةُ نَعْمَةً

مُتَكَرَّرَةً فِي سَيِّمُفُونِيَّةٍ حَقْدٍ خَفِيٍّ... ؛ فَأَذَارَ مُحَمَّدُ رَأْسَهُ، وَكَتَمَ السُّمَّ فِي قَلْبِهِ، كَمَنْ يُخَيِّئُ جَمْعَةً تَحْتَ الْوَسَادَةِ...!!

ثم جاءت الرحلة إلى بيروت... ؛ وسافروا إليها سالم بمعية علي ، ومحمد مع صديقه الملتزم دينيا جاسم ... ؛ هناك، تحت سماء مختلفة، حاول محمد أن يلعب دوره كاملاً: الرجل المحترم بين أصدقائه... ؛ لكن علي كان يطلق النكات الثقيلة، كحجارة في بركة هادئة، مُحدثاً دوائر من الريبة في عيون جاسم الملتزم... ؛ في تلك اللحظة، رأى محمد انعكاس صورته في عيني جاسم: رجل ضائع، يرافق ظلالاً من الشر ... ؛ وشعر بخجل عميق، كطفل يُقبض عليه وهو يسرق كرامة لا مالاً.

نعم ، حين سافروا، ظنوا أن المسافات تمحو الأفتنة، لكن الغربة تفعل العكس؛ تكثفها... ؛ هناك، حيث كانت القيم تُختبر لا تُعلن، سقط علي في فخ لسانه، وبدا سالم كما هو، بينما وقف محمد في المنتصف، يدرك فجأة أنه كان يجلس طويلاً على حافة هاوية أخلاقية.

وبعد العودة، جفت تلك الجزيرة الصغيرة من “الصداقة”... ؛ وكشر علي عن انيابه و صار باب الشقة يُغلق، والهاتف يصمت... ؛ حتى سحر صديقة محمد ، تلك الفتاة التي كانت تظهر وتختفي كرائحة زهر في زقاق مظلم، تبخرت من حياته... ؛ وعندما التقاها صدفةً في السوق، بين أكوام الخضار وأصوات الباعة، همست له بالحقيقة: “كان علي يخاف أن تُحبني.. وكان يكره فيك ما يكرهه في نفسه”.

نعم ، انهم عادوا، لكنهم لم يعودوا كما كانوا... ؛ اذ انقلب القرب إلى نفور، والود إلى ضغينة. علي، الذي شعر بانكشافه، تحوّل إلى خصم صامت، يقطع الخيوط واحدة تلو الأخرى، ويحرّك الآخرين من خلف الستار.

وفي النهاية، صار كلّ منهم وحيداً بطريقته الخاصة... ؛ سالم وراء القضبان، يحمل سجنه في عينيه قبل أن يحمله في جسده... ؛ و علي في فراش المرض، يُراقب سقف غرفته كما كان يُراقب سقف غرفته

الحمراء ذات ليلة، لكن الضيف الآن هو الشبح الذي هرب منه طويلاً...
؛ ومحمد، يمشي في شوارع المدينة، يحمل في جيبه مفتاح شقة لم يعد
يزورها، وفي قلبه ذلك السؤال الذي لن يجد له جواباً: متى بالضبط فقدنا
الحق في أن نكون بشراً؟

وتبقى الذكريات كرمادٍ دافئٍ في يديه، يتطاير مع أول نسمة، ولا يتبقى
بين الأصابع سوى ذلك الشعور الغامض بأن الحياة مرت من هنا، ولم
يمسك أحداً منها إلا بما لا يستحق الإمساك.

وهكذا انتهت الحكاية: لا غالب فيها ولا مغلوب... ؛ فالأنفة، مهما طال
ارتداؤها، لا تمنع الوجه من التعفن.

يدبر الأمر... (١٢)

كان غسان يعيش كمن يحمل في صدره حجرًا لا يراه أحد.
أيامه تمضي مثقلة بضجيجٍ داخليٍّ لا يهدأ؛ قلقٌ مبهم، التزامات تتكاثر،
وديون صغيرة تتسلل إلى روحه أكبر من حجمها الحقيقي.

حتى الأشياء البسيطة فقدت طعمها؛ فنجان الشاي الصباحي، ضحكات
الأصدقاء، ضوء الشمس المتسلل من النافذة... ؛ كلها بدت بعيدة عنه،
كأنها تخص حياة شخصٍ آخر.

لم يكن رجلاً متديناً بالمعنى الذي يمنح القلب استقراراً، ولا منكراً يرفض
الإيمان تماماً.

كان متعباً فقط... ومترددًا.

يصلي أحياناً بحماسة العائد من الغرق، ثم ينقطع كأن شيئاً لم يكن.

وحين تضيق به الحياة، كان يرفع رأسه إلى السماء بعيّنٍ تاجرٍ خائف:

يا رب... هذه المرة فقط.

ثم إذا انفرجت أزمة، أو وصل مالٌ لم يكن يتوقعه، أو هدأت عاصفة الأيام قليلاً، امتلأ قلبه بخشوعٍ مؤقت، وأطال السجود كأنه وجد الطريق أخيراً.

لكن الطريق كان يضيع منه كل مرة.

في مساءٍ بارد، جلس وحيداً قرب النافذة.

كان ينتظر اتصالاً من صديقٍ وعده بعملٍ مؤقتٍ يخرج به من ضائقته الأخيرة.

وضع الهاتف أمامه على الطاولة، وظل يحرق بالشاشة كل بضع دقائق.

تمر سيارة في الشارع فيظن أن الوقت تحرك، ثم يعود كل شيء ساكناً كما كان.

مرّت الساعة الأولى.

ثم الثانية.

وبقي الهاتف صامتاً.

أطفأ الغرفة إلا من ضوءٍ خافتٍ يتدلى فوق رأسه، واستلقى على السرير بملابسه نفسها.

كان يشعر أن التعب لا يأتي من الجسد، بل من شيءٍ أعمق... شيءٍ يشبه الاستنزاف البطيء.

قبل أن ينام، خطر في ذهنه سؤال عابر:

كم مرة علّقت نجاتي على البشر؟

وحين استيقظ صباحًا، كان الصمت لا يزال في مكانه.

الجدران نفسها، الهواء الثقيل نفسه، والهاتف ممددًا على الطاولة كشيء بلا معنى.

نهض بثقل، ومدّ يده إلى المذيع القديم المكون قرب السرير.

انبعث صوت محمد صديق المنشاوي رخيماً، هادئاً، كأنه يخرج من مكان بعيد داخل الروح:

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ وَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

بقي واقفاً دون حركة.

شيء ما انكسر داخله... أو ربما انكشف.

لم تكن الآية جديدة عليه، لكنه شعر هذه المرة أنها لا تتلى فحسب، بل تزيج غباراً تراكم طويلاً فوق قلبه.

راح يتذكر، ببطء، تلك اللحظات التي ظن فيها أن حياته انتهت:

يوم خسر عمله ثم جاءه رزقٌ من بابٍ لم يخطر له.

ويوم مرضت أمه وتعافت بعد خوفٍ طويل.

وأياً ما كثرة أغلقت فيها الطرق أمامه، ثم ظهرت فجأة منافذ صغيرة لم يكن يراها وسط هلهه.

جلس على حافة السرير.

نظر إلى الهاتف الصامت، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة لأول مرة منذ أيام.

أدرك فجأة كم كان يعيش مذعورًا من فكرة أنه ترك وحده في هذا العالم.

وكم كان يحاول أن يطمئن قلبه عبر الناس، والمال، والوعود المؤجلة.

أما الآن، فقد بدا له كل شيء أكثر هدوءًا... حتى خيبته نفسها.

فتح النافذة قليلاً.

دخل هواء الصباح باردًا ونظيفًا، وتحركت ستائر شباك الغرفة بخفة.

في الخارج، كانت الحياة تسير كعادتها؛ سيارات تعبر، وبائع خبز ينادي

من بعيد، وعصافير تحط فوق الأسلاك القديمة.

لم يتغير العالم.

الهاتف لم يرنّ.

ومشكلاته لم تختف.

ومع ذلك، شعر أن الثقل الذي كان جائئًا على صدره قد تراجع قليلاً، كأن

يدًا خفية أزاحت عنه جزءًا منه.

أغلق المذياع بهدوء، ثم بقي جالسًا في الصمت.

لكن الصمت هذه المرة لم يكن فارغًا.

وليمة الجوع الذي لا يُشبع... وسراب الشَّبَع الذي لا يرحم (١٣)

لم يكن زيد طفلًا عاديًا، أو هكذا بدا منذ اللحظة التي بدأ فيها يراقب

الطعام لا بوصفه نعمة، بل بوصفه عبئًا خفيفًا يتخفى في صورة لذة.

كان يرى في الخبز شيئاً يشبه الطين حين يُغري اليد بالتماسك، ثم يخذلها.. وفي الأطباق الممتلئة نوعاً من الخداع الهادئ، كأنها وعد لا يُراد له أن يُنجز.

في بيتٍ يفيض بالطعام، تعلّم مبكراً أن الجوع ليس نقصاً، بل فضيلة.. لم يكن أحد يعلمه ذلك مباشرة، لكن الكتب التي امتلأت بها رفوف البيت كانت تفعل ذلك نيابة عن الجميع: زهدٌ، تقشف، صوم، تحذير من الجسد كأنه خطيئة مؤجلة.

كان يقرأ كما لو أنه يصوم.

وكلما ازداد قراءةً، ازداد خفةً... وازداد احتقاراً لثقل العالم.

لم يكن يحب الطعام.

بل كان يخشى أن يحبه.

١. الجوع كهوية

في سن مبكرة، صار الصوم عنده أكثر من عبادة.. صار طريقة لرؤية العالم من أعلى، حيث تبدو الشهوات صغيرة، والناس أسرى بطونهم.

كان الجوع بالنسبة له حالة صفاء، كأن المعدة حين تفرغ، تترك للقلب مساحة كي يتنفس دون ضجيج.

ومع الزمن، لم يعد الصوم فعلاً إرادياً.. صار طقساً داخلياً دائماً، حتى في غير أيام الامتناع.

كان يعيش كما لو أن جسده ضيف ثقيل على روحه.

٢. الجماعة المغلقة

حين كبر، وجد نفسه يقترب من جماعة متدينة، كانت تشبهه في شيء غامض:

اليقين الذي لا يطرح أسئلة.

وجوهم كانت هادئة إلى حد القسوة، كأنها فقدت علاقتها بالمفاجأة.. , يعيشون على الحافة بين الزهد والجمود، بين الطمأنينة والانغلاق.

شعر بينهم بشيء يشبه الانتماء، لكنه لم يكن انتماءً كاملاً.

كان أقرب إلى غرفة مغلقة، فيها هواء كافٍ للبقاء، لا للحياة.

٣. المرأة التي أربكت الجوع

ثم ظهرت المرأة.

لم تكن تشبه أفكار زيد عن العالم.

كانت تشبه العكس تماماً.

كانت تطهو كما لو أنها تعيد خلق الحياة من البداية، كأن النار في يديها لا تحرق، بل تُهدّب المادة لتصبح أكثر إنسانية.

رائحة طعامها لم تكن دعوة للأكل، بل استفزازاً هادئاً للذاكرة.

تزوجها دون أن يفهم كيف حدث ذلك.

وكان الجسد قرر نيابة عنه.

لكن المفارقة كانت أن الطعام في بيتها لم يبلغ جوعه القديم.

بل جعله أكثر غموضاً.

كان يأكل... ثم يشعر أنه لم يأكل شيئاً.

كأن الجوع لم يعد في المعدة، بل في مكان آخر لا يُسمّى.

٤. زمن الحصار

في سنوات الحصار، كان العالم خارج البيت ينهار ببطء، بينما داخل البيت يستمر الطعام بشكل شبه طبيعي.

لكن زيد كان يعيش انفصاله الخاص عن الاثنين.

الناس خارجاً يقاتلون من أجل لقمة.

وهو يقاتل ضد اللقمة نفسها.

كان يرى في الطعام امتحاناً أخلاقياً لا علاقة له بالجوع.

وحين كان الآخرون ينجون بالخبز، كان هو يحاول النجاة من الخبز.

٥. الخبز الأسمر

في زيارة عابرة لأحد الأقارب، قُدّم له خبز أسود قاس، كأنه خرج من ذاكرة الأرض لا من يد الإنسان.

أكله ببطء شديد، وكأن كل لقمة تحتاج إنزناً من روحه.

لم يشعر بالشبع.

بل بشيء يشبه الانكشاف.

كأن الجوع لأول مرة لم يعد فكرة، بل جسداً آخر يجاوره في الداخل.

٦. السجن: الجوع الحقيقي

لم يكن مستعداً لما حدث لاحقاً.

داهمته السلطة فجأة، بلا تفسير واضح، بلا منطق يمكن الإمساك به.

كأن العالم انزلق من تحت قدميه دون مقدمات.

في السجن، تغَيَّر كل شيء.

لم يعد الجوع فكرة روحية.

صار مادة صلبة، لها صوت.

كان الخبز هناك يشبه العقوبة.

والطعام لا يُشبع، بل يُبقي الحياة في حدها الأدنى، كمن يُبقي النار مشتعلة فقط كي لا يموت البرد.

هناك، فهم لأول مرة أن الجوع ليس فضيلة.

بل تجربة عارية من أي معنى.

٧. الخروج الملتبس

خرج بعد شهرين.

لم يكن منتصراً، ولا مهزوماً.

خرج كمن فقد تعريفه القديم للأشياء.

البيت نفسه، الزوجة نفسها، رائحة الطعام نفسها... لكن شيئاً لم يعد كما كان.

بدأ يشعر بشيء جديد:

رغبة خجولة في الأكل، لا تشبه الزهد ولا الشهوة.

لكن الجسد كان قد تعلّم لغة أخرى.

لغة الألم.

٨. المرض

القولون العصبي لم يكن مرضاً فقط.

كان تعبيراً متأخراً عن كل ما لم يُهضم: الأفكار، الجوع، الخوف، الصمت الطويل.

صار الطعام عدواً صغيراً يدخل بهدوء ثم يتحول إلى معركة داخلية.

كل لقمة كانت احتمال أزمة.

وكل وجبة كانت مقاومة مع الجسد.

كان يعيش بين رغبتين لا تلتقيان:

أن يأكل كي يعيش... وأن يتمتع كي لا يتألم.

٩. التمرد الأخير

في ليلة ثقيلة، قرر أن يوقف هذا التوازن المستحيل.

دخل مطعماً، طلب أكثر مما يحتمل جسده، وأكل كما لو أنه يحاول تعويض عمر كامل من الامتناع.

لم يكن يأكل الطعام.

كان يأكل فكرة الطعام.

وحين عاد إلى البيت، كان الجسد قد بدأ يعلن رفضه النهائي.

الألم لم يكن عرضاً.

كان حكماً.

١٠. النهاية

في المستشفى، وسط أصوات المرضى ووجوههم التي تشبه الانتظار الطويل، بدأ زيد يفقد خفته الأخيرة.

لم يعد هناك فرق بين الجوع والشبع.

كلاهما أصبح طريقاً واحداً نحو الانطفاء.

وحين توقفت الأشياء داخله، لم يشعر أنه يموت.

بل أنه يصل أخيراً إلى حالة لا تحتاج تعريفاً.

لا جوع فيها.

ولا شبع.

ولا سؤال.

خاتمة

مات زيد كما عاش:

بين معنى لا يكتمل، وجسد لا يهدأ.

كأن حياته كلها كانت محاولة لفهم الطعام،

لكن الطعام كان مجرد ذريعة لفهم شيء آخر... لم يكتمل اسمه أبداً.

وفي اللحظة الأخيرة، ربما — فقط ربما —

لم يكن الجسد هو الذي يغادر...

بل الفكرة التي كانت تسكنه منذ البداية.

علاقة غريبة الاطوار (١٤)

في الليلة الأربعين، أدركتُ أخيراً أنني لم أكن أطارده...؛ بل كنت أهرب منه.

كان المطر يهطل على المدينة مثل اعتراف متأخر، والرصيف اللامع تحت أقدامي يشبه امرأة مكسورة تعكس وجهي بأعمار مختلفة.

وقفتُ عند ضفة النهر أنتظر مكالمته المعتادة؛ تلك المكالمات التي تأتي دائماً من رقم مجهول، كأن المتصل لا يعيش في هذا العالم بما يكفي ليملك رقماً ثابتاً أو اسماً حقيقياً.

أربعون ليلة.

ولم أره سوى أربع مرات.

ومع ذلك، كان حضوره يحتل أيامي كلها، كأن الغياب نفسه قد اتخذ هيئة رجل.

في اللقاء الأول، ظهر في مقهى قديم يطل على النهر...؛ جلس قبالي بصمتٍ طويل، كأنه يعرفني منذ خرابٍ قديم لا أتذكره.

كان وجهه هادئاً على نحوٍ يثير الريبة، وعيناه تشبهان بحرًا شتوياً؛ جميلاً إلى درجة مرعبة. تحدث قليلاً، لكنه أصاب روعي بدقة قاتل يعرف موضع القلب تمامًا.

قال يومها:

«البعض يدخل حياتنا لكي ينقذنا... , والبعض يدخلها لكي يوقظ الجحيم النائم فينا.»

ثم ابتسم.

ومنذ تلك الابتسامة، لم يعد شيء في داخلي كما كان.

كلما اقترب مني، شعرتُ أنني أقف على حافة هاوية... ؛ وكلما اختفى، تحول العالم إلى غرفة ضيقة بلا نوافذ... ؛ كنت أكرهه لأنني أحتاجه، وأحتاجه لأنني أخشاه.

كان يشبه البحر؛ ذلك الكائن الأزرق الذي يمنحك صفاءً سماوياً، لكنه يخفي في أعماقه مقابر لا تُحصى.

بعد كل لقاء، كان يفتعل خصاماً غامضاً ثم يرحل فجأة، تاركاً روعي معلقة في منتصف الطريق... ؛ كنت أعود إلى البيت كمن نجا من حادثٍ مروّع، لكنني، بدل أن أتعلم النجاة، كنت أشتاق إلى الحادث نفسه.

وفي غيابه، كانت المدينة تتحول إلى متحفٍ لصورته.

أراه في وجوه الغرباء، في ظلّ الأشجار، في النوافذ المبتلة، في أصوات القطارات البعيدة... ؛ حتى الموسيقى التي لم يكن يسمعها صارت تشبهه.

كنت أبحث عنه قرب الأنهار، في الموانئ، بين أسراب الطيور، تحت أشجار النخيل، كأنني أفتش عن إلهٍ منفيٍّ لا عن إنسان .

أما الليل... فكان الكارثة.

عند المساء، يبدأ صوته بالظهور داخل رأسي؛ عميقًا، هادئًا، قاسيًا، كأنه
قادم من قاع الكون. ثم يرن الهاتف أخيرًا.

رقم مجهول.

دائمًا رقم مجهول.

كنت أرتجف قبل أن أحيب، كما يرتجف المحكوم بالإعدام قبل سماع
الحكم الأخير.

وحين يتحدث، أشعر أن الكلمات لا تخرج من فمه بل من جرح مفتوح
داخلي.

«هل اشتقت إلي؟»

وكان السؤال وحده كافيًا لكي يبعثرني.

أخبرته مرة:

«أنت تؤذيني.»

فضحك بهدوء، وقال:

«بل أنا أكشفك فقط.»

ثم صمت.

كان صمته أكثر فتكًا من الكلام.

وفي اللقاء الرابع، حدث شيء لم أستطع نسيانه أبدًا.

التقينا في فندق مهجور عند أطراف المدينة، قرب البحر...؛ كانت الريح
تعصف بالنوافذ القديمة، والممرات الطويلة تفوح منها رائحة رطوبة

وذكريات متعفنة... ؛ جلس قرب النافذة، بينما كان البحر خلفه هائجاً
كوحشٍ أسطوري.

حدّثت فيه طويلاً وقلت:

«من أنت؟»

ابتسم تلك الابتسامة التي تشبه الأسرار، ثم قال:

«أنا الانسان الذي يظهر عندما تتعب من الكذب على نفسك.»

شعرت بالخوف.

ليس منه... بل من احتمال أن يكون صادقاً.

اقترب مني ببطء، حتى شعرت بأنفاسه على وجهي... ؛ اللحظة، تمنيت
أن ألمسه، أن أضع رأسي على صدره وأبكي كطفل نجى من الحرب
متأخراً... ؛ لكن شيئاً داخلي كان يصرخ: اهرب.

قال هامساً:

«أنت لا تحبني ؛ انما تحب النسخة التي تتحول اليها بقربي»

كانت الجملة أشبه بخنجر بارد.

لأول مرة، أدركت أنني كلما اقتربت منه، كنت أبتعد عن نفسي أكثر... ؛
وأن هذا العشق لم يكن قصة حب، بل رحلة سقوط بطيئة داخل أكثر
مناطق روحي ظلمةً ووحشةً.

سألته:

«ولماذا تعود إليّ دائماً؟»

نظر إلى البحر طويلاً، ثم قال بصوتٍ مبجوح:

«لأنني مثلك تمامًا... لا أستطيع النجاة مما يؤذيني.»

في تلك اللحظة، شعرت أننا لسنا عالقين، بل ناجيين من خرابٍ واحد...؛
روحين متعبتين تحاول كل منهما الاحتماء بالأخرى، بينما كلتاها تحمل
النار ذاتها.

ثم حدث الأمر الأكثر غرابة.

نهض فجأة، ارتدى معطفه الأسود، واتجه نحو الباب.

قلت بارتباك:

«إلى أين تذهب؟»

توقف قليلاً دون أن يلتفت، وقال:

«إلى المكان الذي جنث منه... داخل.»

وخرج.

ركضت خلفه مذعوراً، فتحت الباب، فتشت الممرات، ناديت اسمه...

لكن الفندق كان فارغاً تماماً.

لا أحد.

فقط صوت البحر.

ومنذ تلك الليلة، لم يتصل مجدداً.

ومع ذلك، أحياناً، عندما أقف قرب النهر ليلاً، وأرى انعكاسي المرتعش
فوق الماء، أشعر أنني لم أفقده حقاً.

بل فقدت النسخة القديمة مني.

أما هو...

فما زال يعيش في مكانٍ ما بين الخوف والرغبة، بين الحب والهلاك، داخل تلك المنطقة المعتمدة من الروح... حيث تتحول النجاة نفسها إلى نوع آخر من الغرق.

عندما نزل الملاك على سطح البيت (١٥)

في ليالي عراقية لا تعترف بالرحمة، كان الشتاء أشبه بسلطة أخرى تُضاف إلى سلطات القهر؛ بردٌ لا يكتفي بتجميد الجسد، بل يتسلل إلى المعنى ذاته، فيحوّل الحياة إلى احتمالٍ ثقيل. انطفأت الكهرباء كعادتها، وكان المدينة مُدانةً بالعيش في العتمة أكثر مما هي مُدانةٌ بالنجاة منها.

بغداد في تلك اللحظة لم تكن مدينة؛ كانت جسداً مفتوحاً على نزيفٍ قديم، شرايينه أزقة ضيقة، وذاكرته دخان ورماد.

السماء منخفضة حد الاختناق، سقفت من رصاص رمادي، لا يترك للروح منفذاً إلا إلى الداخل...؛ ومن الداخل يبدأ كل شيء: الخوف، والأسئلة، والنجاة التي تشبه الخيانة أحياناً.

منذ سنوات الحصار والحروب، لم يعد الزمن في العراق زمناً مستقيماً؛ صار دائرة من الرماد...؛ حربٌ تلتهم أبنائها، وانسحابٌ من الكويت تحول إلى طريقٍ للموت، كأن الأرض نفسها قررت أن تُصفي حسابها مع من يمشون فوقها...؛ ثم جاءت الانتفاضة عام ١٩٩١، لا كحلم بالحريّة، بل كصرخة خرجت من صدرٍ مُثقل بالاختناق...؛ لكنها ارتطمت بجدارٍ لا يسمع، فعادت إلى أصحابها محملةً بالدم والدمع والقبح.

وفي تلك السنوات، امتلأت البلاد بما لا يُرى في الخرائط: مقابر جماعية، وسجون تتكلم بلغة الصراخ، وأمّهات يعدّدن أبناءهن كما يُعدّ الغائبون في صلاةٍ لا تنتهي.

في هذا الخراب، كان خالد يمشي كمن تعلّم النجاة بالحدز لا بالشجاعة... ؛ شابٌ عرف أن الحياة ليست عادلة، بل قابلةٌ للتأجيل فقط... ؛ وفي ليلةٍ ثقيلة، غادر بغداد نحو واسط، كأنما يهرب من ظلّه لا من المدينة.

هناك، في قضاء بدره ، لجأ إلى سطح بيت صديقه حميد.. ، سطحٌ بسيط، لكنه بدا له كحدٍ بين عالمين: عالم يطارده، وعالم لم يولد بعد... ، فرش بسيطاً قديماً، وأشعل ناراً صغيرة من حطبٍ جمعه بيدين مرتجفتين.. ، كانت النار ترتجف بدورها، كأنها تخاف أن تُرى.

كانت النار تتراقص كطفلةٍ شقية، تقاوم الريح، وتبعث في العتمة وهجاً خجولاً يشبه الأمل حين يولد في قلبٍ منكسر.

أصدقاؤه—سعد وحيدر وكريم—تفرّقوا بين سجنٍ ومصير مجهول، وقيل إنهم ذاقوا في الرضوانية من ألوان العذاب ما تعجز اللغة عن حمله... ؛ أمّا صديقه محمد، فقد عبر الأهوار هارباً نحو إيران، تاركاً خالد بين سؤاليين: النجاة بأي ثمن؟ أم البقاء ولو كان الثمن الروح؟

قال حميد وهو ينفث أنفاسه في البرد:

— “هل يمكن للإنسان أن ينجو دون أن يخسر نفسه؟”

لم يجب خالد.. ، كان ينظر إلى النار كأنها كائنٌ يفكر بدلاً عنه.

في داخله سؤالٌ آخر كان أكثر قسوة:

هل البقاء بطولة... ؛ أم شكلٌ مؤجل من الانكسار؟

نزل حميد إلى غرفته ، واصر خالد على البقاء في السطح .

فجأة، حدث ما لا تُفسّره اللغة.

انشقّ الهواء فوق السطح، لا كصوتٍ ولا كضوءٍ مألوف، بل كتحوّلٍ في طبيعة الوجود ذاته... ؛ وكأن السماء فقدت توازنها للحظة، فسقط منها شيءٌ ليس جرماً ولا جسداً، بل معنى.

هبط النور.

لم يكن سقوطاً، بل نزولاً هادئاً، كأن الفجر قرر أن يلمس الأرض بيده... , تجمّد الهواء، وخفتت النار كأنها تحترم الحضور.. , وعلى "البيتونة" وقف كائنٌ لا يشبه البشر إلا في الشكل الظاهري، أما حضوره فكان خارج القياس.

طويل، مهيب، مكّون من صفاء يكاد يؤلم العين.. , بشرته كأنها صُنعت من ضوءٍ مُصقّى، وشعره امتدادٌ لجدران من نورٍ لا يعرف التلوّث.. , عيناه ليستا للنظر، بل للفهم.

ارتجف خالد.. , لم يكن خوفاً، بل انكشافاً داخلياً مفاجئاً، كأن روحه رأت نفسها بلا أفتعة.

قال الكائن، وصوته لم يُسمع بالأذن، بل سكن في العظم:

— "لا سلطان يدوم... إلا سلطان من لا يزول.

كل من قام على سببٍ سقط بسبب.

وحده مُسبّب الأسباب لا يسقط، لأنه ليس جزءاً من اللعبة."

صمت لحظة، ثم أضاف:

— "لا تحمل قلبك أكثر مما يحتمل.

الذين يخيفونك اليوم، سيصبحون غداً خبراً في ذاكرة الغبار.

ارجع، وامش في طريقك كأنك تُؤمن على الحياة لا تُدان بها."

لم يكن خطابًا، بل تفكيكًا داخليًا لكل ما تراكم في روح خالد من خوفٍ طويل.

سأله خالد بصوتٍ مكسور:

— “ومن يضمن أنني لست مجرد رقم في هذا الخراب؟”

أجابه الكائن:

— “من لا يرى في حساب الطغاة، يرى في ميزانٍ آخر.”

ثم ارتفع ببطء، لا كصعود، بل كعودةٍ إلى أصلٍ غير مرئي.. , وبقي في الهواء أثراً يشبه الرائحة التي لا تشبه الأرض: مزيج من الطمأنينة والغياب، كأن الجنة مرّت من هناك ثم اعتذرت عن البقاء.

مرّت السنوات.

سقط النظام، وتبدّلت الوجوه، وارتفعت شعاراتٌ جديدة فوق أنقاض الشعارات القديمة.. , لكن الخراب، كما لو أنه فكرة، لم يتغير؛ فقط غيّر لغته.

خالد نجا.

لكن الغريب أنه نجا دون أن يحتفظ بالقصة كاملة.. , كأن الذاكرة قررت أن تحميه منه، فخففت حدة النور في داخله.. , انشغل بالحياة: العمل، السياسة، الجدل، الخوف الجديد الذي لبس قناعًا مختلفًا.

ومع ذلك...

لم ينطفئ كل شيء.

كان هناك دائمًا شيء صغير في داخله، لا يرى، لكنه يعمل كنبرسٍ خفي.. , كلما اشتد عليه الواقع، شعر بنسمةٍ تمرّ في صدره كذكرى بلا اسم.. , وكلما رأى ظلمًا جديدًا، سمع في داخله صدى جملةٍ قديمة:

“كل سلطانٍ إلى زوال...”

لم يتذكر الملاك بوضوح.. , لكنه لم ينسه تمامًا.

لأن بعض التجارب لا تتحول إلى ذاكرة... بل إلى طبقة ثانية من الروح.

ربما كانت الذاكرة أعمق من الوعي، وأصدق من السرد... ؛ وربما كان الملاك وعده بقاءٍ آخر في عالمٍ لا تثقل فيه الأرواح بخرائط الطغاة ولا بحدود الدول...

وهكذا ظلّ خالد يمشي في الحياة كأَيِّ إنسانٍ عادي، لكنه في سرّه الذي لا يعلمه إلا الله كان يحمل ليلةً نزل فيها النور على سطح بيتٍ صغير، ليقول لقلبٍ مرتجف:

إن الظلام، مهما طال، ليس إلا استراحةً قصيرةً قبل أن يتكلم الفجر.

عندما يسرق الفراغُ قلبًا (١٦)

في مدينةٍ لا تُمسك من ملامحها سوى الضجيج، كان حسان يعيش كأنّه تفصيلٌ زائد في لوحةٍ مكتملة بالازدحام... , شوارعها تمتلئ بالخطي، بالمقاهي، بالوجوه التي تلمع ثم تتطفئ، لكنّها في داخله كانت مدينة بلا قلب...؛ مدينة تُتقن الضحك دون أن تعرف لماذا، وتُجيد المرور بجانب الإنسان دون أن تراه أو تشعر به .

كان يمشي، لا لأتّه يريد الوصول، بل لأنّ التوقف يفضح ما فيه من فراغ... , كأن جسده موظفٌ يعمل في حياةٍ لا تخصّه، بينما روحه في إجازةٍ طويلة لا عودة منها.

لم يكن فقيرًا، ولا معزولًا اجتماعيًا بالمعنى المباشر، لكنه كان مفلسًا في أكثر العملات قسوة: “الحنان”.

في داخله غرفة قديمة بلا نوافذ... ؛ كلما حاول فتحها، ارتدّ الباب عليه كأنه يرفضه... ؛ حتى الذكريات التي كان يُفترض أن تكون دافئة، صارت باردة كقطع زجاج مكسور.

الحب بالنسبة له لم يكن تجربة، بل شائعة سمعها ولم يعيشها قط.

ومع الزمن، صار الصمت داخله مدينة ثانية.. ، مدينة تنمو وحدها، تبتلع صوته حين يتكلم مع نفسه، وتعيده إليه مشوّهاً، كأنه يحدث صدّى لا إنساناً.

في إحدى الليالي الثقيلة، حين بدا الليل أطول من عمره، جلس أمام هاتفه... ؛ الشاشة أضاءت وجهه كقمر صناعي يفتّش عن كوكب صالح للحياة... ؛ لم يكن يبحث عن أحد بعينه، بل عن أي شيء يُقنعه أنه ليس وحيداً إلى هذا الحد.

دخل إلى العالم الأزرق... ، ذلك البحر الذي لا ماء فيه، لكنه يبتلع الغرقى بكفاءة أعلى من المحيطات.

قال لنفسه:

ربما هناك... ربما خلف هذه الوجوه المعلقة توجد قلوب حقيقية.

لم يمض وقت طويل حتى ظهر "خالد".

كان خالد يبدو كأنه يعرف الطريق إلى الإنسان الوحيد: كلمات مرتّبة، نبرة واثقة، دفء محسوب بدقة... ، لا يبالغ في اللطف، ولا يتركه ناقصاً... ، رجل يبدو كأنه صديق قديم عاد من غياب طويل دون تفسير.

"أنت شخص مختلف يا حسن... قليلون من يفهمون ما أقرأه في كلماتك."

جملة واحدة كانت كافية لتفتح باباً ظل مغلقاً سنوات.

لم يكن حسّان ساذجًا بقدر ما كان جائعًا.. , والجوع حين يطول، لا يميّز بين الخبز والوهم.

خالد لم يكن وحده.

في الخلف، كانت هناك خيوط أخرى تُنسج بهدوء.. , امرأة تظهر لاحقًا، تحمل اسمًا آخر، وصوتًا أكثر نعومة.. , لم يكن دخولها مفاجئًا، بل مدروسًا كدخول ممثلة إلى مسرح يعرف متى تبتسم فيه الكاميرا.

كانت تعرف أين تلمس الرجل الوحيد: في فراغه، في خوفه من عدم كونه مرئيًا، في تلك المنطقة الغامضة بين الحاجة والخيبة.

“أشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد...” قالت له.

وهنا تحديدًا، لم يعد حسّان يتحدث مع أشخاص، بل مع تصميم محكم لوهم مزدوج: رجل وامرأة، صوتان، قناعات، شبكة واحدة تُحاك بعناية باردة.

خالد يزرع الثقة.

والمرأة تسقيها بالعاطفة.

خلال أيام قليلة، صار حسّان ينام وهو ينتظر رسالة، ويستيقظ وهو يمد يده للهاتف قبل أن يفتح عينيه بالكامل.. , لم يعد العالم الواقعي مهمًا، لأن عالمه الجديد صار أخف وزناً وأسهل تصديقًا.

ثم جاء الطلب.

كان بسيطًا، إنسانيًا، مشحونًا بالضرورة:

“أنا في ظرف صعب... أحتاج مساعدة مؤقتة... سأعيدها فورًا.”

بعد دقائق، رسالة أخرى من الصوت الثاني، أكثر ارتباكًا، أكثر قربًا من القلب:

“أنت الوحيد الذي أشعر أنني أستطيع طلب هذا منه...”

هنا لم يعد المال مألًا، بل اختبارًا للصدق.. , وحسّان، الذي لم يتعلم يومًا كيف يشكّ، دفع.. , مرة، ثم أخرى.. , كأنه يشتري استمرار الحلم لا أكثر.

مئة دولار هنا... ؛ مئتان هناك...

ثم صمت.

اختفى خالد كما تختفي الإشارات الضعيفة في العاصفة.

اختفت هي أيضًا، وكأن التطبيق نفسه قام بمسحهما من الوجود.

لكن الغريب لم يكن الاختفاء... ؛ بل ما حدث داخل حسّان.

لم يقل: “لقد خُذت.”

بل قال:

“هل أصابهما شيء؟”

تحول الضحية إلى منقذٍ متخيّل.. ؛ صار يبحث عنهما في الفراغ، لا ليستعيد ماله، بل ليطمئن على وهمه.. , كان قلبه، بدل أن ينكسر، يرفض التصديق أن الخديعة كانت كاملة.

صار يدخل التطبيق كل يوم كما يدخل معبدًا بلا إله.. , يفتح المحادثة الفارغة، كمن ينتظر صوتًا من قبرٍ رقمي.. , يحدّق طويلًا في “لا شيء”، لكنه يراه ممثلًا بالاحتمالات.

في الليل، كان يتخيل أن خالد ربما مريض.

أن المرأة ربما خائفة.

أن هناك سوء فهم، أو خطأ، أو قدرًا قاسيًا.

لم يكن المال هو الضحية الحقيقية.

الضحية كانت فكرة “أنه أخيرًا كان مهمًا لأحد”.

وهنا كانت الجريمة الأعمق: لم يسرقوه من حسابه، بل من حاجته للصدق.

في المدينة خارج هاتفه، كان كل شيء يعمل بشكل طبيعي: المقاهي تضحك، العلاقات تُستهلك بسرعة، والجسد يتحول إلى وسيلة عبور.

كانت الدعارة الرقمية تمارس شكلًا جديدًا من الاقتصاد الخفي: ليست بيع الجسد فقط، بل بيع الانتباه، بيع الحنان المصنوع، بيع الوهم الذي يبدو دافئًا بما يكفي ليُصدق.

و النصب والاحتيال الإلكتروني لم يعدا مجرد جريمة، بل صناعة كاملة تتقن هندسة الوحدة البشرية.

حسّان لم يكن حالة فردية.. , كان نموذجًا.

نموذج الإنسان الذي تُترك وحده طويلًا حتى صار مستعدًا أن يدفع مقابل جملة لطيفة.

كل ليلة، قبل أن ينام، كان يسأل نفسه بصوتٍ خافت:

هل كنتُ غيبًا؟

أم أن العالم أصبح ذكيًا أكثر من اللازم؟

ثم يطفئ الشاشة.

لكن الضوء لا ينطفئ داخله.

ففي مكانٍ ما من ذلك الفراغ، كان خالد لا يزال موجوداً... ليس
كشخص، بل كفكرة:

أن أحداً ما قد يحبك فجأة... ثم يختفي فجأة... دون تفسير... ودون
رحمة.

وهكذا، لم تُغلق القصة.

بل بقيت مفتوحة على سؤال واحد، ينام معه ويستيقظ عليه:

هل كان الوهم هو ما سرق قلبه...

أم أن قلبه كان فارغاً إلى الحد الذي جعل أي وهم يبدو كحقيقة؟

قصتي مع البلبل القليل (١٧)

في هذا العالم، لا تأتي الكوارث دفعة واحدة، بل تتسلل كالماء المتسرب
من سقف قديم؛ قطرة قطرة... ؛ حتى يغدو البيت كله صدىً داخلياً.. ؛
مصباح ينطفئ بلا سبب، جهاز يتعطل في لحظة لا معنى لها، خبر سيئ
يتسلل في منتصف يوم عادي كطعنٍ صغير لا يُرى... ، ثم يتراكم كل
شيء حتى يصبح العيش نفسه سؤالاً بلا جواب.

في ذلك الوقت، كانت زوجتي قد بدأت تميل إلى فكرة غريبة، أو هكذا
بدت لي.

قالت وهي تراقبني كمن يبحث عن خلاص غير معلن:

— نحتاج بلبلاً.

ضحكت، لا سخريةً منها فقط، بل من العالم كله:

— بلبل؟ في هذا الخراب؟ وهل صار الطائر علاجاً للمشاكل والحظ
النحس؟!

لكنها لم تضحك.. , كانت جادة بشكل يثير القلق.

قالت بهدوء يشبه يقيناً طارئاً:

— البلبل يطرد العين.. , يخفف الطاقات السلبية.. , يوازن البيت.

قلتُ، وقد بدأتُ أضيق بالفكرة:

— ومن أين يأتي البلبل بكل هذه المهام؟! هل صار الطائر وسيطاً بيننا
وبين الغيب؟!

أجابت، كأنها تردد ما سمعته لا ما اخترعته:

— هناك طاقات سلبية... لا تُرى.. , تُرسل من الحاسدين.. ; مثل
موجات خفية.. ; تهاجم الإنسان دون أن يشعر.

صمتُ قليلاً.. ; لم أقتنع، لكنني كنت أستسلم تدريجياً، لا للفكرة، بل
للإرهاق من الجدل ذاته.. ; في المجتمعات المتعبة، لا تُهزم بالحجج، بل
بالتعب.

وفي النهاية، ذهبت.

سوق الطيور كان عالمًا موازياً: أصوات متداخلة، أفصاص متراسة،
أجنحة تصطدم بالحديد كأنها تحاول تذكير السماء بأنها مازالت
موجودة.. , وبين هذا الصخب، رأيته.

بلبل صغير، مضطرب الحركة، لكنه جميل على نحو يثير حنيناً غير
مفهوم.. , كان يغني كأنه لا يعرف لماذا وُضع في قفص، أو كأنه قرر أن
يتصالح مع القفص بالغناء.

اشتريته، وأنا أشعر أنني لا أشتري طائراً، بل أوقع عقداً صغيراً مع شيء لا أفهمه.

في البيت، بدأت التحولات.

لم يعد البابل مجرد طائر.. , كان شيئاً يتجاوز التعريف.. , كائنًا يراقبني كما أراقبه.. , صوتاً يدخل في الفراغات الصامتة داخل اليوم.. , كأنه خيط رفيع يربطني بما تبقى من الخفة في العالم.

كانت زوجتي تقول:

— ألم أقل لك؟

لكنني كنت أصمت.. , لأنني بدأت ألاحظ شيئاً آخر: أن البيت تغيّر فعلاً، لا بسبب الطاقات، بل بسبب حضور حياة صغيرة ترفض أن تكون هامشاً.

كنت أطعم البابل بيدي.. , يقترب دون خوف.. , ثم بدأ ينتظرني.. , ثم بدأ يتعرف علي.. , ثم صار يغرد حين أعود.

لم أعد أراه طائراً فقط، بل كائنًا يعيد ترتيب داخلي.. , كأن صوته يوقظ شيئاً فيّ كنت أظنه مات منذ زمن.

حتى بدأت أتركه يطير داخل الغرفة.

وكان يعود.

في كل مرة.

وكان بيننا اتفاقاً غير مكتوب: الحرية المؤقتة مقابل الثقة.

لكن الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تُمنح لتدوم.

في أحد الأيام، جاء ضيوف.. , ضجيج، أطفال، فوضى بريئة.. , باب القفص فُتح بلا قصد.. , لحظة واحدة كانت كافية.

طار.

لم يصرخ أحد.. , إلا داخلي أنا.

خرجتُ من البيت دون وعي.. , ركضتُ في الشارع كمن فقد جزءاً من جسده.. , كنت أسأل الجيران، الأطفال، الهواء نفسه:

— بلبل... هل رأيتم بلبل؟

حتى جاءني طفل:

— رأيته على شجرة سدر... , في بيت قريب.

ذهبت.

كان البيت غريباً عني، لكنني لم أكن أرى البيوت.. , كنت أرى شيئاً واحداً فقط: احتمال أن أجده.

فتحت فتاة الباب.

لم تكن مجرد فتاة.. , كانت لحظة مربكة بين الجمال والصدفة، بين الواقع والاختبار.. , لم أفكر كثيراً في التفاصيل، لكنني شعرت بشيء يشبه الانزلاق الداخلي: كأن العالم أعاد توزيع معاييرهِ فجأة.

قلت لها مرتبكاً:

— بلبل... سقط هنا؟

أجابت بهدوء:

— نعم , أخذه أخي.

ثم أضافت:

— سأعيده لك.

لكن نظرتها القصيرة كانت كافية لتربك ما تبقى من اتزانتي.. لم تكن نظرة طويلة، لكنها كانت كمن يفتح نافذة صغيرة في جدار مغلق منذ سنوات.

عدتُ مع البلبل.

لكنني لم أعد كما خرجت.

في الأيام التالية، بدأت الحرب الداخلية.

بلبل في الخارج، وصوت آخر في الداخل.. ؛ لم أعد أميز بين فقد الطائر بالأمس وفقد شيء آخر لا اسم له.. ؛ كنت أستيقظ وأنا أفكر بها، وأنام وأنا أفكر بالبلبل، وأضيع بين الاثنين كأنهما وجهان لفرد واحد.

الحب، حين يأتي في لحظة خاطئة، لا يبدو حباً، بل ارتباكاً فلسفياً.

ثم جاءت النهاية.

في صباح عادي، دخلت لأتفقد القفص الخشبي .

كان مكسوراً.

البلبل اختفى , مرة أخرى ..

بحثنا جميعاً.. , ثم وجدناه.

ميتاً.

بجسد صغير بلا حركة، وعينين كأنهما توقفتا عن السؤال.

قالوا: قطّة سوداء.

قطعة اعتادت قتل الطيور.

لكن السؤال لم يكن "من قتل؟"، بل: لماذا القتل نفسه يبدو أحياناً بلا ضرورة؟ بلا جوع؟ بلا غريزة واضحة؟ كأنه فعل وجودي خالص، لا يحتاج سبباً.

نظرتُ إلى الجثة الصغيرة، وشعرت أن شيئاً في داخلي يُسحب بصمت.

الغضب جاء أولاً.. ثم الرغبة بالثأر.. ثم شيء آخر أكثر خطورة: برود غريب، يشبه الفهم.

حملتُ فكرة الانتقام.

لكن في اليوم التالي، علمت أن القطعة نفسها ماتت دهسا ..

ملقاة في الشارع.

تمزقها الكلاب.

لم أشعر بالراحة.. شعرت بالعنينة والسوداوية فقط.

كأن العدالة، إن وجدت، لا تأتي لتُرضي أحداً، بل لتقول: لا أحد يفهم اللعبة بالكامل.

ذهبتُ لأخبرها.

لكن الشارع كان مختلفاً.

موسيقى، زينة، ضحكات، سيارات.

قالوا:

— عرس ميسون.

الفتاة التي أحببتها عن بعد ..

وقفتُ لحظة.

ثم فهمت شيئاً بسيطاً وقاسياً:

أن كل شيء يمكن أن يحدث في العالم في الوقت نفسه... , موت، حب،
عرس، فقد، قطعة، بلبل...؛ دون أن ينتظر أحداً أحداً.

عدتُ أدراجي.

لم أكن حزيناً فقط.

كنت خفيفاً بشكل مؤلم...؛ كأن شيئاً كان يثبتني للعالم، ثم انقطع.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد البيت كما كان.

لا بلبل.

لا قفص.

لا يقين.

فقط روتين يعود بهدوء، كأنه لم يحدث شيء.

لكنني، في داخلي، كنت أعرف:

أن بعض الكائنات الصغيرة لا تموت فقط...

بل تأخذ معها نسخة منّا، وتتركنا نكمل الحياة بنسخة قلقة .

قناع العيد (١٨)

جاء العيد، وانتهى شهر رمضان، لكن زيّداً لم يلاحظ أي انكسارٍ زمني في
سير الأيام، ولا أي انتقالٍ من طبقةٍ إلى أخرى في نسيج الوقت.

كان الزمن عنده قد فقد قدرته على المفاجأة، صار سطحاً أملس ينساب فوقه كل شيء بالدرجة ذاتها من البرود؛ لا ليالٍ تُنذر بشيء، ولا صباحات تُبشّر بشيء، فقط تكرارٌ هادئ يشبه اجتراح نفس المشهد بصيغةٍ أخرى.

في داخله، لم يعد هناك فرق بين "اليوم" و "أمس"، بين "العادة" و "الاستثناء"... ؛ حتى كلمة عيد بدت له كأنها تسمية خارجية، ملصق لغوي لا علاقة له بما يجري في الداخل.

في ظهيرة ذلك اليوم، جلس أمام جهاز الاستقبال الفضائي... ؛ الشاشة الزرقاء كانت تعلن العيد بصوتٍ مرتفع: أغاني تتكاثر بلا ضرورة، ضحكات جاهزة، مذيعون يوزعون البهجة كما لو أنها هبات حكومية، وجوه لامعة تقول إن الفرح ممكن بالتقسيط، وإن الحزن مجرد سوء فهم جماعي.

كان المشهد كله يبدو له كعرضٍ مسرحيٍّ طويل، يؤدي فيه الجميع أدوارًا محفوظة مسبقًا:

“كل عام وأنتم بخير”

“أعاده الله عليكم بالفرح”

“أين ستقضون العيد؟”

أسئلة لا تنتظر إجابات، بل تنتظر فقط أن تُقال.

أغلق الصوت.

لكن الصورة بقيت تلمع، كأنها تصرّ على إقناعه بأن العالم بخير، وأن المشكلة فيه هو وحده.

وقف زيد في منتصف الغرفة.

سأل نفسه، بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

— هل يجب أن أفرح لأن التقويم قال ذلك؟

لم يجب أحد... , حتى الجدران بدت منشغلة بصمتها الخاص.

ثم أضاف، وكأنه يختير سؤالاً أكثر خطورة:

— أم أنني مريض لأنني لا أستطيع الفرح؟

كان يشعر أن العيد لا يضيف شيئاً إلى حياته، بل يفضحها.

في الأيام العادية، يمكن للحزن أن يتخفى: في كوب شاي بارد، في رسالة مؤجلة، في نومٍ غير مكتمل... ؛ أما في العيد، فكل شيء يصبح مكشوفاً؛ لأن العالم كله يبتسم في اللحظة نفسها التي يفشل فيها هو في حتى تقاليد الابتسامه.

مدّ يده إلى هاتفه.

رسائل كثيرة:

“كل عام وأنت بخير يا زيد 🌙”

“عيد سعيد”

“عيدك مبارك”

ردود جاهزة، مصفوفة كأنها نسخ من جملة واحدة قُسمت على آلاف الألسنة.

توقف عند إحدى الرسائل.

لم يفتحها.

شعر أن فتحها يعني الاعتراف بأنه جزء من لعبة اجتماعية لا يفهم قواعدها، لكنه مجبر على لعبها.

تراجع قليلاً.

في داخله، رغبة قديمة بالانهيار كانت ترفع رأسها بهدوء: أن يبكي، أن يترك كل شيء ينهار لحظة واحدة بلا تفسير، أن يعترف أن ثمة اختناقاً لا يحتاج إلى سبب كبير كي يُصدق.

لكن شيئاً آخر منعه.

ليس القوة.

بل الخوف من “سوء التوقيت”.

ففي العيد، حتى الحزن يحتاج إلى إذن غير مكتوب.

قال لنفسه:

— ليس الآن... ليس اليوم.

كأن الألم أيضاً يخضع للدوام الرسمي.

ذهب إلى المرأة.

نظر إلى وجهه طويلاً.

لم ير شيئاً واضحاً.

فكر أن يصنع قناعاً.

بحث بعينه في الغرفة.

لم يجد شيئاً يصلح سوى قميصه.

رفع طرفه، وغطى به وجهه.

لكن القماش لم يكن كاملاً، فبقيت عينيه مكشوفتين، وبقيت ملامحه نصف ظاهرة، كأنه لا ينجح لا في الاختباء ولا في الظهور.

ضحك ضحكة قصيرة، بلا صوت تقريبًا.

— حتى القناع ناقص... همس.

في تلك اللحظة، رنّ الهاتف.

أجابه دون أن يغيّر وضعه.

صوت أمه:

— زيد... لماذا لم تأتِ؟ اليوم عيد.

صمت.

ثم قال:

— لا أشعر أنه عيد.

تنهّدت الأم، تنهيدة طويلة تشبه العادة أكثر مما تشبه الحزن:

— العيد لا يحتاج شعورًا يا بني... العيد يُعاش.

كانها تقول له: المشكلة أنك ما زلت تعتقد أن الشعور شرط.

أغلق الهاتف.

جلس على الأرض.

القميص ما زال على وجهه، لكنه أصبح أثقل، كأنه لم يعد قماشًا بل فكرة:

فكرة أن الإنسان يستطيع أن يختبئ من العالم دون أن يختفي منه.

في الخارج، كان الجيران يطلقون ضحكات متقطعة، أصوات أطفال،

زيارات سريعة، جمل قصيرة تتكرر:

“تفضلوا عندنا”

“إن شاء الله العام القادم أفضل”

“كيف حالك؟ الحمد لله”

لغة اجتماعية كاملة تُقال دون أن تعني نفسها.

فكر زيد:

هل نحن نحتفل فعلاً... , أم نؤدي طقساً لحماية أنفسنا من الاعتراف بأن
لا شيء تغير؟

ثم خطر له سؤال آخر، أكثر قسوة:

هل الأعياد ليست سوى إعادة جماعية لتأكيد أن الحياة مستمرة، حتى لو
لم يكن أحد يعيشها حقاً؟

في منتصف هذا الصمت الداخلي، شعر بشيء غريب:

ليس حزناً.

ولا فرحاً.

بل فراغاً ناعماً، يشبه الوقوف في ممر طويل بلا أبواب.

رفع القميص عن وجهه.

نظر حوله.

الغرفة كما هي.

الضوء كما هو.

العالم كما هو.

لكنه لأول مرة شعر أن المشكلة ليست في أن الحياة بلا معنى...

بل في أن المعاني تُفرض عليه جاهزة، في مواعيد محددة، مثل العيد تمامًا.

همس لنفسه، بصوتٍ أقرب للاعتراف:

— ربما لا أحد يطلب مني أن أكون سعيدًا... بل أن أبدو سعيدًا فقط.

وفي تلك اللحظة، فهم زيد أن العيد ليس حدثًا في الزمن...

بل اختبارًا اجتماعيًا لمدى قدرتك على ارتداء القناع دون أن يسقط منك.

وظل جالسًا، لا محتفلًا ولا منكراً، بل شاهدًا على شيء لا يُقال:

أن الإنسان قد يُجبر أحيانًا على الاحتفال...

لكن لا أحد يستطيع أن يجبره على الفرح.

كان أقرب ممّا ظنّ (١٩)

كان البيت هادئًا أكثر من المعتاد تلك الليلة.

ضوء الصالة الخافت يتمدد فوق الجدران الباردة، فيما ظلّ صوت التلفاز القادم من الغرفة البعيدة يحاول عبثًا أن يملأ الفراغ.

وقف نوري في الممر، يلتقط أنفاسه بسرعة، ويلتفت خلفه كل لحظة.

كانت يده ترتجف قليلاً وهو يقبض على مقبض الباب، فيما التصق قميصه بظهره من العرق.

لم يكن متأكدًا إن كان أحد قد رآه، لكنه لم يكن مستعدًا للمجازفة.

فتح الباب ببطء شديد، ودخل بخفة حذرة، ثم أغلقه وراءه كما لو أن حتى الباب لا ينبغي أن يشعر بوجوده.

مرّت خطوات خافتة في الخارج.

تجمّد نوري في مكانه.

— هل رأيته؟

جاء الصوت منخفضاً وقریباً.

— لا... لكنه لا يمكن أن يكون بعيداً.

أسند ظهره إلى الباب، وكتم أنفاسه.

كان قلبه يضرب صدره بعنف حتى خُيّل إليه أن صوته سيفضحه.

امتدّ الصمت طويلاً.

ثم بدأت الخطوات تبتعد شيئاً فشيئاً، حتى اختفت.

ظلّ واقفاً للحظات، يحدّق في العتمة أمامه، قبل أن يجروّ على الحركة.

فتح الباب ببطء، وأطلّ بحذر إلى الممر.

لم يكن هناك أحد.

ارتسمت على شفّتيه ابتسامة صغيرة متعبة، ابتسامة من نجا مؤقتاً فقط.

همس لنفسه:

— في المرة القادمة... لن أرتبك هكذا.

كرتي الأولى (٢٠)

أو: الكائن الذي تذكّر سقوطه متأخراً

حين أتذكّر حياتي الأولى، لا أتذكّر اسماً.

أول ما يعود إليّ هو ظهري المحدوب، كأنّ أحدهم وضع فوق عظامي
صخرة غير مرئية، ثم تركني أمشي بها آلاف السنين.

أتذكّر الشعر الكثيف الذي كان يغطّي جسدي مثل عشب بريّ، وعيّنّي
الواسعتين اللتين كانتا تخيفان حتى الحيوانات.

لم أكن قرودًا تمامًا... ؛ لكنني لم أكن إنسانًا أيضًا.

كنتُ شيئًا عالقًا بين مرحلتين،

روحًا متأخرة عن جسدها،

أو جسدًا سبقَ روحه إلى الأرض.

عشتُ فوق جبالٍ شاهقة، أعلى من الغيوم، في عالمٍ باردٍ ورطب، حيث
الضباب لا يغادر الصخور أبدًا.

هناك، كانت الأشجارُ ملتويةً كأصابعٍ عجوزٍ يحتضر، وكانت الريحُ
تعوي طوال الليل كأنها تحاولُ تحذيرنا من شيءٍ لا نفهمه.

لم أكن وحدي.

كان هناك قرودٌ ضخمة يرافقني دائمًا.

لم يكن صديقًا بالمعنى الذي نعرفه الآن، لكننا كنّا نتقاسمُ الجوع والخوف
والصمت.

نجلسُ أحيانًا قرب حافة الجبل، يلتهمُ هو أوراق الأشجار بطمأنينةٍ غبية،
بينما أحتقُ أنا في السماء بشعورٍ غامضٍ يشبهُ الحنين.

كان ينظر إليّ أحيانًا باستغراب، كأنّه يدركُ أنني مختلف عنه.

وأنا أيضًا كنتُ أشعر بذلك.

كان داخلي شيءٌ زائد... ؛ شيءٌ يشبهُ الشرارة.

قلّق لا تعرفه الحيوانات.

سؤال بلا لغة.

في الليل، كنتُ أنام داخل كهفٍ ضيق تفوح منه رائحة الرطوبة والعظام القديمة.

لكنني نادرًا ما كنتُ أنام حقًا.

كانت الأحلام تهاجمني كالعواصف.

أرى نفسي أسقطُ من مكانٍ بعيد،

بعيد جدًا،

حتى إن النجوم كانت تبدو تحتي لا فوق.

وأسمعُ أصواتًا لا تشبهُ أصوات هذا العالم.

أصواتًا تقول:

— ليس هنا... ؛ أنت لست من هنا.

ثم أستيقظُ مذعورًا، أتحسسُ الصخور حولي، وأزحفُ نحو فتحة الكهف لأؤكد أن الأرض ما تزال موجودة.

في صباحٍ رماديّ، حدث ما غير كل شيء.

كنتُ أتبعُ حيوانًا صغيرًا يتحرك بين الصخور بسرعة البرق.

الجوع كان ينهشُ معدتي، والبردُ يقطعُ أطرافي، لذلك ركضتُ خلفه بجنون.

القردُ كان يصرخُ خلفي.

لأول مرة، بدا صوته أشبه بتحذير.

لكنني لم أتوقف.

قفز الحيوان فوق حافة صخرية، وقفزت وراءه دون تفكير.

وفجأة... اختفت الأرض.

أتذكر تلك اللحظة بوضوح يفوق كل ما عداها.

الهواء صار سكينًا ضخمة.

السماء انقلبَتْ إلى هاوية.

والجبال بدأت تدور حولي كأنَّ العالم كله قد فقد توازنه.

كنتُ أسقط.

وللمرة الأولى، فهمتُ معنى أن يكون الإنسان وحيدًا تمامًا.

في أثناء السقوط، حدث شيء لم أفهمه إلا بعد ملايين السنين.

الزمن تباطأ.

رأيتُ جسدي في الهواء كأنني أنظرُ إلى كائنٍ آخر.

ذلك المخلوق المشوّه، نصف الحيوان ونصف الحلم، كان يلوح بذراعيه

بعجزٍ مضحك.

ثم ظهروا.

كانناتٌ من نور.

لم تكن ملائكة كما تصفها الكتب، بل أشبه بوعي خالصٍ يرتدي الضوء.

اقتربوا مني بهدوءٍ مخيف، واخترقت أيديهم صدري دون ألم.

شعرتُ بشيءٍ يُنتزَعُ مني.

شيءٌ أعمق من القلب.

وحين نظرتُ إلى الأسفل، رأيتُ جسدي يصطدمُ بالصخور.

سمعتُ عظامه تتكسر.

رأيتُ الدم ينسكبُ كثيفاً وأسود، ورأيتُ الجمجمة تنفتحُ كثمرَةٍ فاسدة.

لكنّ أكثر ما أربني لم يكن الموت.

بل اللامبالاة.

الجبالُ بقيت صامتة.

الريخُ واصلت عواءها.

والقردُ جلس قرب الجثة يحتقّ فيها بحزنٍ غامض، قبل أن يمدّ يده

المرتجفة ويلمسُ وجهي المحطم.

في تلك اللحظة أدركتُ شيئاً مرعباً:

لقد كان أول مخلوقٍ يحزنُ عليّ في هذا الكون.

تركتُ الأرض بعدها.

أو ربما انزعتُ منها.

لا أعرف.

كنتُ أطيّرُ فوق الكوكب، أراه يصغر شيئاً فشيئاً، كعينٍ زرقاء تحتضر

في الظلام.

ثم عبرنا فضاءاتٍ لا نهاية لها.

رأيتُ نجومًا تولد وتموت في لحظات، وكواكبٍ سوداء تبتلع الضوء،
ومخلوقاتٍ هائلة تمرّ قربنا دون أن تلاحظ وجودنا.

سألتُ الكائنات النورانية:

— من أنا؟

لكنها لم تُجب.

سألتُ:

— لماذا وُلدتُ هناك؟

فقال أحدها أخيرًا بصوتٍ بارد:

— لأن الوعي يبدأ دائمًا من الألم.

ثم وصلنا إلى عالمٍ آخر.

لم تكن فيه جبال ولا أشجار ولا أصوات.

فقط بياضٌ هائل يشبه النسيان.

هناك، اقترب مني أحد الكائنات ووضع يده فوق رأسي.

وفجأة بدأت ذاكرتي تتساقط.

سقط الكهف أولاً.

ثم الجبل.

ثم القرد.

ثم وجهي.

حتى اسمي الذي لم أكن أعرفه اختفى هو الآخر.

وقبل أن يبتلعني الفراغ تمامًا، سمعتُ السؤال الأخير يتردد داخل روحي:

— ماذا لو كانت الحياة كلها مجرد سقوطٍ طويل... ؛ والموت ليس إلا ارتطامًا آخر؟

كرتي الثانية (٢١)

كانت السماء تسقطُ فوقِي حين وُلدتُ للمرة الثانية.

لا أتذكرُ اللحظة الأولى بدقة، لكنني أتذكرُ الرعب.

ذلك الرعب القديم الذي يشبه ذاكرةً أقدم من الجسد نفسه... ؛ كأنني كنتُ أعرفُ مسبقًا أن السقوطَ قدرٌ يتكرر، وأن الأرواح لا تهبطُ إلى الأرض إلا بعد أن تُطرد من مكانٍ أكثر نقاءً.

استيقظتُ عاريًا فوق أرضٍ موحلة، والريخُ تعوي حولي كذبيةٍ جائعة.

كان الليلُ كثيفًا إلى درجة أنني شعرتُ بأن الكون كله قد انطفأ، ولم يبقَ سوى عينيّن تراقبانني من مكانٍ بعيد.

لم أكن أملكُ اسمًا.

ولا ذاكرة.

ولا لغةً أفهمُ بها نفسي.

لكنّ جسدي كان يعرفُ أشياء لا يعرفها عقلي.

كلما نظرتُ إلى السماء اختنقتُ.

كان داخلي يرتجفُ كما يرتجفُ طفلٌ يتذكرُ لحظة سقوطه من يد أمّه.

كنتُ أخافُ المرتفعات دون سبب، وأرتعبُ من الطيور حين تحلّق عاليًا،
كانها رسلٌ جاءت لتعيدني إلى الهاوية التي هربتُ منها.

وجدتني بعد أيام وسط قبيلةٍ تعيشُ قرب غابةٍ سوداء.

رجالها عظامُ الوجوه، يطاردون الوحوش بالرماح الحجرية، ونساؤها
يخبزن الجذور المحروقة فوق النار كأنهنّ يطبخن أجزاءً من الأرض
نفسها.

كانوا ينادونني: “الهابط من السماء”.

في البداية ظننتُ أنهم يسخرون مني، لكنّ العجوز “أور”، وهو أقدم
رجال القبيلة، كان ينظر إليّ بخوفٍ حقيقي.

قال لي ذات ليلة، بينما كانت النارُ تلتهمُ عظام حيوانٍ ضخم:

— أنت لا تشبهنا... ؛ الذين يسقطون من الأعلى يحملون في أرواحهم
لعنة التذكّر.

سألته:

— وما الذي يجب أن أتذكره؟

حدّق طويلاً في النار، ثم همس:

— أن الحياة ليست سوى كرةٍ تتدحرجُ من موتٍ إلى موت.

لم أفهمه يومها.

لكنني بدأتُ أرى أشياء غريبة بعد ذلك.

في النوم، كانت تأتيني مدنٌ لا تشبه عالماً.

أبراجٌ من الضوء، ووجوهٌ شفافة، وكائناتٌ بلا أفواه تتحدث داخل رأسي.

كنت أرى نفسي أطيّر بين المجرات كرمادٍ مشتعل، ثم أسقط فجأة نحو الأرض مثل نيزكٍ مكسور.

وحين أستيقظ، أجدُ يدي ترتجفان.

ثم جاءت الحرب.

في البداية كانت مجرد شائعاتٍ عن قبائلٍ تقترب من النهر، لكنّ الدم يصل أسرع من الأخبار دائماً.

رأيتُ أول جثةٍ عند الفجر.

كان شاباً من قبيلتنا، ما تزال عيناه مفتوحتين بدهشةٍ طفولية، كأنه لم يفهم حتى اللحظة الأخيرة لماذا اخترق الرمح عنقه.

تركه الجميع حيث سقط.

في ذلك الزمن، لم يكن البشر يدفنون موتاهم.

كانوا يتركونهم للشمس والذئاب والرياح.

لكنّ الرائحة كانت تقتلني.

شيءٌ عميقٌ في داخلي كان يرفض أن يتحول الإنسان إلى طعام للحشرات.

وحين تمددت الديدان فوق وجه صديقي، شعرتُ بأنني أنا الذي أتعفن.

في الليل، حفرْتُ له قبراً بيدي.

كانت الأرض قاسية، وأظفري تنكسر، لكنني واصلتُ الحفر كأنني أنقذُ نفسي لا جثته.

حين انتهيت، ظهر “أور” خلفي فجأة.

قال وهو يراقب الجسد المدفون:

— الآن بدأت تتذكر.

سألته:

— أتذكر ماذا؟

قال:

— أنك كنت إنسانًا قبل أن تصبح وحشًا.

لكنّ الحرب تغيّر الجميع.

بعد أشهر، لم أعد الرجل نفسه.

تعلمتُ كيف أطعنُ بلا تردد.

كيف أسمعُ صراخ خصومي دون أن أرتجف.

كيف يتحول الدم، بعد اعتياد طويل، إلى لونٍ عادي.

كنتُ أعودُ من المعارك وجسدي يرتعشُ بنشوةٍ غامضة، كأن الموتَ
مخدرٌ سماوي.

وذاث يوم، بينما كنتُ أركضُ خلف رجلٍ من القبيلة المعادية، رفع حجرًا
ضخمًا وضربني به على رأسي.

سمعتُ صوتَ جمجمتي وهي تنشق.

ثم سقط العالم.

حين فتحتُ عيني، لم أكن على الأرض.

كنتُ معلقًا في فضاءٍ شاسع، والجثثُ تحتي تبدو كنقاطٍ سوداء بعيدة.

حولي كانت تتحركُ كائناتٌ من نور.

لم تكن تملكُ وجوهاً، لكنني شعرتُ بحزنها.

لمستُ رأسي بأيدي باردة، وفجأة عادت إليّ الذكريات دفعةً واحدة.

تذكرتُ أنني سقطتُ من قبل.

وعشتُ من قبل.

وقتلُ من قبل.

ومتُّ من قبل.

وأن الأرض ليست سوى محطةٍ تتكرر، بينما الروحُ تُلقى في كل مرة
داخل جسدٍ جديد، لتعيد أخطاءها نفسها بأسماءٍ مختلفة.

صرختُ:

— أريدُ أن أتوقف!

لكنَّ أحد الكائنات اقترب مني وقال بصوتٍ يشبه الموسيقى البعيدة:

— لا أحد يتوقف... ؛ الوعي لعنةٌ أبدية.

ثم حملوني نحو منطقةٍ مظلمةٍ في أطراف الكون.

كان الظلام هناك حيًّا.

يتنفس.

ينتظر.

شعرتُ بجسدي يتجمد ببطء، وبأفكاري تنطفئ واحدةً بعد أخرى.

وقبل أن أغيب تمامًا، سمعتُ الصوت نفسه يهمس:

— استعد... ؛ الكرة الثالثة تقترب.

ثم سقطت مجدداً نحو الأرض.

لحظة موت (٢٢)

اقتحم الغبار غرف الدار بلا استئذان، كأنه يعرف الطريق إلى صدري أكثر من الهواء نفسه.

في لحظات قليلة صار كل شيء رمادياً: الجدران، الأنفاس، وحتى الضوء الذي كان يتسلل من النافذة بدا متعباً، كأنه يزحف بدل أن يسقط.

لم أكن واقفاً على قدمي كما يجب، كنت أتمايل داخل جسدي كغريب فقد عنوانه.

دار بي البيت، أو ربما دارت بي الرئتان، لا فرق في زمن الاختناق.. , نوبات الربو كانت تعلن حضورها كجنود قدامى، يطرقون باب الصدر بلا رحمة، والدهر يضع يده على عنقي بصبر بارد.

قلت لنفسي إن عليّ أن أخرج.. , أي خروج، حتى لو كان إلى حدّ الفقد.. ؛ أوقفت سيارة أجرة في الشارع العام.. , كان السائق ينظر إليّ بسرعة، كأنه يفهم أن في صدري شيئاً لا يحتمل التأجيل.

قلت بصوت متقطع:

— إلى مستشفى ابن النفيس.

تحرك.. , لم يسأل كثيراً.. , وكأن السيارات تعرف أحياناً أنها لا تنقل جسداً فقط، بل تنقل شيئاً على حافة الانطفاء.

في الداخل، بدأت الأزمنة تتكسر.

الدقائق لم تعد دقائق.. , تمددت كأنها خيوط ضوء سقطت من عالم آخر..
؛ الشارع من النافذة صار شريطاً باهتاً، والوجه تمر كظلال لا تكتمل.

كل شيء كان يحدث ببطءٍ مريب، أو بسرعة لا يمكن إدراكها، كأن الزمن نفسه فقد توازنه أمام اختناقٍ بسيط في الرئة.

كنت أسمع أشياء لا علاقة لها بالسيارة: صوت البيت، ضحكات بعيدة، أسماء لم أعد متأكدًا أنها لي.. , حتى جسدي بدأ يبدو فكرةً قديمة، لا ضرورة لها الآن.

ثم جاء السؤال، كطعنة هادئة:

كيف أفعل كل هذا...؟ وأنا في غيبوبة وجودية محضة؟

لم يكن هناك جواب.. , فقط ذلك الإحساس بأنني أقف خارج نفسي، أراقب رجلاً يشبهني وهو يتهاوى ببطءٍ في الخارج .

عند المستشفى، تداخلت الوجوه: ممرضة، طبيبة، أصوات مستعجلة، أبواب تُفتح وتُغلق كأنها تحاول منع شيء من الهروب أو الدخول.. ؛ لكنني لم أعد في قلب المشهد تمامًا.. ؛ كنت على الحافة، حيث الصوت يصل متأخرًا، وحيث الألم لا يكتمل.

تدلت يداي بلا قرار، وتخشب قدامي، وجحظت عينايا كأنهما تبحثان عن تفسير أخير في الهواء.. ؛ كل ما كنت أعرفه يتراجع خطوة خطوة: الاسم، البيت، العمل، حتى فكرة "أنا".

وفي تلك اللحظة، لم يعد الجسد ملكي.

كان مسجى على سرير أبيض، مثقلًا بنوبات الربو وضربات الدهر، مستسلمًا إلى حدّ السكر.. ؛ أما أنا... , فكنت أعلى قليلاً، أو أبعد قليلاً، أراه - من عل - كما يرى شيء انتهى للتو دون أن يفهم لماذا.

لم أشعر بالحزن.. , ولا بالخوف.

فقط دهشة هائلة، كأنني أكتشف أن الحياة لم تكن سوى طريقة طويلة جدًا في التنفس... ؛ وأنها الآن، أخيرًا، توقفت.

لقاء العيون في زمن متشط (٢٣)

في مدينة لا تكف عن التبدل، كأنها فكرة لم تكتمل في ذهن إليه متعب، كان الزمن نفسه يجر أذياله كشيخ نسي معنى الاتجاه.

الشوارع مزدحمة بأجساد تمشي دون أن تصل، والوجوه معلقة بين يقينين: أن تكون موجودًا، أو أن تكون مرئيًا فقط دون أثر.

في ذلك اليوم، حين كان الهجير يضغط على الأرصفة ككف عملاقة تخنق الهواء، دخلت السوق كمن يدخل تجربة لا يعرف نهايتها... ؛ لم أكن أبحث عن شيء، بل عن شيء يبحث عني.

هناك، بين صراخ الباعة وتكسر الأصوات فوق بعضها كزجاج قديم، حدث الانفجار الصامت.

لم يكن صوتًا، بل نظرة.

تلاقت عيني بعينه.

وتوقف كل شيء.

لم يتجمد الزمن كما في الحكايات، بل انكسر... ؛ كأن الساعة الرملية لم تتوقف، بل انشطرت إلى رمال تطير عكس اتجاه السقوط... ؛ الناس حولنا صاروا ضبابًا وظيفيًا، خلفية باهتة لمشهد لا يرى نفسه إلا بنا.

كان هو واقفًا كأنه خرج لتوّه من فكرة لم تكتمل: ملامح هادئة، لكن في عينيه اضطراب بحجم محيط لا يعرف اليأس... ؛ نظرة لا تُحدّق فقط، بل تُعيد ترتيب الداخل... ؛ شعرت أنني لست أنا، بل نسخة قديمة مني تُعاد كتابتها أمامه.

وفي عينيه... كان هناك شيء يشبه الاعتراف، دون أن يُقال أي شيء.

كأننا التقينا قبل أن نولد، أو بعد أن انتهينا من الحياة ولم ننتبه.

اقتربنا.

خطوتي الأولى كانت كمن يسقط في هواءٍ كثيف، وخطوته نحوي كانت كقانون جذب لا يحتاج إلى تفسير... ؛ لم يكن المشي قرارًا، بل استسلامًا لشيء أقدم من الإرادة.

وحين صار بيننا متر واحد، لم نعد غرباء.

بل صرنا احتمالين لذات الروح.

قال بصوتٍ منخفض، كأنه يخاف أن يوقظ العالم:

— “أنت... كنتِ هنا قبل السوق؟”

ابتسمت دون أن أفهم السؤال، ثم أجبت كمن يقرأ نفسه لأول مرة:

— “بل السوق هو الذي تأخر عنا.”

ضحك... ؛ لم تكن ضحكة، بل ارتخاء جدارٍ داخلي ظل صامدًا طويلًا.

ثم حدث السلام.

لم يكن “السلام عليكم” جملة، بل طقسًا يتجاوز اللغة... ؛ كأن الكلمات خرجت من فمٍ آخر غير أفواهنا، محمّلة بشيء يشبه الضوء.

“السلام عليكم والنفحات القدسية والأنوار الجمالية...”

توقّف الباعة لحظةً دون أن يعرفوا لماذا... ؛ حتى الهواء بدا كأنه يستمع.

كان السلام هنا فعلَ اعترافٍ بوجود الآخر كحقيقةٍ مقدّسة، لا كمصادفة.

ثم تصافحنا.

لكن اليدين لم تتصافحا فقط.

كان ذلك التصافح بوابة.

حين لامست يده يدي، لم أشعر بالجلد، بل بتاريخٍ كاملٍ يُعاد ترتيبه... ؛
حرارةٌ ليست بشرية تمامًا، كأنها قادمة من مكانٍ لا يخضع لفيزياء
الجسد... ؛ ارتجف داخلي كوترٍ شدّ لأول مرة بعد صمتٍ طويل.

قال بصوتٍ أقرب إلى همس داخلي:

— “غريب... أشعر أنني أعرفك من فقدٍ قديم.”

أجبتُه:

— “وأنا أشعر أنني أبحث عنك منذ خطأٍ لم أعرف اسمه.”

اقترب أكثر.

لم تكن هناك قبلة واحدة، بل سلسلة من الانقطاعات الصغيرة في الواقع.

لمس شفثيه لجبيني لم يكن فعل حب فقط، بل محاولة إصلاحٍ لزمنٍ
مكسور... ؛ كل لمسة كانت تُعيد ترتيب الذاكرة، وتفتح أبوابًا لم نكن نعلم
أنها موجودة.

رائحةٌ غريبة انبعثت بيننا، ليست عطرًا ولا جسدًا، بل مزيج من بساتين
بعيدة وخرابٍ جميل، كأننا نستدعي تاريخًا لم يُكتب.

قالت عيناه:

“لا تضيعني.”

وقلتُ بعيني:

“لن أعود كما كنت.”

لم نكن نتحدث، لكننا كنا في أعلى درجات الحوار... ؛ الكلمات كانت زائدة، مثل ضجيج لا حاجة له حين تتكلم الأرواح.

حولنا، السوق استمر... ؛ لكننا كنا قد خرجنا منه دون أن نغادره.

ثم حدث ما يشبه الاتفاق غير المرئي.

أمسك يدي.

وفي اللحظة نفسها، لم نعد نمشي.

بل بدأنا “ننتقل”.

كانت خطواتنا تتحول إلى عبور بين طبقات الزمن: من السوق إلى ذاكرة السوق، من المكان إلى فكرة المكان، من الجسد إلى احتماله الآخر.

قال فجأة:

— “هل لديك محطة؟”

سألته:

— “محطة ماذا؟”

أجاب:

— “محطة المغادرة... أو محطة البقاء... لا فرق.”

ضحكت للمرة الأولى دون مقاومة:

— “أنا في الطريق إليها منذ عمري كله.”

فقال:

— “إذاً وصلنا.”

لكننا لم نكن في مكانٍ محدد.

كانت “المحطة” فكرةً تتجسد كلما آمنا بها: لا أرض، لا سقف، فقط لحظة معلقة بين ما نتركه وما لن نعود إليه.

هناك، فهمت أن الحب ليس لقاءً، بل انقطاعاً عن النسخة السابقة من الذات.

وأنا حين نحب، لا نكسب أحداً...

بل نخسر العالم.

حين بدأنا الابتعاد عن السوق، لم يكن الوداع حدثاً، بل انطفاءً بطيئاً للواقع من حولنا... ؛ الناس عادوا إلى ضجيجهم، لكننا كنا قد خرجنا من خريطة الضجيج.

قال لي وهو يمشي بجانبني:

— “لو اختفينا الآن، هل سيلاحظ أحد؟”

أجبت:

— “ربما سيشعرون فقط أن شيئاً ما أصبح ناقصاً دون أن يعرفوا ما هو.”

ابتسم.

ثم صمت.

وفي ذلك الصمت، كان هناك اعترافٌ كامل بأن ما يحدث ليس قصة حب عادية، بل خللٌ جميل في نظام العالم.

عند حافة المدينة، حيث يبدأ الغياب تدريجيًا، شعرتُ أن الجاذبية تخفت، كأن الأرض تراجع حقها فينا.

لم نعد نمشي على الأرض، بل على احتمالٍ هشّ.

قال:

— “أخاف أن نصبح حلمًا لشخصٍ متعب.”

أجبتُه:

— “وما الفرق؟ نحن بالفعل لا نعيش إلا في لحظة استيقاظ.”

ثم...

انفصلنا.

ليس فجأة، بل كما ينفصل الضوء عن مصدره دون أن يترك أثرًا مرئيًا.

كان يبتعد، وأنا أبتعد، لكن الاتجاه كان واحدًا بطريقة غير مفهومة: كنا نعود إلى مكانٍ لم نصل إليه بعد.

التفتُ إليه للمرة الأخيرة.

كانت عينيه تقول كل شيء، دون أن تقول شيئًا:

“سنلتقي في نسخة أخرى من الزمن.”

ثم اختفى.

أو ربما أنا الذي اختفيت.

لا فرق.

في تلك اللحظة فقط، فهمت أن اللقاء لم يكن بداية حب...

بل بداية فقد أكثر اتساعاً من القدرة على النسيان.

وأننا، في هذا الزمن المتشطي، لا نلتقي لنمتلك...

بل لنفهم أن كل ما نملكه، مؤقتٌ إلى حدّ الفجعة و الألم.

لواعج الغائب , نيران في القلب تأبى الانطفاء (٢٤)

في صباح بدا عاديًا أكثر مما ينبغي، استيقظ متأخرًا على رائحة القهوة الباردة وصوت عصفورٍ يضرب زجاج النافذة بعناد... ؛ نهض مترنحًا كمن خرج لتوّه من حلمٍ ثقيل، ثم جلس أمام الحديقة الصغيرة التي طالما أحبّها لأنها كانت تُشبهه: أزهارٌ جميلة، لكنها تنمو في عزلة.

رفع فنجانَه بيدٍ مرتجفة، وحين وقع بصره على الورد المبلل بندى الفجر، لمح وجهه هناك... ؛ ذلك الوجه الذي دخل حياته كنيزكٍ مضىء، فشقّ عتمته دفعةً واحدة، ثم استقر في قلبه كقدرٍ لا يُقاوم.

منذ لقائه الأول به، شعر أن شيئًا قديمًا عاد إليه... ؛ كأن روحه التي ظلت سنواتٍ تائهة في المنافى الداخلية، وجدت أخيرًا مرساتها.

لم يكن حبًا يشبه الحكايات العابرة، بل أشبه بانكشافٍ ميتافيزيقي؛ كأنهما كانا يعرفان بعضهما قبل الولادة، ثم افترقا في خطأٍ كوني، وجاء الزمن ليصلح ارتباكَه أخيرًا.

كان الغريب الوحيد الذي استطاع أن يهزم الجميع داخله.

تسلّل بهدوء إلى قلبه، ثم استولى على الأمكنة كلها: على أصدقائه، على عاداته، على وحدته التي كان يقدّسها.

صار حضوره يُسكّره أكثر من الخمر، وصوته يوقظ في جسده ينابيع من دفء نسيها منذ أعوام... ؛ ومعه، أصبحت الأيام خفيفة إلى درجة مخيفة، تمرّ كطيور مذعورة لا تترك خلفها سوى رفرقة في الذاكرة.

لكن ذلك الصباح... كان مختلفاً.

اتصل به كعادته.

الهاتف مغلق.

ابتسم أول الأمر... ؛ قال لنفسه إن النوم ربما سرقه، أو أن البطارية خانت كعادتها... ؛ أعاد الاتصال مرة، ثم عشرًا، ثم صار يضغط على الأرقام بعصبية من يحاول أن يمنع العالم من الانهيار.

الهاتف مغلق.

شيء بارد تسلل إلى قلبه.

ارتدى معطفه على عجل، وخرج إلى الشوارع التي كانت ما تزال تتثائب تحت ضوء الصباح... ؛ قصد شركة الاتصالات، سأل عن الرقم، عن الاسم، عن أي أثر يدل عليه... ؛ لكن الموظف حدّق طويلاً في الشاشة ثم قال ببرود:

“الخط غير مسجل بوثائق رسمية.”

شعر حينها أن الأرض فقدت صلابتها.

الإنسان الذي كان يعرف تفاصيل أنفاسه، الذي قبل خوفه قبل شفّته، الذي أعاد الحياة إلى جسده اليابس... ؛ لم يكن يملك وجوداً حقيقياً في الأوراق... ؛ كأنه خرج من فراغٍ ما، وأحبّه، ثم عاد إلى العدم فجأة.

راح يبحث عنه بجنون.

في المقاهي التي ضحكا فيها طويلاً.

في الأرصفة التي مشيا فوقها متشابكي الأصابع.

في الحديقة التي أخبره فيها ذات مساء أن الحب ليس إلا محاولة يائسة
لكي نهزم الموت.

لكنه لم يجده.

كان الغياب يزداد كثافة كل يوم، حتى صار كائنًا حيًا ينام قربه ويأكل
معه ويحدّق إليه من المرأة.

وفي الليل، بدأت الأحلام تتكاثر كالفاخ.

يراه جالسًا عند حافة سريريه، يبتسم بصمته الغامض، ثم يقترب منه
ببطء، حتى تختلط الأنفاس وتضيع الحدود بين الجسد والروح... ؛ كان
يستيقظ كل مرة مذعورًا، يمد يده نحو الفراغ، فلا يجد سوى برودة
الوسادة.

مرّت الشهور، لكنه لم يتعاف.

بعض الأشخاص لا يرحلون من حياتنا، بل يهاجرون إلى داخلنا.

صار يشعر أن ذلك الغائب يسكنه أكثر مما كان يفعل حين كان حاضرًا...
؛ يراه في المارة، في زجاج الحافلات، في الموسيقى البعيدة، وحتى في
النجوم التي تتدلى فوق المدينة مثل مصابيح حزينة.

كان أشبه بنسمةٍ عابرة دخلت حديقة روحه، فأيقظت الأزهار اليابسة، ثم
اختفت تاركَةً خلفها فوضى من العطر والحنين.

وحين حاول أن يتذكر ملامحه بدقة، كانت الصورة تتفتت كضباب... ,
لم يبقَ منه سوى أثر قبلاتٍ بريئة خافتة على الجسد، وارتجافٍ قديم في
القلب، وشعورٍ مريّر بأن أجمل الأشياء لا تبقى طويلاً لأنها خلقت أصلاً
لثقلت من أيدينا.

وفي إحدى الليالي، خرج إلى البحر.

كانت السماء مزدحمة بالنجوم، والموج يتكسر ببطءٍ كأن المحيط نفسه
متعب من الحنين... , رفع رأسه طويلاً نحو المجرة، وشعر فجأة أن
الكون كله ليس إلا مساحة شاسعة من الغياب؛ وأن البشر لا يفعلون شيئاً
سوى البحث عن أشخاصٍ خطفهم القدر منهم مبكراً.

همس باسمه بصوتٍ مبجوح.

ثم ابتسم لأول مرة منذ زمن.

فربما لم يكن الحب امتلاكاً، بل ذلك الجرح المضيء الذي يتركه شخصٌ
ما في أرواحنا، كي نتذكر أننا عشنا يوماً... حقاً.

ومنذ تلك الليلة، صار كلما رأى نجمةً تسقط، يعتقد أنها رسالة منه.

وكلما هبّ نسيمٌ بارد، أغمض عينيه كمن يستعد لعناقٍ مؤجل.

أما هو... فما يزال هناك، عند حافة المجرة، ينتظر اللقاء الذي تأخر
كثيراً.

عطر الجنّار (٢٥)

تربط عائلة الحاج مزاحم بعائلة العم خضير علاقة جوار قديمة تمتد إلى
أزقة محلات البصرة القديمة... ؛ كان أجداد العم خضير يسكنون في

الدار الملاصقة لدار أجداد الحاج مزاحم، وحفرت المياه والطين والملح قصتهما قبل أن يحفرها التاريخ ...

بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧، هاجرت العائلتان إلى بغداد واستقرتا في حي الشعب ... ؛ وفي سبعينيات القرن المنصرم، تمايز المساران: انخرط مزاحم في صفوف الحزب الشيوعي، بينما ذاب خضير في جماعات الدعوة الإسلامية السرية ...

كان الحاج مزاحم أصغر من العم خضير بثلاثة سنوات، لكن الزمن الجميل جعلهما معاً في مقاعد الدراسة الابتدائية ... ؛ تعلق مزاحم بخضير تعلق النخلة بجذورها، فكان يرى فيه الأخ الأكبر الذي لم تتجبه أمه ...

وفي إحدى ليالي عام ١٩٧٨، وتحت جنح الظلام، ألقى العم خضير محاضرة في منزل الحاج سلمان عن العدالة الاجتماعية في الإسلام ... ؛ وكان مزاحم من بين الحاضرين الذين لا يتجاوزون سبعة رجال، خائفين مرتعدين من عيون الأمن التي كانت ترصد كل تحرك ... ؛ تلك الليلة سمع مزاحم خضير يقول : العدل ليس شعاراً نرفعه، بل سكيناً نشهره في وجه الظالم ... ؛ والله لا يُغيّر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ؛ فالعدل أن تعطي الفقير حقه قبل أن يسأل، والحرية أن تقول كلمة الحق ولو بوجه الحاكم ... ؛ وأي مجتمع لا يقوم على العدل فهو أشبه بجثة تُلف بالحرير، تفوح منها رائحة الموت الكريهة وإن تزينت بالحرير ...

بعد المحاضرة، طوق مزاحم خضيراً واحتضنه بحرارة، وهمس في أذنه: «أنت أخي وأبي وأستاذي» ... ؛ ابتسم خضير بوجهه الأسمر ومسح على رأس مزاحم كأنه طفل صغير .

ثم جاءت محنة عقد الثمانينيات الدموي الاسود ... ؛ حيث اعتقلت السلطة الصدامية العم خضير بتهمة التدين والنشاط الديني ، وسُجن في سجن الامن العامة أربع سنوات كاملة ... ؛ كان مزاحم يزور أم خضير

كل جمعة، ويبكي معها بكاء الأطفال... ؛ وقد كتب قصيدة طويلة عنوانها
«روحي تريدك» حفظها أبناء الحي جيلًا بعد جيل ...

خرج خضير من السجن منهك الجسد، محطم الأسنان، لكن عينيّه بقيتا
تضيئان كالقنديل... ؛ وزاره مزاحم في بيته الصغير، ونظر إليه طويلاً
ثم انفجر باكياً: «لولا الله ثم أنت لكنت فقدت عقلي»... ؛ ضحك خضير
بمرارة: الظنون يا مزاحم أشد من اليقين ... هون عليك ؛ هل صرت
مؤمناً موحداً بسبب اعتقاله يا مزاحم !؟

وفي عام ١٩٩١، حين انتفض العراقيون، كان خضير في الصفوف
الأولى في ساحة أم الكروم ، بينما كان مزاحم يوزع المنشورات في
ساحة سعد ؛ اذ ذهباً معها الى البصرة ... ؛ سقط خضير شهيداً برصاص
عناصر الحرس الجمهوري والقصف المدفعي ... ؛ ولم يعثر على
جثمانه إلا بعد ثلاثة أيام تحت الأنقاض

دفنه مزاحم بيديه، وكتب على قبره: هنا يرقد الإنسان الكامل

وبعد سقوط النظام الاجرامي عام ٢٠٠٣ ، عاد مزاحم إلى البصرة ،
فوجد البيت القديم للعم خضير خالياً... ؛ وقف أمام بابه الخشبي ، وأخرج
من جيبه قنينه عطر جلنار كان قد اشتراها من سوق الكويت ... ؛ نثر
العطر على عتبة الباب، وجلس يبكي حتى جفت دموعه ...

بعد سنوات، حين زاره ابن أخيه من بغداد سالم ، أخرجه مزاحم من
البيت ومشى به الى النجف الاشرف ؛ إلى قبر العم خضير... ؛ جلسا
ساعة صامتة، ثم قال مزاحم :

تعلم يا بني ... ؛ الرجال لا يموتون عندما تغادر أرواحهم الأجساد، بل
عندما ننساهاهم... ؛ الشهيد العم خضير لم يموت، لأنه زرع في قلبي شجرة
لن تذبل ...

ونظر إلى السماء، وأكمل : ذات مرة سألت خضيراً: كيف تحب الله دون
أن تراه؟ فضحك وقال لي: هل رأيت الريح؟!

قلت: لا...

فقال: فكيف تعرف أنها موجودة؟!

قلت: من حركة الأشجار...

قال: هكذا الله... انظر إلى قلبك كيف يتحرك حين تذكره، تلك هي الريح الإلهية...

سكت مزاحم، ثم تنهد وقال: خضير كان الريح التي حركت غصون روعي...؛ ومنذ رحيله، لم تعد الأشجار تتحرك...

كانت قنينة عطر الجنار لا تزال معه، رغم مرور السنين...؛ فتحها وشم رائحتها، ثم أعطاه لابن أخيه: خذها... هذه رائحة البصرة القديمة، رائحة خضير، رائحة زمن كنا فيه إخوة قبل أن تكون الأديان والمذاهب سكاكين في ظهورنا...

سأله ابن أخيه: هل تظن أنك ستلقاه في الجنة؟

ابتسم مزاحم ابتسامة حزينة وقال: الجنة؟ يا بني...؛ الجنة أن تجلس مع من تحب ولو على قارعة طريق...؛ خضير لم يذهب إلى الجنة، بل الجنة هي التي ذهبت معه.

عشرون وجهاً في مرآة واحدة (٢٦)

في البدء كان الكائن نقياً، لم تلوّثه المعرفة بعد...؛ لم يكن في قلب إسماعيل غير بياض يشبه قميص المدرسة في صباحه الأول...

فقد نشأ إسماعيل في بيتٍ تحرسه السيرة قبل الجدران، وتظلّله وصايا الأباء كما تظلّل النخلة تمرورها في تموز...

كان يؤمن أن العالم مستقيم ما دامت القيم مستقيمة، وأن الشرف شجرة إن سقيت بماء الحياء أثمرت يقيناً لا يسقط ...

لكن المدينة لم تكن كما تخيلها في دقاته ...

كانت بغداد، بليلها المثقل ورطوبة أنهارها، تشبه مرآة مشروخة؛ كل من ينظر فيها يرى نفسه مقطعة إلى شظايا ...

هكذا فكر إسماعيل فيما مضى، قبل أن يكتشف أن النقاء نفسه هو أصل اللعنة... ؛ كان طفلاً حين ورث عن آبائه الهاشميين شريعة غير مكتوبة: الرجال كرامات تمشي على الأرض، والنساء أسرار يجب أن تدفن في البيوت، والعرض مرآة لا يبصق عليها أحد... ؛ نشأ في عالم مقفل على نفسه، كجوزة صلبة لا تعرف أن هناك عوالم أخرى تتفتح خارج قشرتها ...

على الرغم من أنه نشأ منذ طفولته نشأة سليمة، خالية من المشاكل والعقد النفسية والاجتماعية، إلا أنه صُدم بالمجتمع فيما بعد ... ؛ فقد رأى فيه مجتمعاً مريضاً مأزوماً، لا ينسجم مع قيمه ومبادئه التي اكتسبها من تربيته ومن جذوره الهاشمية الأصيلة ...

كان السيد إسماعيل شريفاً نزيهاً شجاعاً، رغم صغر سنه. وما إن دخل مرحلة المراهقة حتى بدت تلك السمات واضحة في شخصيته المتقدمة... ؛ نعم، دخل إسماعيل المراهقة، تلك المنطقة الحدودية حيث يلتقي الداخل بالخارج، حيث تبدأ الأسئلة بالتسلل كالنمل إلى العقل النائم ...

وفي أحد أحياء بغداد القديمة، في بيتٍ تلاصقت فيه الغرف كما تتلاصق الأسرار، بدأت الحكاية... ؛ حيّ يتنفس صخباً لا يشبه سكون بيتهم ... ؛ شاءت الأقدار أن يتزوج الأخ الأكبر للسيد إسماعيل، وهو السيد فاضل، شابة من حي الفضل كانت زميلته في الكلية... ؛ وقد أنجب منها ثلاثة أطفال فيما بعد ؛ إلا أن نادبة كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن عائلة السيد عبد العظيم؛ فهي من وادٍ وهم من وادٍ آخر

كانت تمشي كما لو أنّ الهواء يعرفها، وتضحك كما لو أنّ الجدران صديقاتها ...

ترى في الوقوف عند باب الدار فعلاً عادياً، ويراه إسماعيل شقاً في جدار السمعة ...

لم تكن المشكلة في الباب ... ؛ كان الباب مجرد خشب ... ؛ لكن إسماعيل كان يرى في الباب ثغرة يدخل منها العالم كله ... ؛ كبر داخله شعورٌ غامض بأن شيئاً ينفلت من بين أصابعه

كانت تخرج إلى باب الدار بين الحين والآخر، وتتنظر إلى المارة من الرجال والشباب، بحجة فتح الباب عندما يطرق، أو بذريعة مناداة الأطفال لتكليفهم بعمل ما ... ؛ بينما كان السادة معروفين بعدم خروج امرأة منهم قط ... ؛ وكذلك أغلب بيوت المنطقة لا تسمح للبنات والنساء بالوقوف أمام باب الدار، ولا بإخراج رؤوسهن من الباب الخارجي للنظر إلى الناس من دون حياء أو إطراق الرأس ...

كان السادة، بما فيهم السيد إسماعيل، يرون أن خروج المرأة من باب الدار ونظرها إلى الرجال عار يمس بسمعة المرأة وأهلها ... ؛ بينما كانت نادية ترى في ذلك سلوكاً طبيعياً لا علاقة له بالشرف والمكانة الاجتماعية ... ؛ فنساء وبنات حي الفضل في بغداد كنّ يخرجن إلى الشوارع العامة، فصلاً عن الجلوس أمام بيوتهن، بل في بعض الأحيان كن يتلفظن بألفاظ خادشة للحياء وكلمات فاحشة عندما ينشرب شجار بينهن بسبب الأطفال أو لأسباب أخرى ... ؛ وأغلبهن كنّ سافرات، لا يرتدين الحجاب ولا النقاب الإسلامي ولا الشيلة الجنوبية ولا الفراتية

تشاجر إسماعيل مع نادية، فاشتكت لزوجها ...

قالت: يا فاضل، إن أخاك الأصغر يتجاوز عليّ، وهذا تجاوز عليك ... ؛ فإن لم تردعه، سأترك البيت وأذهب إلى أهلي ...

رد فاضل: سوف أؤدبه وأجعله لا يعود لمثلها أبداً

وجاء فاضل كثور هائج إلى أخيه إسماعيل، ولطمه على وجهه قائلاً: ألا تستحي من نفسك حين تتشاجر مع امرأة أخيك؟!!

فرد إسماعيل بغضب وانفعال: الأولى أن تستحي هي من الخروج والوقوف بباب الدار...؛ فقد أصبحنا حكاية تلوكمها الألسن بسبب جمال زوجتك التي أضحت هدفاً للمارة...؛ فبعض الشباب صار يتقصد المرور من بيتنا، لعله يشاهد زوجتك الفاتنة...!!

ولى فاضل غاضباً ورجع إلى نادبة...

قال لها: احتشمي قليلاً...

ردت: ما بك يا فاضل؟ لا تكن متخلفاً...؛ لا يملأ عيني سواك، فلا تغار علي كما يفعل الهمج مع نساءهم...

سكت فاضل واقتنع بكلامها...

في حي الفضل، حيث ولدت نادبة، كانت النساء يمشين في الشوارع بحرية، ويتحدثن مع الرجال بلا خوف، ويتبادلن النكات الجريئة، ويتشاجرن بألفاظ لا تليق بـ “بنات الناس” حسب تعبير العلوية أم إسماعيل...؛ كانت نادبة ابنة ذلك الحي، ابنة الشارع المفتوح، ابنة الأرضة التي تعرف أقدام النساء كما تعرف أقدام الرجال...

و ذات يوم، رأى نادبة...؛ لم يرها كامرأة أخيه، بل رآها ككثقب في جدار بيته، نافذة غريبة تطل على عالم آخر لا يعرفه...؛ كانت تقف على باب الدار، تنظر إلى المارة، والناس ينظرون إليها، والعالم يدور من حولها وهي واقفة كتمثال لا يخص أحداً...؛ في تلك اللحظة، شعر إسماعيل بشيء غريب: بيته لم يعد حصناً منيعاً، بل صفيحاً مثقوباً تدخل منه الريح العاتية...؛ لم يكن يعرف بعد أن الريح ستصبح إعصاراً مدمراً....

المرأة التي لا تحتجب هي فكرة مكشوفة...؛ هكذا تعلم إسماعيل من آبائه، لكنه الآن يرى نادبة مكشوفة أمام عينيه، أمام جيرانهم، أمام

الشباب الذين صاروا يتقصّدون المرور ببيتهم كأنه محطة قطار... ؛ كانت تبتسم لهم أحياناً، وتحديثهم أحياناً بحجة السلام على الجيران ، وتمنحهم من وقتها ما لا تمنحه لبيتها بذريعة المجاملة العامة ... ؛ وفي المساء، كان فاضل يعود من عمله فيجد امرأته سعيدة، ويجد أخاه الصغير يحدق به كمن يرى شيئاً لا يراه هو ... ؛ كان فاضل أعمى بطبيعته ... ؛ كان فاضل -كمعظم الرجال السذج - يصدق أن الحب يكفي ، وأن امرأته لا ترى غيره، وأن الإيمان بالشريك يحصن العلاقة من كل شر... ؛ كان مسكيناً ككل من يظن أن النوايا الطيبة تحمي من الوحل ... ؛ أما إسماعيل، فكان يرى ؛ والرؤية لعنة... !!

عندما تزوجت فاضل، ظنت أنها انتقلت إلى عالم آخر، عالم مغلق كالقبر. كان بيت السادة هادئاً كالمقبرة، لا صوت فيه لامرأة، لا حركة في أبوابه، لا حياة ... ؛ربما لهذا كانت تخرج إلى باب الدار ... ؛ربما كانت تحاول التنفس .

وفي إحدى المرات، وبينما كان السيد إسماعيل عائداً من الثانوية، إذ به يرى جاره الشاب محمد وهو يؤشر بيديه إلى زوجة أخيه نادية، التي كانت كعادتها واقفة بباب الدار بحجة مناداة الأطفال، وكانت تنظر إلى جهة محمد وتبتسم له ابتسامة خفية لا يعرفها إلا من خبر هذه القصص... ؛ وعندما رأى محمد إسماعيل، أدار وجهه عنها مكرهاً وكان شيئاً لم يكن... ؛ ودخلت نادبة إلى الدار فوراً .

ربما كانت تحاول أن تتذكر أنها لا تزال امرأة، لا تزال حية، لا تزال موجودة ... وهكذا، حين رأت محمد يشير إليها من بعيد، رأت فيه الحياة التي تركتها خلفها، رأت فيه حي الفضل الذي هجرته ، وتذكرت عشيق الصبا جارها نذير الوسيم ، رأت فيه نفسها قبل أن تصبح زوجة سيد محترم ... ؛كان محمد نافذتها الأخيرة على عالم كانت تظن أنها فقدته إلى الأبد...

نصفُ يريد أن ينسى ،ونصفُ يريد أن يعاقب. : ومن تلك اللحظة، انقسم قلبه نصفين

في الليل، حين نامت البيوت، كان إسماعيل يسهر مع ظلاله ...؛ وأضرع إسماعيل ما رأى في نفسه، وجعل من محمد هدفاً وثأراً يجب الأخذ به... ؛ ومن هنا بدأت سلسلة العداوات للسيد إسماعيل ...

كان يتخيّل الشرف طائراً أبيض يحوم فوق السطح، وكلّ ابتسامةٍ سهمٍ أسود يصيبه

و ذات ليلةٍ باردة، قرّر أن ينتقم من الطائر لا من السهم ...؛ وبعد التخطيط، قرر إسماعيل القفز إلى بيت جارهم محمد وتسميم طيوره ...؛ إذ كان محمد مطيرجياً ويمتلك طيوراً غالية الثمن... ؛ وقف إسماعيل تحت سماء شتوية مليدة بالغيوم، ينثر حبات القمح المسمومة كمن يزرع الموت... ؛ كان الحمام نائماً في برجه، غافلاً عن أن الطعام الذي سيأكله عند الفجر سيكون آخر وجبة في حياته... ؛ لم يكن إسماعيل يكره الحمام ... ؛ بل كان يكرمه بطريقة غريبة: الحمام طيور نادية أيضاً، طيور ترفرف في السماء ولا تحتجب، طيور تنظر إلى كل الجهات ولا تخاف الفضيحة... ؛ كان يقتل الحمام لأنه لا يستطيع قتل من يملكها !!!

وبعد أن نثر إسماعيل الحنطة المسمومة في برج الطيور عند منتصف الليل، رجع إلى بيته... ؛ وما إن أصبح الصباح حتى ارتفع صراخ محمد في الأرجاء، يهدد ويتوعد من قام بهذا العمل، ويتلفظ بأفحش الألفاظ، فقد نفقت جميع طيوره البالغة ستة وخمسين طيراً...؛ نعم، ستة وخمسون طائراً سقطت دفعةً واحدة؛ أما إسماعيل، فسقط أول مرةٍ من داخله، لكنه لم يعترف .

جن جنون محمد، إلا أنه لم يشك في السيد إسماعيل، فقد كان متديناً مسالماً وبعيداً كل البعد عن عالم الطيور... ؛ فقد ساوره الشك بمجموعة من المطيرجية من أبناء المنطقة ... ؛ وقف إسماعيل بين المتفرجين يتفرس في وجه الجاني المحتمل، وهو يعرف أنه الجاني، ويعرف أن لا

أحد سيعرف ... ؛ كانت أول مرة يذوق فيها طعم القتل بالوكالة ؛ لذة لا توصف .

وفي أحد الأيام، وبينما كان محمد على السطح كعادته أمام برج الحمام، رأى نادبة على السطح تنشر الغسيل، فسلم عليها، فردت السلام مع تبادل الابتسامات، ثم نزلت بسرعة ... ؛ وهكذا استمر الحال ... ؛ وفي أحد الأيام، وبينما كان الاثنان على السطح، قدم محمد هدية إلى نادبة، وهي محبس من ذهب غالي الثمن، فقبلت الهدية ... ؛ وتوطدت العلاقة بينهما ... ؛ وكانت نادبة تنتظر خروج زوجها فاضل إلى العمل، وخروج بقية أخوته بما فيهم السيد إسماعيل إلى المدارس، وذهاب عمتهما إلى السوق ... ؛ عندها، وعندما يخلو البيت، تصعد إلى السطح الساعة العاشرة صباحاً بحجة نشر الغسيل ... ؛ وفي أحد الأيام حدث ما لا يمكن إصلاحه، اذ قفز محمد إلى سطح السادة وراود نادبة عن نفسها، ثم قبلها قبلاً حارة ... ؛ بعدها، أحضرت نادبة فراشاً إلى السطح، ومارسا الجنس معاً في وضح النهار ... ؛ ولم يكتف محمد بمرة ولا مرتين، فقد نكحها أربع مرات متتالية ... ؛ وبعد الانتهاء، هرولت نادبة إلى داخل البيت ودخلت الحمام لتخفي آثار الجريمة ... ؛ ثم اعتاد محمد القفز كالقطط بين السطوح بين الحين والآخر ، ونادبة تنتظره بفراش مطوي تحت ذراعها كالعادة ... ؛ وبعد كل مرة، كانت نادبة تنزل بسرعة إلى الحمام، تغسل جسدها من آثار الخطيئة، ثم ترتدي ثياب الطهارة وتستقبل زوجها عند المساء كأن شيئاً لم يكن ... ؛ كانت تمارس الانفصام كفن

ما حدث هناك لم يكن جنساً فقط، بل كان احتفالاً بالتححرر من كل شيء: من البيت، من العائلة، من الشريعة، من إسماعيل نفسه الذي كان في المدرسة يتعلم قواعد اللغة العربية ولا يدري أن امرأة أخيه تتعلم لغة أخرى على سطح بيته ...

الشك نار تأكل العقل من الداخل ...

بدأ إسماعيل يشم رائحة غريبة في البيت، رائحة لا تشبه رائحة العائلة... ثم لاحظ تغير حركات الأطفال، وطريقة أكلهم، وضحكاتهم المفاجئة... ثم لاحظ غضب نادبة السريع، وهدوئها الغريب، وابتساماتها التي لم تكن موجهة لأحد في البيت...

كان يراقبها كمن يقرأ رواية بوليسية، كل صفحة تكشف جريمة جديدة، وكل جريمة تؤكد أن البطل الذي يبحث عن الحقيقة هو نفسه الضحية... ولم يكن يعرف بعد أن الرواية ستنتهي به قاتلاً...!!

وصار محمد يعطي النقود لأطفال نادبة... وفي إحدى المرات، رأى السيد إسماعيل محمداً وهو يعطي النقود للأطفال، فذهب إليه غاضباً: “من قال لك أن تعطي أطفالنا نقوداً؟ فلسنا محتاجين لأحد! وماذا تقصد من وراء ذلك؟”

رد محمد: سيدنا، حق الجار على الجار، وأطفالكم أعمالهم معاملة أطفالنا، فنحن أهل وجيران...

رد إسماعيل: “لا تكرر هذا الأمر مرة أخرى، وإلا سوف تقدم، وقد أعذر من أنذر...”

تشاجرت نادبة مع زوجها فاضل وذهبت زعلانة إلى بيت أهلها في منطقة الفضل... وهناك كان بانتظارها عشيق الصبا نذير، راودها عن نفسها فأطاعته، ذهبت معه إلى شقة باب المعظم، تلك الشقة التي كانت مختبراً للخطيئة: فيها يشرب الرجال الخمر، ويلعبون القمار، ويمارسون الدعارة كأنها مهنة كباقي المهن... وفي تلك الغرفة، على سرير يعرف مئات الأجساد، عادت نادبة إلى نذير، إلى الماضي، إلى نفسها القديمة... حيث مارس نذير الجنس معها مرتين... وقد عرف بعض شباب المنطقة بالأمر وشاعت القصة بين اصدقاء نذير... كان نذير ذاكرة الجسد، أول من فتح لها باب الملذات، أول من جعلها تعرف أن الجنس ليس واجباً زوجياً بل لذة يمكن أن تطلب وتنتظر وتذكر مراحب الصبا... عندما هربت إلى بيت أهلها بعد مشاجرة مع فاضل، كان نذير في

انتظارها كالقدر المحتوم؛ وصدق من انشد قائلاً : ما الحب إلا للحبيب الأول ...

وكان للسيد إسماعيل صديق وفي في حي الكفاح بالقرب من الفضل، فطلب منه أن يسأل عن امرأة اسمها نادية بنت فضولي، ولم يخبره بأنها زوجة أخيه...؛ وبعد ثلاثة أيام، التقى السيد إسماعيل بصديقه فراس الكردي ...

قال فراس: هذه المرأة لها علاقة بالشاب نذير بن منيرة الحفافة، وهو يمارس الجنس معها منذ كانت صبية، وقبل أن تتزوج رجلاً سيّداً من منطقة العبيدي...

هنا صُنع إسماعيل وكأنه رُمي من علٍ في وادٍ سحيق ...

وقال لفراس: أنت متأكد مما تقول؟

فرد فراس: هل تريد أن أثبت لك ذلك؟ تعال وسأخبرك متى يأخذها نذير إلى شقته الكائنة في باب المعظم ...

فرد إسماعيل: لا داعي لذلك

فرد فراس: لماذا تسأل عن نادية؟ ما علاقتك بها؟

رد إسماعيل: مجرد إعجاب بها .

قهقه فراس: نعم، إنها جميلة تستحق التعجب .

صار السيد إسماعيل يذهب إلى حي الفضل ويراقب من بعيد وهو متتكر، يرتدي قبعة ونظارات لئلا يتعرف عليه أحد...؛ وقد شاهد نذير ونادية في أحد الأيام، وتابعهما فإذا بهما يذهبان إلى شقة في باب المعظم، في إحدى العمارات التي توجد فيها شقق لشرب الخمر ولعب القمار وممارسة الدعارة ...

وبعد أن تأكد ورأى بعينه خيانة نادبة، قرر أن يكون نذير الهدف الثاني في سلسلة الأعداء الذين يجب أخذ الثأر منهم... ؛ فراقب نذيراً مراقبة شديدة، وكذلك راقب العمارة والشقة... ؛ وفي إحدى الليالي المظلمة، وبينما كان الشارع يخلو من المارة عند منتصف الليل، خرج نذير وهو سكران حد الثمالة، يترنح في مشيته لا يميز شيئاً... ؛ وفي هذه الأثناء، انقض عليه إسماعيل انقضاض الذئب على الفريسة، فضربه بالسكين ثلاث ضربات في خاصرته، فسقط نذير أرضاً وهو ينزف، وولى إسماعيل هارباً...

عندما علم إسماعيل بخيانة نادبة مع نذير، لم يعد يغضب كإنسان، بل كفكرة... ؛ الفكرة المجردة التي تكتشف أن الواقع يخونها... ؛ كان قد بنى حياته كلها على مبدأ: المرأة إما طاهرة أو عاهرة. لم يكن في قاموسه مساحات رمادية، لا تدرجات، لا حالات وسطى... ؛ وعندما اكتشف أن نادبة ليست طاهرة، انتقلت في عقله مباشرة إلى خانة العاهرات، ومن هناك إلى خانة (يجب أن تموت) لكن الموت لم يكن حلاً سهلاً...

كانت نادبة تأكل مع الجميع، لا تنفرد بطعام، لا تشرب وحدها. حاول تسميمها ففشل... ؛ حاول دفعها إلى الانتحار معنوياً فلم تبال. حاول أن يجعل أخاه يطلقها فلم يستطع... ؛ كانت نادبة أقوى منه بطريقتها... ؛ كانت تفلت منه كل مرة، كالماء بين الأصابع... !!

بعد ثلاثة أشهر، رجعت نادبة إلى بيت السادة... ؛ لم يذهب بعدها إسماعيل إلى تلك المنطقة، ولم يسأل عن مصير نذير كي لا يثير الشكوك حوله، فهو يعلم علم اليقين أن الناس تعرف المجرم بسهولة من خلال أسئلته ودورانه حول مكان الجريمة... ؛ لذا قرر الاختفاء وعدم تتبع الأمر، وكأنه اكتفى بهذه الطعنات الثلاث...

صار السيد إسماعيل ينظر إلى نادبة شزراً وكأنه يريد شرب دمها... ؛ إلا أن مراعاته لمشاعر أخيه وحسابه لحال أبناء أخيه كانا يجعله يتراجع

عن الإقدام على أي فعل طائش قد لا تحمد عواقبه... ؛ فهو يضع نصب عينيه سمعته وسمعته أهله...

وتذكر نصيحة أحد الشيوخ الذي نصح شاباً أراد قتل أخته التي رآها تمارس الجنس مع شخص غريب، ثم تردد فذهب إلى أحد شيوخ الدين يسأله عن ذلك... ؛ فرد الشيخ عليه قائلاً: “الكثير منا يمارس الزنا، نساءً ورجالاً، لكن المفضوحين منا بهذا العمل قليل جداً، والذين قتلوا بسبب هذه الفعلة أقل بكثير... ؛ إلا أن الذين قتلوا بسبب فعل الزنا صاروا عاراً تعير به الأجيال، وحكاية على كل لسان، وكأن الآخرين لم يمارسوا الزنا طوال حياتهم سوى هذه المسكينة المقتولة أو ذلك الشاب المقتول... ؛ وعليه، لا تفضح نفسك بيدك، فلو قتلتها ستصبح أسطورة للأولين والآخرين، وتعير بها أنت وابنك وحفيدك... ؛ بينما لو سترتها، قد لا يعلم بالأمر سواك وهي والغريب فقط... ؛ فلا تنهور فتصبح حكاية على الألسن، وعندها حتى الزاني والزانية بل والمشهورة بالزنا يعيرونك بأختك؟! ”

كل هذه الأفكار كانت تجوب عقل إسماعيل وتعتلج في صدره، حتى قرر محاولة سترها، إلا أنه حاول مراراً وتكراراً أن يدبر أمراً سرياً ، لكنه فشل في ذلك

دخل إسماعيل في إحدى المرات إلى بيتهم، فقد رجع من الدوام مبكراً على غير عادته... ؛ وبينما دخل، إذا به يرى زوج أخته قحطان عندهم، يجلس بالقرب من نادبة بوضع مريب... ؛ فما إن رآه حتى ارتبك قحطان، وهي كذلك، انتابهما القلق والاضطراب ...

فقال له إسماعيل: أين أختي خديجة؟ لماذا جئت وحدك؟! ”

فقال:جئت لأطمئن على عمتي أمك، فقد قيل لي إنها مريضة

صار إسماعيل يشك بالجميع بسبب نادبة ...؛ وشاءت الأقدار أن تموت أم السيد إسماعيل وتلتحق بالملا الأعلى، فهي امرأة كبيرة بالسن ومريضة...؛ وبعد انتهاء مراسيم العزاء ومرور أربعين يوماً على وفاتها، قرر فاضل أن تقوم زوجته نادبة بالتسوق من السوق بدلاً عن أمه المرحومة ...

ثم جاء القصاب حسوني :

بدأت نادبة بالذهاب إلى السوق، وصارت تتأخر هناك بحجة التسوق...؛ وفي أحد الأيام، وبينما إسماعيل في السوق، جاءت زوجة أخيه وذهبت إلى القصاب الشاب المدعو حسوني، وتبادلا التحايا وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن طويل ...؛ فسأل إسماعيل أحدهم عن علاقة القصاب حسوني بتلك المرأة، فرد عليه وبلا اكتراث: إنه ينكحها مقابل أن يعطيها كيلو لحم مجاناً...!!

حسوني كان مختلفاً عن محمد ونذير...؛ لم يكن عاشقاً، ولا حبيب صبا، ولا جاراً وسيماً...؛ كان شاباً قوياً رياضياً، قصاباً في السوق، يبادل اللحم بالجنس كأي سلعة تجارية...؛ معه، وصلت نادبة إلى أخفض نقطة في هبوطها، أو ربما إلى أعلى نقطة في تحررها، حسب الزاوية التي تنظر منها ...؛ كيلو لحم مجاناً مقابل جسدها...!!

انتظر إسماعيل، فرأى نادبة تذهب لتتبع من دكاكين السوق، ثم رجعت أخيراً إلى القصاب حسوني، فأشار إليها وتبعته اتباع الفصيل أثر أمه، ودخلت معه إلى إحدى المحلات...؛ وبعد أن دخلا، أغلق حسوني باب المحل...؛ وبعد عشرين دقيقة، خرجت نادبة وقد احمرت وجنتاها...؛ تطرق ببصرها إلى الأرض وتمشي بخطوات متناقلة...؛ بينما خرج وراءها حسوني وهو منتش ويمشي بزهو كالطاووس، وذهب كل منهما إلى حاله...!!

هنا دخل حسوني إلى قائمة التصفيات والثأر...؛ فقد جمع إسماعيل معلومات كاملة عنه...؛ وفي إحدى الليالي، وبينما كان حارس السوق

نائماً، قام إسماعيل بجلب قناتي بنزين وسكبها على محلات حسوني،
وأشعل النار فيها حتى غدت كالعصف المأكول، وأضحت أثراً بعد عين
...

أحرق محل حسوني في تلك الليلة، وراه يحترق كجسد نادبة الذي تخيله
يحترق في نار جهنم ...

وهكذا استمرت العملية، حتى أحصى السيد إسماعيل عدد الزناة بعشرين
شخصاً... .

لم يكن يرى في الرجال الذين اقتربوا من نادبة سوى ذناب ...

لم يسأل نفسه: من فتح الباب أولاً؟

الذنوب ... أم الرغبة؟

عندها تعب من المطاردة وأخذ الثأر؛ تعب من المتابعة، من السكاكين،
من رائحة البنزين، من العيون التي يشكّ فيها حتى وإن كانت بريئة،
وعلم أن الخل فيه لا في الزناة، وأن الغلط محصور بزوجة أخيه نادبة،
ولا علاقة للشباب بالأمر، إذ لم يغتصب أحدهم نادبة ولم يجبرها على
السفاح أبداً ...؛ واكتشف متأخراً أن معركته لم تكن مع الرجال ... بل مع
صورة صنعها في رأسه عن الشرف، ثم وضعها فوق أعناق الناس كحدّ
السيف ...؛ وعندما نظر إلى صور ضحاياه، وجدهم أنبل من العاهرة
نادبة بكثير ...!!

كانوا شباباً عاديين، بعضهم وسيم، بعضهم قبيح، بعضهم غني، بعضهم
فقير ...؛ كانوا بشراً يخطئون ويذنبون ويطلبون المتعة حيث يجدونها...
؛ كانوا أنذالاً بموازينهم، لكنهم لم يكونوا مغتصبين ...

الآن، بعضهم مات، وبعضهم شرد، وبعضهم فقد تجارته وبيته وسمعته،
وبعضهم تآذى مادياً ...؛ وكل ذلك لأن امرأة واحدة قررت أن تفتح
ساقها لمن تشاء

فجأة، سأل نفسه السؤال الذي لم يسأله من قبل ... ؛لماذا هي المذنبة وحدها؟!!

كانوا مجرد رجال استجابوا لنداء امرأة، امرأة واحدة، امرأة كانت تبحث عن نفسها في أجسادهم، امرأة كانت تحاول أن تثبت لنفسها أنها لا تزال حية، امرأة كانت ضحية مثلهم تماماً، ضحية جسدها، ضحية رغبتها، ضحية مجتمع علمها أن الجسد إما شرف أو عار، لا شيء بينهما...

كان إسماعيل وإياها وجهين لعملة واحدة: كلاهما ضحية شريعة لا تعترف بالرماديات، شريعة تقسم النساء إلى طاهرات وعاهرات، والرجال إلى شرفاء وخونة، ولا تترك مساحة للبشر لأن يكونوا مجرد بشر...

في تلك الليلة، رأى حلماً غريباً...؛ كان يحمل امرأة كبيرة ويكسر بها وجوه المدينة...؛ لكن كل شظية كانت تعكس وجهه هو...

استيقظ مذعوراً...؛ فهم أخيراً أن الشرف لا يُحمى بالدم، ولا تُغسل السمعة بالنار، ولا يُرمم البيت بهدم بيوت الآخرين...

عند الفجر، وقف إسماعيل على سطح البيت...؛ نفس السطح الذي رأى عليه نادبة تنشر الغسيل، نفس السطح الذي كان محمد يقفز عليه...؛ السطح الذي شهد أول خطيئة في بيته...؛ الآن، السطح خالٍ: لا حمام، لا غسيل، لا نادبة، لا محمد...؛ فقط هو، والشمس تشرق من وراء دجلة، والمدينة تستيقظ على صرخات الباعة ونداءات المؤذنين واصوات محركات السيارات والمولدات الكهربائية الاهلية...

نظر إلى الأفق البعيد، إلى حيث يلتقي النهر بالسماء، وتذكر كلمات الشيخ الأخيرة: لا تفصح نفسك بيدك... .

نزل من السطح بخطى ثقيلة ... ؛ دخل غرفته، وجمع صور ضحاياه، وأحرقها كلها في منقل صغير كان يستعمله للتدفئة ...

نظر إلى الرماد، وتذكر أن رماد نادية سيكون هكذا يوماً ما، رماداً لا يفرق بين طاهرة وعاهرة، رماداً لا يعترف بالشرف ولا بالعار، رماداً يساوي بين الجميع ...

أخرج من الدرج مسدساً ... ؛ وضع الفوهة في فمه، ثم ضغط على الزناد ... ؛ وتناثر رأسه ... نعى الاثير رحيل اسماعيل، ونهضت نادية من الفراش وهي تركض نحو غرفته ... ؛ صرخت وبكت دما بدل الدموع ... ؛ وكأنها تنعى الطهر الذي تننشه في عالم اخر ...

لم يكن ميتاً، كان شيئاً آخر ... ؛ كان قد عبر إلى الضفة الأخرى، حيث لا شرف ولا عار، حيث لا طاهرة ولا عاهرة، حيث لا قاتل ولا قتيل ... ؛ حيث الإنسان مجرد إنسان .

وكانت شمس بغداد تشرق كعادتها، لا تبالي بمن يموت فيها ولا بمن يولد، لا تبالي بالطاهرات ولا بالعاهرات، لا تبالي بالشرفاء ولا بالقتلة ... ؛ بغداد تشرق فقط...!!

تشرق كأن لا شيء حدث ... ؛ وكأن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد .

عرس مؤجل إلى الأبد (٢٧)

لم يكن محمد وشيماء مجرد اسمين يُذكران في مجالس العائلة كاحتمالٍ مؤجل، بل كانا مشروع حياةٍ مكتوباً بخط الأهل قبل أن يعرفا كيف يكتبان اسميهما.

نشأ كأنهما شقان لنفس الجدار: متقابلان، متجاوران، وبينهما مسافة صغيرة تكفي لتمرر فيها النظرات ما لا تقوله الألسن.

في الطفولة، لم يكن الحب حباً بعد؛ كان عادةً ناعمة: أن يختار أحدهما الجهة نفسها التي يختارها الآخر، أن يضحكا على السبب نفسه، أن يصمتا في اللحظة ذاتها... ؛ ومع الوقت صار الصمت بينهما لغة كاملة، أكثر صدقاً من أي وعد.

العائلة، بثقة اجتماعية قديمة، كانت تقول:

“هذان لبعضهما... عندما يكبران فقط.”

لكن “عندما” كانت كلمة خادعة، تبدو بريئة لكنها تحمل في داخلها فخ الزمن.

كبر الاثنان، لا كخط مستقيم، بل كشيء يلتفت على نفسه، كحلزون يجزّ ذاكرته خلفه.

محمد صار أكثر هدوءاً مما ينبغي لشاب، وشيماء أكثر يقظة مما تحتمل فتاة... ؛ كانا يعرفان أن ما بينهما ليس صداقة، لكنه أيضاً لم يصل إلى اسمه الأخير بعد.

كان يكفي أن يلتقيا في غرفة واحدة حتى يتغيّر الهواء.. , لا حديث طويل، فقط جمل قصيرة تتعثر قبل أن تكتمل:

قال محمد ذات مساء:

“لو أن الأشياء تُترك لحالها... لكأنت اكتملت منذ زمن.”

فأجابت شيماء وهي تنظر إلى الأرض:

“لكنها لا تُترك.”

لم يسأل: من الذي لا يتركها؟ كان الجواب واضحاً أكثر من اللازم.

جاء الموت أولاً كضربة جانبية لا تبدو موجهة إليهما، لكنه كان يعرف طريقهما جيداً.

مات عمّ محمد، والد شيماء... ؛ وهكذا سقط الحلم الأول، ليس كفكرة، بل كجنازة تمرّ بينهما... ؛ ففي ذلك اليوم، لم يبكيها فقط على الرجل، بل بكيا على شيء لم يولد بعد.

قال الناس: “هذه ظروف... التأجيل حكمة.”

لكن محمد فهمها بطريقة أخرى:

“هناك شيء لا يريد لنا أن نصل.”

ومرّ وقتٌ آخر، ثم جاء فقدٌ ثانٍ، كأنه يؤكد القاعدة.. هذه المرة كان أقرب، أكثر فظاعة في تفاصيله: والد محمد، عمّ شيماء.. صار الموت كأنه يختبرهما: كلما اقتربا خطوة، أخذ شيئاً من الطريق.

بدأت شيماء تشعر أن الفرح ليس غياب الحزن، بل شكله المؤجل.. وأن كل فكرة جميلة تمرّ في رأسها تترك خلفها أثر حدادٍ خفيف، لا يُرى لكنه يُحس.

محمد، من جهته، صار أكثر صمّاً.. لم يعد يتحدث عن “البيت القادم وعش الزوجية”، بل عن “ما يمكن أن يحدث قبل أن يصل”.

ثم جاء حسين.

طفل صغير، ابن أختها، لم يتجاوز سنواته الأولى، لكنه احتل قلبها بطريقة لا تفسّر لها اللغة... ؛ كانت تحمله كأنها تعتذر منه عن العالم.. كان يضحك بلا سبب، وهي تراقبه كأنها تراقب الحياة وهي تُمنح مجاًناً قبل أن تُسحب.

وفجأة، سُحب.

موته لم يكن حدثاً فقط، بل كسرّاً داخلياً صامتاً.. شيماء لم تصرخ، لم تنهز أمام أحد، لكنها في الداخل شعرت كأن شيئاً لم يعد يصلح للإصلاح.

ففي كل مرة يتأجل موعد الزفاف بكارثة .

قالت لمحمد في تلك الليلة:

“كل شيء يقترب منا... ثم يموت.”

فأجابها:

“ربما نحن المكان الخطأ للأشياء الجميلة.”

لم يكن كلامه فلسفة، كان اعترافاً بالخوف.

حين قررا الزواج أخيراً، لم يكن القرار فرحاً بقدر ما كان تحدياً... ؛
كأنهما يقولان للحياة: سنفعلها رغمك، لا لأننا مطمئنون، بل لأننا تعبنا
من الاحتمال والترقب .

لم يكن عرساً بالمعنى المعروف.. , كان شيئاً أقرب إلى إعلان سرّي عن
نجاه مؤقتة.

فندق متواضع في الكاظمية.. , جدران تعرف الصمت أكثر مما تعرف
الموسيقى... ؛ جاء القليل من الأقارب، أولئك الذين يشبه حضورهم
اعترافاً بأن الفرح ممكن، حتى لو كان هشاً.

قال أحدهم:

“الله يتمم بخير...”

لكن الجملة كانت تبدو كأنها تُقال على استحياء، وكأن الدعاء لم يعد واثقاً
من نفسه.

دخل محمد الفندق كمن يدخل اختباراً لا يعرف قواعده... ؛ كل شيء بدا
عاديّاً: الممر، الأبواب، الإضاءة الخافتة... , لكن داخله كان هناك
صوت غير مسموع يقول: لا تكمل.

عند باب الغرفة، توقف.. , وضع يده على المقبض.

وفي تلك اللحظة، حدث شيء لم يره أحد من الخارج.

كان جسده قرر أن يتخلى عنه.

سقط.

لم يكن سقوطاً درامياً، بل هادئاً بشكل يثير الدهول... ؛ و كأن الموت لم يحتج إلى ضجيج هذه المرة، فقط دخل وجلس مكانه.

لم تصرخ شيماء.

الصوت لم يجد طريقه.

وقفت، تنظر إليه، كأنها تحاول أن تفهم إن كان هذا جزءاً من الحفل أم نهايته.

الفستان الأبيض الذي كان يفترض أن يكون وعداً، صار فجأة وثيقة غياب. الموسيقى التي لم تُعزف كانت أعلى من أي صوت.

اقترب أحدهم، ابتعد آخر، لكن أحداً لم يقترب من الحقيقة.

في تلك اللحظة، لم يمت محمد فقط.

بل مات احتمال الحياة الذي كان يمكن أن يحدث بينهما.

صار العرس فكرة بلا زمن، والحب كائنًا عالقًا بين البداية التي لم تكتمل والنهاية التي جاءت مبكرًا جدًا.

أما شيماء، فبقيت واقفة في منتصف المعنى:

لا هي عروس،

ولا هي أرملة كاملة التعريف،

بل شيء ثالث لا اسم له.

لاحقاً، حين يحاول الناس رواية القصة، يقولون:

“كان هناك عرس لم يكتمل.”

لكن الحقيقة أعمق وأقسى:

لم يكن عرساً لم يكتمل...

بل كان حياة كاملة أُجّلت حتى اختفت.

نعم، لم تصرخ شيماء...؛ كان الصمت أكبر من الصوت...!!

صار الفستان شاهداً، والمفتاح رمزاً، والغرفة فراغاً لا يسكن...؛ هكذا تأجل الزواج إلى الأبد، لا بوصفه حدثاً لم يكتمل، بل بوصفه قصة تعلم الناس أن بعض الأحلام لا تكسر، بل تُحفظ معلّقة بين السماء والأرض، وأن الحب، حين يُطارد بالفقد، يتحوّل من وعدٍ بالحياة إلى مرآةٍ للمجتمع، تفضح هشاشتنا أمام قدرٍ لا يوقع على عقوده أحد...

عتبة بين بابين (٢٨)

في غيبش أصيلٍ لم أعد أميّز إن كان خارجاً من رحم المدينة أم من تجاوب روحه، كنت أمشي كمن يُجرّ على خيطٍ خفي لا يرى.

المدينة لم تكن مدينةً بالمعنى المعتاد؛ كانت كائنًا نصف حيّ، يتنفس من شقوق الأرصفة، ويغمض عينيه حين أمرّ كأنه يتظاهر بالنسيان.

الأرصفة تنتهامس، والنوافذ المغلقة تحدّق في كأنها عيونٌ فقدت أصحابها وبقي فيها الوعي فقط..، كل شيء هنا يبدو كأنه انتهى للتوّ، أو أنه على وشك أن يبدأ بطريقة خاطئة.

كنت غريبًا حتى عن ظلي.

عند منعطف شارع يلتف كفكرة مترددة، ظهر الرجل أولاً.

سمسارٌ، أو هكذا بدا.. , أنيقٌ أكثر من اللازم، كأن الأناقة قناعٌ يخفي تحته شيئاً غير قابل للتصريح.. , ابتسامته لم تكن ابتسامة؛ كانت حركة محسوبة، أشبه بجرح يعرف أين يقع لكنه لا ينزف بعد.

وبجانبه كانت هي.

امرأة لا يمكن اختصارها بوصف.

ليست جميلة فقط... , بل مُربكة، كأن الجمال فيها ليس صفة بل حادثة تقع للواقع نفسه.. , كانت تنظر إليّ كمن يعرفني دون أن يلتقيني، أو كمن عاشني في احتمالٍ آخر من الحياة ولم يُكتب له أن يحدث.

قال الرجل بصوت دافئ بشكلٍ مريب:

— أنت تبدو متعبًا من الطريق... لماذا لا ترتاح قليلاً؟

وأضافت هي، دون أن تحرّك شففتيها كثيرًا، كأن الكلام يتسرّب من جلدّها:

— لدينا شقة... , لا تُشبه أي مكان مررت به.. , هناك، لا تحتاج أن تكون أحدًا.

تبادلنا التحية.

كانت تحيتهما مثل ماءٍ مالح: يبرد اللحظة لكنه يترك في الفم عطشًا أعمق.

كنت أعرف أن هناك موعدًا ينتظرني.

موعدًا لا أعرف ملامحه، لكنني أعرف أنه ليس عاديًا.. , كان أقرب إلى عهدٍ قديمٍ قطعتَه على نفسي في لحظة ضعف أو صفاء لا أستطيع تذكرها.. , شيء يشبه الوفاء لفكرةٍ عن نفسي لم تُهزم بعد.

لكن العرض كان يغري بطريقة لا تُشبه الإغراء.

كان يشبه الراحة حين تأتي متأخرة، أو النجاة حين تفقد معناها.

قالت المرأة:

— لن نسألك عن ماضيك... ولا عن وجهتك.

ثم ابتسمت:

— نحن فقط نمحك أن تتوقف عن كونك مُطارِدًا.

دفعْتُ حقيبة سفري نحوها دون أن أفكر.

كان اليد لم تكن يدي.

كأنني أختبر نفسي من الخارج.

التقطتها بخفةٍ غير بشرية تقريبًا، وقالت:

— سأسبقك إلى هناك.. , الشقة جاهزة.

وأشارت إلى بناية شاهقة، ترتفع كإصبعٍ يوبّخ السماء أو يستفزها.

مضيتُ نحو موعدِي.

لكن الطريق لم يكن طريقًا؛ كان جدالًا داخليًا يمشي على قدمين.

كل خطوة نحو الهدف كانت تعود بي نصف خطوة إلى الشقة.

كنت أقول لنفسي: "الوفاء".

ثم يردّ شيء في داخلي: "ولمن؟ لصوتٍ لا تعرفه؟ أم لصورةٍ صنعتها
كي تتعذب بها؟"

أنهيت اللقاء على عجل، كمن يهرب من محكمةٍ داخلية، ثم عدت.

المدينة الآن مختلفة.

كأنها تعلم أنني قررتُ شيئاً، فبدأت تختبر ضعفي.

ركضت.

لم أكن أركض نحو الشقة فقط... بل كنت أركض من نفسي أيضاً.

عند البناية، كان الدرج أشبه بقم مفتوح.

كل درجة تصعد بي نحو احتمال، لا نحو مكان.

وقفت أمام الباب.

قبل أن أطرق، انفتح.

لم يكن انفتاح باب... بل انكسار حدّ بين قرارين.

ظهرت هي.

قريبة أكثر مما ينبغي، كأن المسافة بيننا اختزلت عمداً لتُفقدني توازني.

قالت بصوتٍ ناعم، ليس جميلاً فقط بل مُخدراً:

— تعال... سأريك حياة لا تحتاج فيها أن تسأل عن معناها.

لم تقل "حباً".

لكن الكلمة كانت واقفة خلف جملتها، تنتظر أن تُقال ثم خافت.

خطوت.

وفي تلك اللحظة، رأيته.

رجلٌ كهلٌ يجلس عند عتبة الدرج المؤدي إلى الداخل.

لم يكن وجوده طبيعيًا ولا مفاجئًا... بل كان كأنه كان هناك منذ البداية،
منذ أول فكرة خطرت لي عن هذه الشقة.

وجهه مزيج من وقارٍ موجع وطمأنينةٍ تُشبه الحكم النهائي.

عيناه ليستا عيني مراقب، بل عيني من يعرف النهاية لكنه لا يتدخل فيها
إلا حين يُطلب منه أن يكون مرآة.

نظر إليّ.

لم يقل شيئًا.

لكن صمته كان أثقل من كل عروض العالم.

في نظراته شيء يشبه الأسف... وشيء يشبه العتب... وشيء يشبه
المعرفة المؤلمة بأنني لست أول من يقف هنا.

تجمدت.

المرأة لم تعد تقنعني، ولا الرجل الكهل يردعني، ولا أنا أستطيع الرجوع.

قلت بصوت داخلي لا يُسمع:

"من أنت؟"

فأجابني دون كلام:

"أنا أنت... حين لا تختار أن تكذب على نفسك."

فهمت فجأة.

لم تكن الشقة مكانًا.

لم يكن العرض حياةً أخرى.

لم تكن المرأة جسدًا فقط، بل تجسيدًا لكل ما كنت أؤجله من رغبات، من تعب، من حاجة لأن أحب دون تفسير.

وكان الرجل الكهل هو النسخة التي لا تتنازل، التي تتذكر دائمًا، التي تُفسد المتعة لأنها تعرف ثمنها.

والمدينة... كانت مجرد جهاز اختبار.

المرأة اقتربت، همست:

— لماذا تتردد؟ كل ما أردته هنا.

لكن صوتها الآن لم يعد إغواءً فقط، بل اعترافًا بأن الإغواء نفسه وحيد.

والكهل لم يتحرك، لكنه قال داخليًا:

"اختر... لكن اعرف أنك ستدفع ثمن اختيارك بنفسك."

لم أكن بين بايين فقط.

كنت البابين معًا.

عتبةً تمشي على وعيها، وتتعثّر بكل احتمال فيها.

وفي لحظة صمتٍ طويلة، أدركت أن الحب ليس في الشقة، ولا في الهروب، ولا في الموعد الذي تركته خلفي... ؛ بل في ذلك الألم الدقيق الذي يجعلني غير قادر على الخيانة بسهولة، ولا قادر على النجاة بلا خسارة.

وقفت.

لا صاعداً... ولا نازلاً.

فقط أنا، كما لم أكن من قبل:

كائنٌ معلق بين رغبةٍ تريد أن تعيش، وضميرٍ يصرّ أن الحياة ليست نجاةً فقط، بل معنى أيضاً.

وما زلت هناك...

على العتبة.

عازفُ المنافي و سيمفونية الرماد (٢٩)

كان مهندس يعتقد، منذ طفولته الأولى، أن المدن تموت مثل البشر؛ ببطءٍ، ومن الداخل.

وكانت مدينته، الواقعة في خاصرة العراق الجنوبية، مثلاً حياً على ذلك الموت الطويل.

مدينةٌ مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار الحربي، كأنّها أُخرجت لتوّها من تحت أنقاض حربٍ قديمة ولم يُكمل أحد دفنها بعد.

الشوارع فيها تشبه شرايين متيبسة، والناس يمشون بوجوهٍ مطفأة، كأنهم يحملون نعوشهم داخل صدورهم.

في الليل، كانت صور الطاغية تتدلى فوق الجدران مثل آلهة جائعة، تراقب أنفاس السكان.

وفي النهار، كانت المدارس والثكنات والمساجد والملاعب تتشابه؛ كلها مؤسسات لتدريب الخوف.

نشأ مهند في بيت صغير قرب نهر متعب، مع أب صامت كجندى نجا من معركة ولم ينج من ذكرياتها، وأم تخبئ قلقها داخل الدعاء.

كانت الأم تضع الطعام على المائدة كما لو أنها تضع قرباناً للحياة، بينما الأب يحدق طويلاً في الفراغ، كأنه ينتظر شخصاً لن يعود.

ومنذ طفولته، شعر مهند بأن هناك خطأ هائلاً في العالم.

لم يكن يعرف اسمه، لكنه كان يشعر به في ارتجاف أصابع أبيه عندما يُذكر اسم الرئيس، وفي الهمسات التي تنطفئ فجأة حين يقترب أحد الغرباء، وفي ذلك الخوف الغامض الذي يجعل الناس بيتسمون وهم يكرهون.

كبر وهو يتقن مهارة النجاة الوحيدة في البلاد:

أن تقول شيئاً، وتفكر في نقيضه.

حين بلغ السابعة عشرة، دخل المكتبة العامة الوحيدة في المدينة.

كان يظن أن المكتبات تشبه الأبواب السرية، وأن الكتب يمكن أن تنقذ الإنسان من الاختناق.

لكن المكان بدا كمقبرة للرؤوس المقطوعة.

رفوف مائلة، كتب متأكلة، رائحة رطوبة تشبه رائحة ثياب الموتى.

حتى الضوء هناك كان أصفر ومريضاً.

اقترب من أمين المكتبة وسأله بخجل:

— هل توجد كتب عن الفلسفة الحديثة... أو الماركسية؟

رفع الرجل رأسه ببطء.

كان أصلع، ذا وجهٍ شاحبٍ وعينين حادّتين كمسامير صدئة.

حدّق فيه طويلاً، ثم قال بصوتٍ بارد:

— نحن لا نضع السموم في مكثباتنا.

شعر مهند بأن الجملة لم تكن جواباً، بل تهديداً.

التفت حوله.

كان بعض الرجال يجلسون بصمتٍ قرب الجرائد الرسمية، يراقبون الداخلين بعيون ميتة .

أدرك فجأة أن المكتبة ليست مكاناً للمعرفة، بل فرعاً خفيفاً للمخابرات والامن .

خرج منها وهو يشعر بأن الكتب نفسها معتقلة.

في الطريق، لمح أمّاً ترتدي السواد وهي تحمل صورة ابنها الذي قُتل في الحرب العراقية الإيرانية.

كانت تمشي كأنها تحمل العراق كلّهُ فوق ظهرها.

عندها فهم مهند أن البلاد لا تستهلك أبناءها فقط، بل تلتهم حتى أحلامهم الصغيرة.

بعد أسابيع، حاول أن يجرب حياةً أخرى.

ذهب إلى نادٍ رياضيٍّ شعبيٍّ، يحمل حذاءه القديم وكرّةً من الأمل المرتبك.

كان يريد فقط أن يركض.

أن يشعر بأن جسده ليس جزءاً من آلة الخوف.

استقبله مسؤول النادي، رجلٌ ضخّم برائحة تبغٍ نقّاذة، وسأله قبل أي شيء:

— أنت بعثي؟

تجمّد مهند.

تعنّرت الكلمات في حلّقه.

— لا ... لكن ...

اقترب الرجل منه أكثر، حتى شعر بحرارة أنفاسه:

— ينبغي أن تكون بعثيًا ... لكي تلعب.

في تلك اللحظة، شعر مهند أن العالم كله يتحوّل إلى استمارة حزبية.

حتى الركض يحتاج موافقة أمنية.

تمتم مرتبًا:

— إن شاء الله...

ثم غادر بسرعة، كمن يهرب من كمين.

ومنذ ذلك اليوم، صار يكره الملاعب؛ لأنها ذكّرت به بأن السلطة لا تكتفي بالتحكم في السياسة، بل تريد أن تستعمر حتى عضلات البشر.

حين ضاقت به الحياة، لجأ إلى الدين.

دخل المسجد ذات مساء شتوي، وكان المطر يسقط خارجًا مثل بكاء كثيف.

صلى للمرة الأولى بخشوع المرتبكين، أولئك الذين يبحثون عن الله لا عن الجنة.

لكن البلاد التي كانت تخاف من الكتب، كانت تخاف من الصلاة أيضًا.

بعد أسابيع، داهمت قوات الأمن البيت.

دخلوا كالعاصفة، قلبوا الأثاث، وجروّوه أمام أمّه التي أخذت تصرخ باسمه
كما تصرخ الأمهات على أبنائهن الغرقى.

في الزنزانة، تعرّف مهند إلى الوجه الحقيقي للدولة.

الرتوبة.

الأسلاك الكهربائية.

رائحة البول والدم.

الرجال الذين يتحوّلون تحت التعذيب إلى حيواناتٍ جريحة أو قديسين.

كان يسمع في الليل صرخات المعتقلين تتصاعد عبر الجدران، فتبدو
السجون كلها كأنها آلة موسيقية ضخمة تعزف سيمفونية الألم العراقي.

سأله الضابط ذات مرة:

— إلى أي حزبٍ تنتمي؟

أجاب بصوتٍ مبحوح:

— لا أنتمي لأحد.

ضحك الضابط طويلاً، ثم قال:

— هذه أكبر جريمة.

خمسة أشهر قضاها هناك، قبل أن يخرج بوساطة رشوةٍ دفعها أبوه، الذي
باع قطعة الأرض الوحيدة التي يملكها.

لكن شيئاً ما كان قد انكسر داخله إلى الأبد.

خرج من السجن بعينين أكبر عمراً من وجهه.

صار يمضي أيامه في السينمات القديمة، يشاهد أفلاماً أوروبية لا يفهم نصف حواراتها، لكنه يفهم حزنها كاملاً.

كان يشعر أن الشخصيات المنفية على الشاشة تشبهه أكثر من أبناء مدينته.

ثم، ذات مساء، رأى رجلاً يعزف الغيتار في فيلم إسباني.

كانت الموسيقى حزينة، لكنها حرة.

وفي اليوم التالي، اشترى غيتاراً رخيصاً من سوقٍ شعبيّ.

حين حمله لأول مرة، شعر كأنه يمسك قلباً خشبياً نابضاً.

صار يعزف ليلاً في غرفته الضيقة، فيما الكهرباء تنقطع، والحروب تتكاثر، والمدينة تغرق أكثر في الجنون.

وكان يتخيل نفسه في أماكن لم يرها قط:

باريس، أوسلو، مدريد، أمستردام...

كان المنفى بالنسبة له فكرةً رومانسية أولاً؛ نافذةً مضاءة في آخر النفق.

لكن المنفى الحقيقي لم يكن قد بدأ بعد.

عام ٢٠٠٣، انهار كل شيء دفعةً واحدة.

سقط النظام، لكن البلاد لم تتحرّر؛ فقط تغيّر شكل الخراب.

النهب، الفوضى، الميليشيات والحركات والفصائل والجماعات، الجثث، الطائفية، الوجوه الجديدة التي تحمل الكراهية القديمة نفسها.

أدرك مهند أن العراق صار غرفةً تحترق من جميع الجهات.

وفي ليلةٍ بلا قمر، اتفق مع مهرّب كردي على الهروب.

حمل غيَّاره، وحقيبةً صغيرةً فيها بعض الملابس وصورةً قديمةً لأمه.

عبر الحدود مشيًا بين الجبال.

كان البرد قاسيًا إلى درجة أن أنفاسهم بدت كأرواحٍ تخرج من أفواههم.

في الطريق، مات شابٌّ سوريٌّ من التعب.

دفنه المهرّب بسرعة تحت الثلج، ثم قال ببرود:

— أوروبا بعيدة... ومن يتأخر يموت.

حينها فهم مهند أن المنفى ليس رحلةً نحو الحياة فقط، بل ممرّ طويل عبر الموت.

وصل إلى أوروبا أخيرًا.

في البداية، شعر بصدمة الحرية.

الناس هنا لا يهمسون.

لا صور لقائدٍ يراقبهم.

لا أحد يسأله عن مذهبه أو حزبه أو صلاته.

لكنه اكتشف شيئاً آخر:

الحرية لا تمحو الوحدة.

استأجر غرفةً صغيرةً في ضاحية باردة.

كان الثلج يتراكم خلف النافذة، بينما هو يعزف وحيداً في الليل، كأنه يكلم وطنًا لا يسمعه.

صار يعزف في محطات المترو والساحات العامة.

وكان المارة يلقون النقود في علبته المعدنية ثم يرحلون، دون أن يعرفوا أن الرجل النحيل الذي يعزف أمامهم يحمل داخله بلدًا كاملاً من المقابر.

ذات مساء، توقفت أمامه فتاة فرنسية تُدعى "إيلين".

كانت تدرس الأدب المقارن، ولها عيان بلون الشتاء.

قالت له بعد أن انتهى من العزف:

— موسيقاك حزينة... لكنها جميلة بطريقة تجعل القلب يتذكر شيئاً لا يعرفه.

ابتسم لأول مرة منذ سنوات.

أحبها ببطء، كما يحب المنفيون: بحذرٍ وخوفٍ وحنين.

كانت تحاول أن تنتشله من ذاكرته، لكنه كان يشعر دائماً أن داخله مدينة مهتمة لا تستطيع امرأة واحدة ترميمها.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت نائمة قربه، جلس قرب النافذة يعزف مقطوعة حزينة.

سألته:

— ماذا تسمي هذه الموسيقى؟

أجاب وهو يحدق في المطر:

— سيمفونية الرماد.

ثم أضاف بعد صمتٍ طويل:

— هناك أوطان لا تغادرنا حتى بعد أن نغادرها.

مرّت السنوات.

صار مهندس يعزف في المسارح الصغيرة والمقاهي الثقافية.

تعلم اللغة، تعلم كيف يعيش، كيف يبتسم، كيف يخفي جرحه بأناقة الأوروبين الباردة.

لكن العراق ظلّ يسكنه كمرضٍ مزمن.

كان كلما رأى طفلاً يضحك في الشارع، يتذكّر أطفال مدينته وهم يكبرون وسط الحروب.

وكلما سمع صفارات الإسعاف، يعود فجأة إلى الزنانات ورائحة الدم والرطوبة.

أدرك متأخراً أن المنفى لا يحرّر الإنسان من ماضيه، بل يمنحه مسافة كافية ليراه بوضوح قاتل.

وفي إحدى أمسيات الشتاء، وقف على جسرٍ فوق نهر السين، يحمل غيتاره ويعزف للغرباء.

كانت باريس مضاءة كحلمٍ بعيد، لكن داخله كان معتمًا كمدينته الأولى.

عزف طويلاً.

وحين انتهى، شعر أن الموسيقى لم تكن محاولةً للنجاة فقط، بل طريقةً لكي لا يختفي تمامًا.

لأن الإنسان، حين يفقد وطنه، لا يبقى له سوى صوته...

أو الصدى الذي يتركه خلفه.

ظلالٌ تتبدّل حين يطول الغياب (٣٠)

ما عادت الظّنون وحدها تقف بين رائد وابن عمّته رشيد، صار الزمن نفسه هو الجدار، لا يُرى لكنّه صلب، لا يلمس لكنّه يمنع الاقتراب، يقف بين قلبين كانا ذات يوم ينبضان بإيقاع واحد...!!

لم يكن رائد يغادر بيت عمّته أمّ وليد إلا نادرًا، ذلك البيت الذي ترمّل قبل عشرين عامًا حين خطفت الحرب زوجها الملة ابو وليد في حرب الشمال العراقي، وترك لها أربعة صبية كأربعة جروح لا تلتئم...؛ أكبرهم وليد، ذاك الذي ابتلعتة جبهات القتال العراقية الإيرانية، فلم يُعثر له على جثة، ولم يُسمع له صوت، ولم يبقَ منه إلا اسمٌ تردّده أمّه كلّما أنقلها المساء.

كاد بصر أمّ وليد يذهب حزناً عليه، وكانت كلما اشتد بها الشوق، ملأت أرجاء الدار بنحيبها، ثم تخطمه بعبارتها التي صارت كأنها نشيد دائم :

“يا وليد... يا يمّه... عميت عيني عليك يا وليد يمّه...”

ومع الوقت، اعتاد الجميع هذا الحزن، حتى صار جزءاً من إيقاع الحياة اليومية، لا يُدهش أحداً، ولا يوقظ أحداً من سباته...!!

ولأنّ الزمن قاسٍ حتّى في عاداته، صار الإخوة الثلاثة ومعهم رائد يسمعون هذا النشيد اليوميّ كأنّهم يسمعون أذان الفجر، يألّفونه حتّى لم يعودوا يلتفتون إليه، كأنّ الحزن حين يتكرّر يفقد قُدسيّته، ويصير جزءاً من أثاث الدار...!!

كانت علاقة رائد بمجيد وحميد علاقةً يشدّها النسب أكثر ممّا يشدّها القرب، يفصل بينهما فارق عمر بسيط لكنّ المسافة بين أرواحهم كانت شاسعة... ؛ أمّ رشيد، الذي يكبر رائد بعشر سنين، فقد كان الكون كلّ... ؛ كان النافذة التي يطلّ منها رائد على ما وراء الجدران الإسمنتية للحصار، على ما وراء المقاييس الصارمة للعائلة

وكثيراً ما كانت العمّة تحدّر رائد : إياك أن تمشي خلف رشيد، هذا الولد عار على سمعة (أبوه) ... ؛ المرحوم كان ملّة ودين، وهذا... يشرب الخمر يا بني... ؛ يفضحنا بين الناس...!!

لكنّ التحذير كان كالماء على صخرة ملساء، ينزلق دون أن يترك أثراً... ؛ كان رشيد في عينيّ رائد بطلاً من نوع آخر، بطلاً لا يُحارب على الجبهات، بل يُحارب الملل والفقر والحصار بطريقته الخاصّة، بطريقةٍ لم يفهمها رائد تماماً، لكنّه أحبّها لأنّها كانت تُشعره أنّه حيّ .

١- بابٌ يُغلق على عالم آخر

في ظهيرة فائضة من ظهائر الحصار، حين كانت الكهرباء مقطوعة كعادتها والبيت غارق في صمت ثقيل، نادى رشيد على رائد بصوت خفيض :

تعال... ؛ أغلق باب الدار الرئيسي بالمزلاج، وتأكد إنّ البيت فارغ .

لماذا؟

سأل رائد ببراءة لم تكن كاملة ...

صديقي سيأتي ومعه جهاز فيديو، ثمّ صمت برهة وأضاف مبتسماً:
لنشاهد فيلماً خليعاً (سكسيا)

لم يفهم رائد معنى الكلمة تمامًا، لكنّ احمرار وجهه كشف أنّه يفهم بما فيه الكفاية... ؛ أغلق الباب بالمزلاج الحديدي الثقيل، وتأكد من غياب العمّة التي ذهبت إلى سوق الشورجة، ومن ذهاب مجيد وحميد إلى المدرسة... ؛ ثم دخل صديق رشيد ومعه جهاز الفيديو كأنّه يحمل صندوق أسرار .

وحين دار الشريط، انفتح بابّ آخر في روح رائد، باب لم يكن يعرف أنّه موجود... ؛ انغمسوا في المشاهد كأنّهم هم الفاعلون لا المتفرّجون، وكانت أيديهم تمتدّ إلى أجسادهم في الظلمة، فيمارسون ما لم يجرؤوا على تسميته... ؛ ولما قارب الفيلم على نهايته، دوى طرق عنيف على باب الدار .

انتفضوا كملسوعين... ؛ أطفال رشيد الجهاز، جمعوا المناديل المبعثرة، أخفوا آثار جريمتهم الصغيرة، وركض رائد نحو الباب .

أين كنتم؟! ألا تسمعون الطرق؟! ”صرخت العمّة وهي تدخل محمّلة بأكياس البصل والبادنجان والخضار والطماطم الذابلة من شدة الحر .

رائد : كنت في الحمام يا عمّة .

لم تصدّقه، لكنّها لم تكذّبه... ؛ ثم أعدت الغداء، فأكلوا بنهم غريب، كأنّ ما فعلوه قبل قليل قد استنزف منهم طاقة لا تُعوّض إلاّ بالخبز والمرق .

٢- النار تُشرب على مهل

وفي يوم تموزي لاهب، حيث كانت بغداد تغلي تحت جلد ساكنيها وتغيب الكهرباء عشريّن ساعة في اليوم، دخل رائد غرفة رشيد فوجده يحتسي الويسكي... ؛ كان يشربه حارًّا، بلا ثلج ولا ماء، كأنّه يتحدّى جهنّم الداخل بجهنّم الخارج... ؛ وكان كلّما ابتلع جرعة نفخ من جوفه كما ينفخ الحدّاد في كور النار.

تجرب .. ؟سأل رشيد وهو يمسخ فمه بكمّ قميصه ...

أوماً رائد برأسه... ؛ وأخذ رشفةً صغيرة، فشعر كأنّ سائلاً من لهيب يسري في أمعائه، انتفض جسده، وركض إلى المرحاض يتقيأ حتّى أحسّ أنّ أحشاءه ستخرج مع القيء... .

ضحك رشيد ضحكةً مكتومة: لا زلت صغيراً يا رائد ، تكبر وتتعلم

وسرعان ما تعلم رائد شرب الخمر ، فبعد أيام ؛ أمسك رشيد بيد رائد وقاده إلى مشوار آخر... ؛ إلى امرأة في الأربعين من عمرها، في زقاق بعيد في حي اور ... ؛ وقد دفع رشيد النقود، وعلم رائد كيف يبدأ، وكيف يستمرّ، وكيف ينتهي....

و كان رشيد يراقب من زاوية الغرفة كأنّه مدرّب يتابع أداء تلميذه، يوجّهه بصوت هامس، يبتسم حين يخطئ، ويومئ برأسه حين يصيب

خرج رائد من هناك وهو يشعر أنّه عبر نهراً، وأنّ الضقة الأخرى لا تُشبه الأولى... ؛ وفي حديقة عامّة قريبة، احتسباً خمرًا رخيصاً معاً، وانفجر رائد يضحك من دون سبب واضح، إلّا أنّه شعر للحظة أنّه حيّ .

٣- ثلاثون عاماً... والصمت يأكل الأسماء

ثمّ حدث ما يحدث دائماً: تغيّرت بغداد، جاءت موجة التدين، واجتاحت النفوس كما تجتاح العواصف المدن الهشة... ؛ تأثر رائد بها، وانخرط في صفوف المتدينين، مبتعداً عن رشيد، الذي صار ينتمي إلى ماضٍ لم يعد يشبهه ... ؛افترقا، لا بخصام، بل بتباعدٍ صامت، كأنّ الحياة نفسها قررت أن تكتب لكلّ منهما طريقاً مختلفاً ... ؛ثم انتقلت عائلة رائد الى مدينة بعيدة في جانب الكرخ ؛ وانقطعت أخبار رشيد .

ثلاثون عاماً مرّت كغيمة ثقيلة، تحمل مطراً لا يسقط... ؛ وفي ليلة من ليالي الخريف، شعر بألم حاد في مفاصله، ثم أجرى الفحوصات والتحليلات الطبية ؛ وجاءت الكلمة التي كان وقعها كالصاعقة : ورم خبيث ... سرطان المثانة .

واتصل والد رائد بابن اخته رشيد , وطلب منه تقديم المساعدة لابنه رائد ؛ وذلك بحكم عمل رشيد في مدينة الطب بصفة معاون طبيب ... و بعد رشيد خيراً؛ وخلف السّماعة، لم يقل شيئاً آخر.

وجاء إلى مدينة الطبّ يحمل مرضه في جسده، ويحمل في قلبه أسماء من ماضٍ بعيد...

٤- لقاء الغرباء تحت مصابيح المستشفى

وقف رائد في بهو المشفى، يتذكّر تلك الأيام الخوالي كأنّها شريط سينمائيّ يعرض بسرعة مجنونة: غرفة رشيد، جهاز الفيديو، زجاجة الوبسكي الحارّة، وجه المرأة الأربعينيّة، ضحكته هو في الحديقة العامّة بلا سبب ... ؛ ثم أقبل رشيد ...

لم يره رائد قادماً بقدر ما أحسّ به ... ؛ كان يمشي بخطّى ثابتة، يرتدي معطفاً أبيض، وفي يده مسحة حسنيّة تدور حباتها بين أصابعه بانتظام آليّ... ؛ كانت لحيتّه طويلة مهذبّة، وعيناه تنظران إلى الأمام لا إلى الوجه .

“السلام عليكم”

صوت رشيد كان محايداً، نظيفاً من أيّ عاطفة، كأنّه صوت مذيع يقرأ نشرة أخبار قديمة ...!!

وعليكم السلام... رشيد... كيف حالك ؟

مدّ رائد يده، فصافحه رشيد مصافحةً خفيفة، سريعة، كأنّه يلمس مقبض باب سيمرّ منه سريعاً ...

الحمد لله , وكيف حالك انت ... دعنا نرى ملفك الطبي ...

طوال فترة وجود رائد في المستشفى ، كان رشيد يؤدّي عمله اليومي الروتيني ... ؛ يوقّع أوراقاً، يتحدّث مع الممرّضين، يمرّ على غرفته

أحياناً ليطمئن... ؛ لكنّ عينيّه لم تلتقيا بعينيّ رائد أبداً... ؛ لم يسأله عن أهله، عن الماضي، عن ليلة الحديقة العامّة، عن ضحكته التي بلا سبب... ؛ لم يسأله عن شيء إلا عن درجة حرارته وموعد فحصه التالي .

كان رشيد يعامله كما يعامل المريض في السرير رقم سبعة، لا كما يعامل ابن خاله الذي كان يحبّه حبّاً جمّاً، والذي شاركه ذات يوم سرّاً لا يعرفه أحد...!!

٥-تساؤلات في قرارة الروح

جلس رائد على سريرهِ الأبيض، ينظر من النافذة إلى سماء بغداد المغبرة... ؛ كان الألم في خاصرته يخفت أحياناً ويثور أحياناً، لكنّ الألم الحقيقيّ كان في صدره، في ذلك المكان الذي كنّا نسوّيه القلب قبل أن نكتشف أنّه مجرد عضلة تضخّ الدم ...

تساءل في سرّه :هل صار رشيد هكذا لأنّه رأى كثيراً من المرضى مثلي حتّى صرنا بالنسبة له مجرد ملفات وأرقام وأسرّة؟!

هل تبدّل إحساسه من كثرة الموت الذي يراه كلّ يوم ؟!

ثمّ سكّت قليلاً، وشعر بغصّة تشبه غصّة العمّة المرحومة أمّ وليد يوم كانت تنادي وليدها الغائب.

!أم أنّ النسخة القديمة من رشيد قد مُحيت تماماً؟

كأنّ الزمن مرّ عليها بمحاة ثقيلة، وكتب مكانها إنساناً آخر لا أعرفه، لا يعرفني، لا يريد أن يعرفني؟!

لم يجد جواباً... ؛ لكنّه أدرك شيئاً واحداً، أدركه وهو يرى وجه رشيد الخالي من أيّ ذكرى، الخالي من أيّ بريق، الخالي من أيّ ظلّ للماضي .

أَنَّ الإنسان ليس حَجَرًا ... ؛ كان يظنّ، كما يظنّ الكثيرون، أَنَّ الناس ثابتون كالصخور، وأنَّ السنوات تمرّ ولا تغيّر إلّا الوجوه والتجاعيد... ؛ لكنّه الآن، وهو يرى رشيد الجديد، أدرك أَنَّ الزمن نَحَات ماهر، ينحتنا على مهل، يغيّر ملامحنا وقلوبنا، يمحو مآ ما يشاء ويكتب علينا ما يشاء، حتّى إذا التقينا بعد غياب طويل، لم نعرف بعضنا ...!!

خرج رائد من المشفى في ذلك المساء، والريح تلمح وجهه، ومدينة الطبّ تبتعد خلفه شيئاً فشيئاً... ؛ كان يحمل مرضه في جسده، ويحمل غربته الجديدة في روحه .

وقال في نفسه، بصوت لم يسمعه أحد :لقد أخطأ من ظنّ أَنَّ الأيام حين تنصرم، والسنين حين تمضي، يبقى الإنسان كما هو، صخرة صماء لا تتزحزح... ؛ كلا ... ؛نحن غبار، والريح تعيد تشكيلنا في كلّ لحظة، حتّى نغدو غرباء عن أنفسنا قبل أن نغدو غرباء عن الآخرين .

ومشى في شوارع بغداد، لا يدري إن كان يبحث عن رشيد الذي فقده، أم عن رائد الذي كانه ذات يوم، أم عن ظلّ وليد الغائب الذي ما زالت أمّه تتأدبه كلّ مساء، في بيت بعيد، في مدينة أنهكتها الحروب، في زمن يأكل كلّ شيء حتّى الذاكرة .

ظلال الصوت الحر (٣١)

في مساء بدا كأنه يهبط على المدينة لا على السماء، كانت الأزقة خارج البيت تبتلع أصوات المارة مبكرًا، فيما جلس حميد في غرفة ضيقة تتناثر فيها الكتب والأوراق وأعقاب السجائر الباردة.

المروحة القديمة تدور بكسل، والنافذة نصف المفتوحة تُدخل ضوءًا شاحبًا ورائحة غبارٍ قادم من الشارع.

كان أبو فرات يجلس قبالتة بصمته المعتاد، يراقب حميد وهو يقلب أوراق مخطوطه بعصبية واضحة؛ مرة يرتبها، ومرة يعيد بعثرة الصفحات كأنه يعاقبها.

قال حميد أخيراً، وهو يزفر ببطء:

— انتهيت تقريباً... بقي فصل واحد فقط.

رفع أبو فرات رأسه دون أن يتكلم.

تابع حميد، وعينه معلقتان بالأوراق:

— هذه المرة سأكتب كل شيء... دون مواربة.

سأكتب عن الخوف الذي يلبسونه باسم الأخلاق، وعن الجهل حين يتحوّل إلى مقدّس، وعن الناس الذين يبنون سجونهم بأيديهم ثم يغضبون ممّن يحاول فتح النافذة.

مدّ أبو فرات يده نحو قذح الشاي البارد، ثم قال بهدوء:

— وهل تظن أن الحقيقة تكفي وحدها؟

ابتسم حميد ابتسامة متعبة:

— لا... لكن الشجاعة تكفي أحياناً.

هزّ أبو فرات رأسه قليلاً، كأنه يستعيد ذكرى بعيدة:

— الشجاعة لا تنقذ دائماً يا حميد... أحياناً تجعل صاحبها يقف وحده في مواجهة مدينة كاملة.

ساد صمت قصير.

في الخارج مرّت سيارة مسرعة، ثم عاد كل شيء ساكناً.

اقترب حميد من النافذة، وأشعل سيجارة بيدٍ مرتجفة قليلاً.

ظلّ يحدّق في الدخان المتصاعد قبل أن يقول:

— أتذكر الشيخ حسين البغدادي؟

تبدّل وجه أبي فرات للحظة، وانخفض بصره نحو الأرض.

— كيف أنساه...

سكت قليلاً ثم أضاف:

— كان أنقى من عرفت.

ابتسم حميد بأسى:

— قبل موته بعامين ذهبْتُ إليه.

كان جالساً في مكتبته الصغيرة، محاطاً بالمخطوطات.. , حتى الغبار هناك كان يبدو مثقفاً.

ضحك أبو فرات بخفوت، ثم عاد الصمت.

قال حميد:

— سألته يومها: لماذا لا تكتب ما تعرفه؟

كنتَ تقول دائماً إن الحقيقة أمانة... فلماذا تُخفيها الآن؟

التفت أبو فرات نحوه ببطء، كأنه يعرف بقية الحديث مسبقاً.

أخذ حميد نفساً عميقاً:

— ظلّ الشيخ صامناً طويلاً... ثم قال كلمة واحدة:

“أخاف.”

ارتعشت ابتسامة باهتة على فم أبي فرات:

— حتى هو خاف...

— لم يكن خوفًا عاديًا، قال حميد بسرعة.

قلت له: ممّ تخاف وأنت في هذا العمر؟

فقال شيئًا لم أنسه حتى الآن...

توقف قليلاً، ثم أكمل بصوتٍ أخفت:

— قال:

“أخاف منهم حتى بعد موتي... سيشوّهون اسمي، وسيجعلون أولادي
يخجلون مني.”

هبط الصمت على الغرفة مرةً أخرى، لكنّه هذه المرة بدا أثقل من
الجدران نفسها.

أطفأ حميد سيجارته بعنف، ثم قال:

— هل تتخيّل؟

رجل قضى عمره يدعو إلى الحقيقة... كان يخشى ذاكرة الناس أكثر من
الموت نفسه.

رفع أبو فرات عينيه نحوه وقال:

— لأن الناس لا يقتلون الجسد فقط... أحيانًا يقتلون الرواية أيضًا.

جلس حميد على الكرسي كمن فقد شيئًا داخله، ثم قال:

— لكن ماذا يبقى إذا صمتنا؟

ماذا يبقى إذا عشنا نُجَمَل الأكاذيب خوفًا من أفواه الآخرين؟

اقترب أبو فرات منه، ووضع يده على كتفه:

— ليس كل صمتٍ جبًّا يا حميد... أحيانًا يكون حمايةً لما تبقى من الإنسان.

ثم أشار إلى المخطوط الملقى على الطاولة:

— الكلمات ليست رصاصًا فقط... إنها مسؤولية أيضًا.

بعض الحقائق تحتاج زمنًا يحتملها، وإلا تحولت إلى طعامٍ للشنائم والقطيع.

رفع حميد رأسه بعينين متعبتين:

— إذن نوجد الحقيقة حتى نموت؟

تنهد أبو فرات، وأدار نظره نحو النافذة المفتوحة:

— لا... لكن اختر معاركك.

ليست البطولة أن تحترق بسرعة، البطولة أحيانًا أن تبقى حيًّا بما يكفي لتقول ما يجب قوله في الوقت المناسب.

ابتسم حميد بسخرية مريرة:

— يبدو أن الكتابة ليست حرية كما كنت أظن.

أجابه أبو فرات:

— الكتابة محكمة يا صديقي...

وأغلب القضاة فيها جهلاء.

ضحك حميد للحظة، لكن ضحكته انطفأت سريعًا.

مدّ يده نحو المخطوط، وقلب صفحاته ببطء.

توقّف عند صفحة مليئة بالشطب، وفي زاويتها صورة صغيرة لابنته.

ظلّ ينظر إليها طويلاً.

انتبه أبو فرات للصورة، لكنه لم يقل شيئاً.

همس حميد أخيراً:

— أخاف عليها هي أيضاً...

لا عليّ وحدي.

لأول مرة، بدا أبو فرات عاجزاً عن الإجابة.

في الخارج، كان صوت الباعة يتلاشى تدريجياً، فيما أضواء المدينة
تشتعل واحدةً بعد أخرى، كأنها عيون تراقب الجميع بصمت.

طوى حميد أوراقه بهدوء، ووضعها داخل الدرج دون أن يمزقها.

لم يكن قد تراجع تماماً...

ولم يكن شجاعاً بما يكفي ليكمل.

كان فقط يقف في تلك المنطقة الرمادية القاسية، حيث يتحول الخوف إلى
شكلٍ آخر من أشكال الانتماء.

وخارج الغرفة، كانت المدينة تمضي كعادتها؛

تكافئ الصامتين، وتترك أصحاب الأصوات الحرة يمشون وحدهم في
العمّة.

طيف من نور في ليل الخراب (٣٢)

في تلك الليلة، لم تكن السماء فوق المدينة سماءً، بل سقفاً من الفحم المشتعل.

الريح كانت تعوي بين الأزقة ككلابٍ جائعة تنهش عظام الليل، والبرد يتسلل من شقوق الجدران كجنديٍّ مدربٍ على القتل البطيء.

أما الظلام، فلم يكن مجرد انقطاع للكهرباء، بل كائناً ضخماً يجلس فوق المدينة، يضغط على صدور ها حتى تكاد تختنق.

في أقصى الحي المحطم، داخل بيتٍ فقد نصف جدرانه ونوافذه وسقف إحدى غرفه، جلست خديجة قرب موقد يحتضر.

كانت النار تتنفس بصعوبة، تلفظ دخاناً كثيفاً أكثر مما تمنح دفئاً، والخطب المبتل ينن كأن فيه روحاً معذبة.

احتضنت طفلها الرضيع تحت عباءتها السوداء.

لم يعد يبكي.

وهذا ما أخافها أكثر.

البكاء يعني أن في الجسد بقية مقاومة، أما هذا الصمت فكان يشبه استسلاماً مبكراً للموت.

راحت تحرق في وجهه الصغير؛ عيان غائرتان، شفاه جافة، وأنفاس متقطعة كأن صدره الصغير يصعد جبلاً لا يراه أحد.

في الخارج، دوى انفجار قريب، فارتجفت الجدران.

تساقط بعض التراب من السقف على كتفها.

همست، دون أن تشعر:

— يا رب... ليس هو أيضاً.

لكن المدينة في تلك الأيام كانت صماء.

الصلوات ترتطم بالدخان وتعود مكسورة.

منذ أربعين يوماً لم تتم خديجة يوماً حقيقياً.

كانت تغفو دقائق، ثم تستيقظ على صوت قذيفة، أو صرخة، أو خوفٍ مجهول يركض داخل صدرها.

الحرب أخذت كل شيء بسرعة اللصوص المحترفين.

زوجها خرج ذات صباح يبحث عن رغيف خبز، ولم يعد.

قيل إن قذيفة مزقت السوق.

وقيل إن الجنود أخذوا الجثث.

وقيل كلام كثير، لكن أحداً لم يُعده إليها.

وابنها الأكبر، علي، اختفى في المجزرة التي ابتلعت الحي قبل شهرين.

وجدوا حذاءه فقط، عالقاً في ساق شجرة محترقة.

منذ ذلك اليوم، صار قلبها غرفةً مهجورة.

اقتربت من الموقد ونفخت فيه.

ارتفع لهيب صغير، ثم مات سريعاً.

قالت وهي تضم الطفل:

— لا تمت... أرجوك لا تمت... لم يبقَ لي سواك.

لكن صوتها خرج كأنه صادر من بئر بعيدة.

وفجأة...

امتألت الغرفة بضوء غريب.

ليس ضوء برق، ولا ومضة قذيفة، ولا شعلة نار.

بل نور هادئ، شفاف، كأن القمر ذاب في الهواء.

ترجع الظلام إلى الزوايا مذعوراً، وانكمشت الجدران المتأكلة تحت سطوعه.

رفعت خديجة رأسها ببطء.

وهناك... قرب الباب المحطم... كانت تقف امرأة.

لم تدخل من الباب.

كأنها تكوّنت فجأة من الضوء نفسه.

امرأة بثوب أبيض طويل لا يمسه غبار الحرب، وشعر فضي يتهدى حول كتفيها كخيوط نهر مضاء.

في عينيها شيء لا يشبه عيون البشر؛ اتساع سماوي، وطمأنينة تجعل القلب يخجل من خوفه.

تراجعت خديجة مذعورة، وضمت الطفل بقوة.

— من أنت؟!!

ابتسمت المرأة.

وكانت ابتسامتها كافية لتخفّ حدة الريح خارج البيت.

قالت بصوت يشبه خرير الماء فوق صخور عطشى:

— لا تخافي يا خديجة... أنا مجرد طيفٍ عبر المسافة التي لا تصلها الحروب.

شعرت خديجة بأن اسمها حين خرج من فم المرأة لم يكن مجرد اسم، بل حياة كاملة تُنادى.

همست:

— هل أنا أحلم؟

اقتربت المرأة ببطء.

وكلما اقتربت، انخفض البرد في الغرفة، حتى شعرت خديجة أن أطرافها تعود إليها بعد موت طويل.

قالت الزائرة:

— الأحلام يا خديجة لا تترك هذا القدر من الطمأنينة.

ثم نظرت إلى الطفل.

— هذا الصغير يحمل أكثر مما تتصورين.

انفجرت خديجة بالبكاء فجأة، كأن الكلمات فتحت جداراً داخلياً ظل محبوساً سنوات.

— إنه يموت... لا حليب عندي... لا دواء... لا أحد بقي لي... لماذا يفعل الله بنا كل هذا؟!

ساد الصمت لحظة.

حتى القصف بدا بعيداً.

ثم قالت المرأة النورانية:

— لأن الأرض حين تمتلئ بالظلم، تمرض أرواح البشر.

لكن المرض لا يدوم.

كل ليل، مهما تمدد فوق العالم، يحمل موته في داخله.

أطرقت خديجة رأسها وهي تبكي:

— لقد تعبت.

اقتربت المرأة أكثر، وجلست قريبا، دون أن يصدر عن جلوسها أي صوت، كأنها لا تزن شيئا.

— أعرف.

ثم مدت يدها نحو الطفل.

كانت يدها باردة، لكن بردها لم يكن مؤلما؛ بل يشبه ظل شجرة في صيفٍ محترق.

لمست جبين الرضيع.

وفي اللحظة نفسها، فتح الطفل عينيه.

لأول مرة منذ أيام.

حدق في المرأة، ثم... ابتسم.

ابتسامة صغيرة، لكنها اخترقت قلب خديجة كطلوع الفجر بعد قرون من الليل.

شهقت خديجة:

— يا الله...

راح الطفل يتحرك بين ذراعيها بخفة، كأن روحاً جديدة دبت فيه.

قالت الزائرة وهي تنتظر إليه:

— سيعيش.

وسيكون شاهداً على زمنٍ آخر... زمنٍ يخرج من رماد هذا الخراب.

— أي زمن؟!

— زمن يعود فيه الأطفال إلى المدارس بدلاً من المقابر... وتعود النساء إلى خبز الصباح بدلاً من عدّ الجثث... زمن تسقط فيه الأصنام التي أخافت الناس طويلاً.

ارتجف قلب خديجة.

كانت تريد أن تصدق.

لكن الحرب علمتها أن الأمل نوع آخر من الخسارة.

قالت بشكٍ موجوع:

— وهل يمكن أن تتغير هذه البلاد؟

ابتسمت الزائرة بحزن عميق:

— البلاد تشبه البشر يا خديجة... تُجرح، تنزف، تجنّ أحياناً... لكنها لا تموت بسهولة.

ثم أضافت:

— لكنك ستسويني.

رفعت خديجة رأسها بسرعة:

— لا... مستحيل.

— بل ستنسین التفاصيل.

هكذا خُلق البشر؛ ذاكرتهم أضعف من آلامهم.

لكن الأثر سيبقى... كرائحة مطرٍ قديم في الروح.

ساد صمت طويل.

وفي الخارج، كانت الثلوج تتساقط للمرة الأولى منذ سنوات، تغطي
الخراب بهدوء جنائزي.

شعرت خديجة بأن الغرفة امتلأت بعطر غريب؛ مزيج من الياسمين
والمطر والندى وشيء لا اسم له.

قالت بخوف طفولي:

— لا تذهبي...

لكن الزائرة بدأت تتلاشى ببطء.

كأن الضوء يعيد ابتلاعها.

وقبل أن تختفي تماماً، قالت:

— حين يشتد الظلام، تذكرني أن النور لا يموت... بل يختبئ فقط.

ثم اختفت.

فجأة.

كأنها لم تكن.

بقي الضوء معلقاً لحظات في الهواء، ثم انطفأ تدريجياً.

عادت الغرفة فقيرة وباردة ومحطمة كما كانت.

لكن الطفل ظل يبتسم.

مع الفجر، بدأت ذاكرة خديجة تتأكل.

كانت تعرف أن شيئاً عظيماً حدث، لكنها كلما حاولت الإمساك بتفاصيله، تلاشت كال دخان.

مرت السنوات.

سقط الطاغية.

انتهت الحرب الأولى لتبدأ حروب أخرى، لكن المدينة تعبت أخيراً من الموت، وبدأت تتعلم المشي من جديد.

كبر الطفل وصار شاباً طويلاً القامة، بعينين فيهما لمعان غريب لا تعرف خديجة مصدره.

كان كلما ابتسم، شعرت أن تلك الليلة البعيدة تفتح بابها داخلها.

أما هي، فصارت عجوزاً تروي لأحفادها حكايات الحصار والجوع والبرد.

كانت تحكي بثباتٍ عن القصف والمجازر والمقابر الجماعية، لكن صوتها كان يرتبك دائماً عند تلك الليلة.

تقول لهم:

— حدث شيء... شيء جميل جداً... لكني لا أذكره جيداً.

فيضحك الأحفاد:

— جدتنا كانت تحلم.

فتبتسم هي بشرود وتجيب:

— ربما... لكن الأحلام لا تترك عطراً في الذاكرة.

وفي إحدى ليالي الشتاء، بعد عقود طويلة، كانت خديجة تحتضر.

الثلج يتساقط خلف النافذة، والرياح تعوي كما عوت في تلك الليلة القديمة.

جلس ابنها قربها، يمسك يدها المرتجفة.

وفجأة...

اتسعت عيناها.

حدقت في زاوية الغرفة.

ثم ابتسمت.

ابتسامة طفلة رأت أمها بعد خوف طويل.

همست بصوت متقطع:

— لقد عادت...

أراها الآن...

كانت حقيقية...

ثم أسلمت روحها بهدوء، كشمعة أطفأها الفجر.

وفي اللحظة نفسها، انتشر في الغرفة عطر خفيف من الياسمين والمطر.

رفع ابنها رأسه بدهشة.

كان متأكداً أنه شمّه من قبل...

لكنّه، مثل أمه، لم يستطع أن يتذكر أين.

صومعة الماء (٣٣)

كلّما دخل مهند الحمّام، أطل المكث فيه أكثر ممّا ينبغي.

في البدء ظنّ أنّ الأمر عادةٌ عابرة؛ دقائق استراحةٍ يقتنصها من ضجيج البيت والعمل والوجوه المتشابهة، لكنّه اكتشف مع الوقت أنّ ثمة شيئاً آخر يجذبه إلى ذلك المكان الضيق، شيئاً لا علاقة له بالحاجة البيولوجية وحدها.

كان يجلس على المرحاض الغربي ساكناً، بينما ينساب خريز الماء من الصنبور كأنّه زمّن سائل.

هناك فقط يشعر أنّ العالم يتراجع إلى الخارج، وأنّ الأفكار التي تعجز عن الاقتراب منه في الغرف الواسعة، تأتيه مطيعةً داخل تلك العزلة الصغيرة.

لم يكن الحمّام بالنسبة إليه موضعاً لقضاء الحاجة، بل غرفةٌ يخلع فيها صوته اليوميّ، ويصغي إلى نفسه كما لو أنّه يسمعها للمرّة الأولى.

في الخارج كان الناس يطالبونه دائماً بشيء ما:

أن يشرح، أن يبتسم، أن يوافق، أن يتحمّل...

أمّا هنا، فلا أحد ينتظر منه شيئاً.

كان الماء يريحه على نحوٍ غامض.

كلّما غسل وجهه شعر أنّ التعب ينفصل عنه قليلاً، لا لأنّ الماء يمتلك معجزةً خفية، بل لأنّ الإنسان يتوهم أحياناً أنّ ما يثقل روحه يمكن أن يذوب ويذهب مع الأشياء الجارية.

ولهذا كان يفتح الصنبور طويلاً، ثم يحدّق في الماء المنسكب بشرود.

مرّة تذكّر طفولته قرب ساقيةٍ صغيرة في القرية؛ يومها ظلّ يراقب الماء ساعاتٍ كاملة، قبل أن تصرخ أمّه غاضبةً لأنّه أضاع النهار كلّهُ في “التحديق بما لا ينفع”.

ابتسم وهو يتذكّر ذلك.

ربّما لم يتغيّر كثيرًا منذ ذلك اليوم.

كان يسأل نفسه أحيانًا:

لماذا أشعر بالطمأنينة هنا، في مكانٍ يهرب الناس منه بأسرع ما يمكن؟

أهو لأنّ الحمام يشبه صومعةً صغيرة؟

أم لأنّ الإنسان، حين ينغلق عليه بابٌ ضيق، يسمع ذاته بوضوح أكبر؟

وكانت الفكرة التي تورّقه دائمًا هي مفارقة الأمكنة الضيقة:

كيف يمكن لمكانٍ صغير أن يكون ملاذًا لشخص، وعقوبةً لآخر؟

ما الفرق بين هذا الحمام وزنزانةٍ انفرادية؟

ظلّ السؤال يطارده طويلًا، إلى أن خطر له جوابٌ بسيط:

الفرق ليس في الجدران... بل في الباب.

الإنسان يختنق حين يُمنع من الخروج، حتّى لو كان في جنةٍ واسعة، ويطمئن حين يعرف أنّ الباب يمكن فتحه متى شاء، حتّى لو كان في أضيق الأمكنة.

لكنّ الجسد لم يكن يتسامح مع تأملاته الطويلة.

فكثرة جلوسه أصابته بالبواسير، وأجبرته على ثلاث عمليات جراحية خلال سنوات قليلة.

وكان الطبيب يوصيه دائمًا:

“خفف جلوسك هناك... الحمام ليس مكانًا للتأمل.”

وكان مهندس يومي برأسه موافقًا، ثم يعود بعد أيام إلى عاداته القديمة، كأنه مدمن عزلة صغيرة لا يعرف كيف يتخلّى عنها.

في إحدى الليالي، جلس كعادته يراقب الماء المتدفق، ثم رفع رأسه نحو المرأة.

بدا وجهه شاحبًا ومتعبًا أكثر مما تخيل.

أغلق الصنبور هذه المرة بسرعة، فعمّ الصمت فجأة.

عندها فقط انتبه إلى أمر بسيط لم يفكر فيه من قبل:

أنّ الماء لا يحمل الإنسان بعيدًا عن نفسه... بل يؤخر مواجهتها قليلًا.

نهض ببطء، فتح الباب، وخرج.

رجوع إلى الجبّ (٣٤)

لم يكن راضي يغادر بيته إلا حين تُجبره الضرورة على خرق عزلته.

لم تكن عزلته قرارًا عابرًا، بل تشكّلت تدريجيًا كجلد ثانٍ فوق روحه.. , صار البيت امتدادًا لجسده، والغرفة قوقعته الوحيدة الممكنة في عالم لم يعد يثق بإيقاعه.

كان يقضي يومه في صمتٍ كثيف، لا يقطعه سوى أفكار تتحرك داخله كحشرات في ظلام مغلق.. , من خلف نافذته المغبرة، كان يرى العالم كأنه فيلم قديم: وجوه تمشي بلا ملامح، أصوات بلا معنى، وضجيج يشبه صفير آلة لا تتوقف.

لم يكن يكره الناس بقدر ما كان يشعر أنهم صاروا "نسخًا مكررة من فكرة واحدة فقدت معناها".

في مساء ثقيل، اهتز هاتفه.

"الحاج رؤوف".

تردد.. , هذا الاسم يعود من زمن آخر، حين كانت الكلمة عقدًا، والوعد شرفًا، والرجال لا يحتاجون محاكم لإثبات ما قالوه.

ضغط زر الإجابة.

قال رؤوف بصوت متعب، أقرب إلى اعتراف منه إلى طلب:

– راضي... أحتاجك.

مسألة بسيطة ظاهريًا، لكنها متعقبة في العمق... أبو أحمد البغدادي استدان مني عشرة آلاف دولار، واختفى خلف أعذار لا تنتهي.. , أريدك معي.. , أنا وأبو علي الناصري.. , نذهب إليه و"نحجي وياه".

لم يجب راضي فورًا.

كان يشعر أن الجملة الأخيرة ليست دعوة، بل سحب إلى فخ اجتماعي لا مهرب منه.

قال أخيرًا بصوت منخفض:

– تمام... أجي وياكم.

كأنه لم يقل "نعم"، بل "سأساق".

في السيارة، جلس في الخلف.

المدينة تمرّ من خلف الزجاج ككتلة بشرية مضطربة: إيقاع سريع، عيون مرهقة، ووجوه تحمل قلقًا لا تفسير له.

كان رؤوف يقود بصمت، وأبو علي يراقب الطريق كمن ينتظر حكماً لا يعرف مصدره.

أما راضي، فكان يغرق في نفسه أكثر من الطريق.

في داخله، كانت الكرامة ليست قيمة... بل عقيدة.

كان يردد دائماً دون أن يعلن:

“أفضل الموت على أن أعيش ناقصاً.”

لكن السؤال الذي بدأ يتسلل إليه الآن كان أكثر قسوة:

وماذا لو كان العالم لا يعترف بهذه المعادلة أصلاً؟

وصلوا إلى بيت أبو أحمد.

من الخارج، كان البيت يبدو كأنه ورشة لا تنام.

مولدات، أسلاك، زيت، وضجيج كهرباء لا يهدأ.

خرج شاب بملابس متسخة، قال إن والده “مشغول”.

بعد دقائق، ظهر أبو أحمد.

رجل في منتصف العمر، وجهه مُطْفَأ (كلمبة) محترقة، ويداه سوداوين

كأنهما لم تخرجا من الزيت منذ سنوات.. , لكن أكثر ما أربك راضي لم

يكن شكله، بل عينيه.

لم تكن عيون رجل متعب... بل عيون رجل لا يرى نفسه أصلاً.

كأن الداخل فيه قد انطفأ تماماً.

جلسوا في غرفة فوضوية.

زيت على الأرض، أوراق مبعثرة، ورائحة مزيج من وقود وعرق
وهزيمة يومية.

وفي الخارج، تقف سيارة لامعة، نظيفة بشكل مبالغ فيه، كأنها ليست
جزءاً من هذا العالم أصلاً.

هنا حدث الانقسام الذي لاحظته راضي بحدّة مؤلمة:

الآلة مُعتنى بها... والإنسان مُهمل.

ثم بدأ الكلام.

قال راضي مباشرة، دون مقدمات:

— ليش ما تسدد الدين؟

ابتسم أبو أحمد ابتسامة قصيرة لا تحمل طمأنينة:

— الوضع صعب... خسرت... العمال سرقوني... عليّ ديون وفوائد...
ما أكرر.

لم يُقنع راضي.

قال ببرود مشحون:

— مو هذا موضوعنا.. , أنت أعطيت كلمة.. , والكلمة دين.

تدخل رؤوف بصوت أقل حدة:

— إحنا مو جايين نسمع شكواك، جايين نريد فلوسه .

لكن أبو أحمد كان ينسحب إلى منطقته الخاص:

— هذا قضاء وقدر... الله كتب.

تغير وجه راضي.

هذه الجملة بالذات كانت تزجه أكثر من الكذب نفسه.

لأنها لا تبرر الخطأ فقط... بل ترفعه إلى مرتبة القداسة.

قال:

– القدر ما يسرق... ولا القدر ياخذ فلوس الناس ويقول “ما عندي”.

سكت لحظة، ثم أضاف:

– ستة أشهر يا رجل... شنو بعد تنتظر؟ عشر سنين؟

رد أبو أحمد بهدوء غريب:

– إذا تحسنت الأمور، أسدد.

ضحك راضي بمرارة:

– وأنت أصلاً غارق بالديون ، شلون تتحسن؟

التوتر بدأ يتحول إلى شيء غير مرئي لكنه قابل للانفجار.

وفجأة، انكسر شيء في رؤوف.

صفعة واحدة.

لم تكن قوية فقط... كانت نهائية.

سقط أبو أحمد على الأرض.

ليس كضحية... بل كأن الأرض كانت تنتظره منذ البداية.

لحظة واحدة قلبت المشهد بالكامل.

ابنه اتصل بالشرطة.

الجيران تجمعوا.

والسرد انقلب فجأة:

المديون صار "مظلوماً".

وصاحب الحق صار "معتدياً".

في المستشفى، لعب أبو أحمد دوراً جديداً باتقان غريب.

أنين محسوب.

مبالغة مدروسة.

وتحول سريع من "مديون" إلى "ضحية نظام".

ثم جاء الشرط : التنازل الكامل عن الدين... مقابل إسقاط الدعوى.

هنا لم يعد الموضوع مألواً فقط.

بل صار ابتزازاً قانونياً مغلفاً بالتمثيل.

في تلك الأيام، كان راضي يراقب كل شيء من الخارج كمن يشاهد انهيار منظومة لا تخص شخصاً واحداً، بل طريقة كاملة في فهم العالم.

فهم شيئاً ثقيلاً: المجتمع لا يكافئ الصدق... بل يُعيد تشكيله ليصبح سذاجة.

ولا يعاقب الكذب... بل يمنحه محامٍ جيد.

خرج رؤوف من القضية مكسوراً.

ليس لأنه خسر المال فقط...

بل لأنه اكتشف أن “الكلمة” وحدها لم تعد عملة صالحة للتداول.

أما أبو أحمد، فعاد إلى مولداته.

إلى ضجيجيه.

إلى عالمه الذي يفهمه جيدًا: عالم يلّمع الآلات ويترك البشر يتعفنون بصمت.

عاد راضي إلى بيته.

لكن شيئاً فيه لم يعد كما كان.

لم تعد العزلة هروباً.

بل صارت إعادة تعريف للنجاة.

نظر إلى العالم من جديد، هذه المرة بلا أوهام أخلاقية كبيرة:

ناس تتحرك كآلات.

ومولدات تعمل كآلهة صغيرة.

وضجيج يغطي كل محاولة للفهم.

جلس في غرفته.

أطفأ الضوء.

لم يعد الظلام مخيفاً.

بل أصبح، لأول مرة، أكثر صدقاً من الخارج.

ثم خطر له السؤال الأخير:

هل الذي في الخارج “فاسد”... أم أنه مجرد نظام لا يحتاج إلى أخلاق كي يعمل؟

لم يجب.

فقط رأى نفسه واقفاً على حافة بئر.

وفي الأسفل، نسخة منه تنتظر إليه.

واحد بقي فوق...

وواحد نزل إلى الجب.

وكلاهما لم يعد متأكداً:

من منهما كان الناجي... ومن منهما كان الموهوم.

في النهاية، لم يخرج راضي إلى العالم مرة أخرى.

ليس خوفاً... بل لأن العالم، في صورته الجديدة، لم يعد مكاناً للجدال.

بل مكاناً يعمل... مثل مولد ضخ لا يهتم من يحترق داخله، طالما أن

الكهرباء لا تنقطع.

رحلتي في غياهب الإيجار (٣٥)

لم تكن طفولتي فقيرة فقط، بل كانت معلقة على حافة البيت... على حافة ما يمكن تسميته "الاستقرار".

كنت أظن أن البيوت تشبه الأمهات: ثابتة، دافئة، لا تُطرد ولا تُؤجّر بالتهديد. لكنني اكتشفت مبكراً أن البيت في مدينتنا ليس حقاً... بل صفقة قابلة للإلغاء في أي لحظة.

في ذلك الصباح، لم يكن الهواء مختلفًا، لكن “الرجل” كان مختلفًا.

صاحب الملك وقف في المدخل كأنه ليس إنسانًا بل بندٌ قانوني يمشي على قدمين.

قال لأبي دون مقدمات:

— “عليكم الإخلاء اليوم.”

لم يسأله أبي “لماذا؟”

لأن السؤال في حضرة السلطة العقارية يبدو سذاجة، أو اعترافًا بالهزيمة.

أمي كانت أول من انهار.

لم تبك بصوت، بل بكاء داخلي يشبه ارتجاف الأشياء وهي تُفكك من أماكنها.

أما أبي، فظل واقفًا كمن يحاول أن يتذكر أين نسي عمره.

بدأنا ننقل الأثاث إلى الشارع.

ليس لأننا انتقلنا، بل لأننا طردنا من فكرة المكان نفسها.

كنتُ صغيرًا بما يكفي لأكلف بمهمة “إنقاذ الرضيع”.

وضعتُ أخي على السلم.

السلم كان أول “بيت مؤقت” في حياتنا.

كان بيكي، فأطعمته “الممّة”، الحليب بينما العالم كله يُطعمنا الطرد.

صاحب الملك كان يقف فوقنا، لا يتكلم كثيرًا.

كان حضوره وحده يكفي ليحوّلنا إلى “حركة نقل” لا إلى عائلة.

في لحظة ما، خطر لي أننا لسنا عائلة...

نحن “شحنة أثاث بشرية”.

١. البيت كجبهة حرب

كبرت وأنا أرى الحياة كخريطة نزاع:

هناك من يملك الأرض...، وهناك من يُنقل منها باستمرار.

أبي لم يكن رجلاً ضعيفاً، لكنه كان يحمل لعنة واحدة:

أنه مستأجر دائم.

كان يقول لي أحياناً وهو ينظر إلى الجدران:

— “البيت ليس خشباً وجدراناً... البيت هو الإذن بالبقاء.”

لم أفهمها حينها.

لكنني فهمتها لاحقاً:

أن تعيش في إيجار يعني أن تعيش مؤقتاً حتى داخل أنفاسك.

٢. سلطة المؤجر

في مجتمعنا، لا يُنظر إلى المؤجر كمجرد حالة سكنية.

بل كهوية أخلاقية مشبوهة.

“فلان مستأجر؟ إذاً هناك خطب ما.”

كان الفقر ليس ظرفاً بل جريمة مؤجلة.

حتى حين تُرتكب سرقة في الحي، يهمس أحدهم:

— “غالبًا المستأجرين...”

لم يكن أحد يسأل عن الحقيقة.

كان الاتهام جاهزاً مسبقاً...

كما لو أن “عدم امتلاك بيت” دليل على “عدم امتلاك ضمير”.

أصبح المستأجر كائنًا معلقًا بين الإنسان والشك.

٣. الأب: سيرة تنقل بلا وطن صغير

أبي لم يمت في بيت.

وهذا وحده يكفي ليشرح كل شيء.

حين جاء الشيخ ليقراً عليه الشهادة الأخيرة (العذيلة)، كان جسده هادئاً،
لكن عينيه كانتا تقاتلان شيئاً غير مرئي.

قال له الشيخ:

— “قل لا إله إلا الله...”

لكن أبي، بصوت متعب كأنه خارج من عمر كامل، قال:

— “ادفعوا الإيجار...”

لم تكن مزحة.

كانت الخلاصة الأخيرة لفلسفة حياة كاملة:

أن الموت نفسه لا يعفيك من الديون السكنية.

٤. أنا: مواطن ناقص الصلاحية

كلما كبرت، صرتُ أشعر أنني نسخة غير مكتملة من الإنسان.

ليس لدي عنوان ثابت، ولا ذاكرة مكان يمكن الوثوق بها.

حتى أصدقائي كانوا يسألون:

— “أين تسكن الآن؟”

كنت أجيب بجملة تشبه الهروب:

— “حاليًا... في مرحلة انتقال.”

لكن “الانتقال” لم يكن مرحلة.

كان هوية.

حين ماتت زوجتي، لم يعرف الناس أين يأتون للتعزية.

لم يكن لدي بيت يستقبل الحزن.

كنتُ أقف في الهواء، كأنني نقطة بلا إحداثيات.

أحدهم قال بارتباك:

— “أين نلتقيك؟”

سؤال بسيط... لكنه كان إعلانًا رسميًا بأنني فقدت حتى حقي في الحزن المنظم.

٥. المؤجر كمرآة مشوهة

لم أكره المؤجرين.

كنت أراهم ككائنات تحمل وجهين:

وجه القوة... وجه الخوف من فقدان القوة.

بعضهم لم يكن شريراً.

كان فقط جزءاً من نظام يجعل السكن سلطة، لا حقاً.

لكن النظام نفسه كان قاسياً:

يجعل من البيت امتيازاً، ومن الإقامة اختباراً أخلاقياً دائماً.

٦. الخاتمة: الإنسان المؤجل

في النهاية، لم أعد أرى نفسي كإنسان يعيش "في مكان".

بل كإنسان يعيش "بين أماكن".

كأن الحياة نفسها عقد إيجار طويل...

لا تعرف متى يُجدد، ولا متى يُلغى، ولا من يملك حق التوقيع الأخير.

وأحياناً، حين أرى طيور المساء تعود إلى أعشاشها،

أفكر بمرارة هادئة:

حتى الطيور... لديها حق في العودة.

أما نحن...

فنحن لا نعود.

نحن فقط بعباد توزيعنا.

زخات المطر وقاع المدينة (٣٦)

كان الظلام ينسجُ خيوطه الفضية على جبين بغداد، وفي غرفة يلقها وهجُ الشاشة الوحيد، كان عليّ يغوص في بحر سائلٍ من الوجوه والأسماء عبر مواقع التواصل الاجتماعي والعالم الافتراضي ... ؛ هناك، بين الأطياف الرقمية، برز له اسمُ كوشم من نور: أريان التركماني... ؛ من ديالى، تلك الأرض التي تتنفس أساطير الرافدين، بينما كان هو هنا، في بغداد، تتنازع أنفاسُ التاريخ وأهاتُ الحاضر.

كانت العلاقة بينهما نبتةً غريبةً نمت في تربة الفضاء الافتراضي، تسقى بكلماتٍ تارة تكون ندئ، وتارة تكون ناراً... ؛ توطدت عبر الأشهر، حتى صار اللقاء الحقيقي فكرة تلحُ كحلمٍ لا يُطاق... ؛ لم يكن عليّ بجهل هوى صديقه؛ كان أريان عطشاً مُتجسِّداً... ؛ كأساً لا قاع لها يبحث عن خمرة الجسد وملذات الحواس... ؛ “المهم هو الإشباع” - كانت هذه كلمته المفتاح.

لم يكن التعارف حدثاً، بل انزلاقاً تدريجياً من الكلام إلى ما يشبه الاعتراف.. ، رسائل قصيرة في البداية، ثم امتدت كخيوط ماء بين جرفين.. ، كان كل منهما يختبر الآخر دون أن يقول ذلك صراحة: ماذا يعني أن يقترب رجل من رجل آخر في مدينة تُجيد مراقبة أنفاسها؟

أريان كان أكثر وضوحاً في هشاشته، أكثر جرأة في الاعتراف برغبته في الحياة كما هي، بلا تبرير. أما عليّ فكان يمارس صمته كنوع من النجاة، كمن يخشى أن يتحول الشعور إلى اسمٍ يمكن الإمساك به.

نعم ؛ تبادلًا الكلمات أولاً،

ثم الأحلام،

ثم الشكوى من ثقل الأيام.

ومع مرور الشهور، صار الصوت نصيراً، وصارت الرسائل جسوراً،
حتى بدا اللقاء ضرورة لا مفرّ منها، كأن الروحين اتفقتا قبل الجسدين...

حين أخبره أريان بنيتّه المجيء إلى بغداد، شعر عليّ بأن المدينة كلّها
وُضعت فجأة على كتفيه.

حين قرر أريان القدوم إلى بغداد، لم يكن الأمر زيارة، بل اختباراً لحدود
شيء غير مُسمّى بينهما.. ؛ شعر عليّ أن المدينة كلّها تُسَلّم له فجأة، كأن
عليه أن يبرر وجود هذا القرب الذي لم يُعلن بعد.

كيف يستضيف صديقاً يحمل معه نزق المدن الصغيرة، وشهوة
الاكتشاف، وتوق الحرية؟

كان عليّ يعرف طباع أريان، ويعرف كذلك قسوة بغداد حين تُحاصر
بالرقابة والخوف.

راح يبحث عن مأوى، لا للسريّر وحده، بل للخصوصية، للسكينة المؤقتة
التي يحتاجها الغريب.

نعم ، أراد عليّ أن يكون مضيفاً كريماً، فانطلق في شوارع المدينة يتلمّس
مكاناً يليق بلقاء يخجل منه النهار... ؛ وقع اختياره، بعد تردد، على زيد،
ذلك الرجل الذي حوّل حياته إلى سوقٍ للمتاجرة بكل شيء... ؛ كان لزيد
بناتٌ أربع، زهراءٌ في عرينٍ من حديد... ؛ قدم له عليّ الهدايا والمال،
واتفقا على صفقة: شقة في ليلة، وفتاة تُدعى إيفان، لقاء مبلغٍ يزداد مع كل
شرط... ؛ لكن عليّاً، وفي حركة مفاجئة، طلب إخلاء الشقة من بناته

المراهقات الصغيرات ... ؛ كانت غيرةً غامضة، ورحمةً مفاجئةً تتعارض مع سياق الصفة... ؛ هل كان يخاف عليهن من شهوة أريان الجامحة، أم كان يحاول إنقاذ بقايا طهرٍ ما في داخله هو؟ زيدٌ لم يعترض؛ ففي قاموسه، المال هو الكلمة الوحيدة التي لا تحتل الهامش...

ثم، كعادته، لم يضع ثقته في سلة واحدة، فاستجد بصديقٍ آخر، سرمد، الذي استقبل الطلب بشروط باردة، تشبه قلب المدينة حين تُغلق أبوابها فجأة...

نعم، ظلُّ الشاكِّ يلاحق علياً... ؛ زيدٌ كالضباب، وعوده كالسراب... ؛ ففتش عن خطةٍ احتياطية، فوقع على سرمد، صديقٍ يُخبئ أنانيته تحت قناع المزاح... ؛ أعطاه مفتاح شقته، لكنه أرفقه بشرطين: أن يشاركهما الشراب، وأن لا يدنس سريريه المقدس بنومهما... ؛ شعر عليٌّ بالإهانة، كأنه يستجدي فضلة... ؛ وافق، وفي قلبه مرارة كالعقم...!!

بين خيارين كلاهما مُرّ، وجد عليٌّ نفسه واقفاً في منتصف الطريق، يتأمل هشاشة العلاقات حين تتحول الصداقة إلى عقدٍ مؤقت، والبيوت والشقق إلى سلع...

ولم يكتف، بل فكّر في خيارٍ ثالث: فندق... ؛ لكن القوانين هنا تلعب أدواراً غريبة؛ فابن بغداد ممنوعٌ من المبيت في فنادقها!

ضحك عليٌّ بصوتٍ مرتفعٍ في سيارته الفارغة... ؛ لقد حوَصر بين ثلاثة أوهاَم: قَوادٍ لا ضمير له، وصديقٍ لا وفاء فيه، وقانونٍ لا منطق له...!!

قبل ساعة من الموعد، اختفى زيد... ؛ صمت هاتفه كالقبر... ؛ تذكر عليٌّ كل التحذيرات: “إنه رجل الوهم والخيانة”... ؛ ثم اتصل بسرمد، فإذا بالشروط تتناسل: سيبقى معهما حتى الصباح، سيراقب، سيكون الحاضر الغائب في كل زاوية... ؛ أدرك عليٌّ أن هذه ليست شروطاً، بل

إعلان عن احتلال للذات والفضاء... ؛ أغلق الهاتف... ؛ لقد سقط
الخياران...!!

في الكراج، تحت المطر الهابط كدموع المدينة... ؛ وصل أريان مساءً،
والمطر كان ينهمر كأنه يغسل أرصفة العاصمة من تعب النهار... ؛ كان
وصوله كظلٍ طال انتظاره... ؛ انطلقا في رحلة البحث عن الخمرة
المحزّمة... ؛ اذ كانت الشوارع خاويةً إلا من الشرطة وأشباح الراغبين
مثلها... ؛ حتى الخمرة صارت سرّاً يُتاجر به في الأزقة.

نعم، بحثا عن شيء يدفئ غربتهما، عن متجرٍ مفتوح، عن فسحةٍ خارج
قوانين الخوف، لكن الشرطة كانت منتشرة، والمدينة متقشفة حتى في
أفراحها الصغيرة...

كان الناس يمرون مسرعين، وكلٌّ يحمل قلقه في جيبه...

وأخيراً، عبر مساعدة عابرة، حصلا على ما يكفي ليصنعا لأنفسهما وهم
الاسترخاء... ؛ فقد حصلا على الزجاجاة الموعودة.

في السيارة، على أطراف المدينة، حيث ينام الضوء وينتشر الظل،
احتسبًا الخمرة... ؛ كانوا سُكاري من غير سُكر الشراب: سُكرة الهرب
من واقعٍ خائق، من قيودٍ مرئيةٍ وغير مرئية... ؛ الكلمات تدفقت مع
الشراب، كشفاء مؤقتة عن جراحٍ لا تندمل.

نعم، قاد عليّ السيارة نحو أطراف المدينة، حيث الشوارع أهدأ،
والأضواء أقل، وهناك جلسا يتبادلان الكؤوس والكلمات، يضحكان
أحياناً، ويصمتان طويلاً...

كانت بغداد تمتد حولهما ككائنٍ متعب... ؛ تحتضن أبناءها ثم تختبر
صبرهم.

في المطعم، تحت الأضواء الوهاجة، كانا يأكلان كباباً على صوت أم كاثوم... ؛ كان المشهد سورالياً: لقاء نفسين ضائعتين في مدينة تتجاهلهما، تناولا طعاماً شهياً بينما الجوع الحقيقي يكمن في الأعماق...

وأخيراً، فندق "الأحلام"... ؛ اسمٌ ساخرٌ... ؛ تغاضى المدير عن الهوية وعنوان السكن ؛ بفعل المبلغ المغربي... ؛ الغرفة ٣٠٣ كانت حجرةً بلا نافذة على الحقيقة... ؛ في الغرفة، تمدد الإرهاب على الأجساد، وتسالت الخمرة إلى الرؤوس، فصار الكلام أثقل، والحركة أبطأ... ؛ ثم تغير الامر جذريا... ؛ هناك، بين الجدران الباردة، تحول القلق إلى احتكاك أجساد... ؛ المساج كان بوابة، والخمرة كانت الذريعة... ؛ انسابت الأيدي كأنها تبحث عن دفء مفقود، عن إثبات وجود في عالم يجعل الإنسان شبحاً...

استيقظا عند الظهيرة كمن يخرج من حلمٍ ضبابي... ؛ الضوء القاسي يكشف فوضى الغرفة: ملابس متناثرة، زجاجة فارغة، وبقع غامضة على الملاءات... ؛ نظرة صامتة تتبادلها العيان... ؛ لا خجل، لا ندم، لا متعة حقيقية... ؛ فقط فراغٌ هائل، كالصحراء بعد عاصفة... ؛ اغتسلا بالماء الساخن، محاولين غسل أثر الليلة، لكن بعض الأوساخ لا تزول...!!

اغتسلا بصمت، وارتديا وجهيهما اليوميين، كأن الليل لم يكن سوى فاصلةً عابرة في سطرٍ طويل من الحياة...

خرج كلٌ منهما إلى طريقه... ؛ اذ عاد أريان إلى ديمالي، وعاد علي إلى غرفته... ؛ نعم، عاد كلٌ إلى وحدته التي صارت، بعد ذلك اللقاء، أكثر اتساعاً وعمقاً... ؛ لقد التقيا جسدياً ليكتشفا أن المسافة بين نفسيهما أكبر من كل المسافات الجغرافية... ؛ كان اللقاء محاولة لملء فراغ، فإذا به يحفر فراغاً جديداً، أشد ظلمةً وصمتاً...

وبقيت بغداد خلفهما،

تحفظ القصة في جدرانها،

وتبتسم ابتسامة المدن القديمة،

التي رأت الكثير...

وتعلم أن البشر، مهما هربوا، يعودون دائماً إلى وحدتهم الأولى.

سائق بالصدفة... ورفيق الغبن (٣٧)

لم يكن يعرف عن القيادة أكثر مما يعرفه عابراً عن البحر: شيء من الخوف، وشيء من الفضول، وكثير من الوهم.

لم يجلس يوماً خلف مقود سيارة أجرة، ولم يحفظ أسماء الشوارع ولا تعرجات الأزقة ولا طبقات المدن التي تتبدل كوجوه متعبة.. لكنه في تلك الليلة، بدا كمن يهرب من نفسه أكثر مما يقود سيارة.

كان الليل في بغداد يلمع كجرح مفتوح.

وبعد بضع كؤوس من نبيذ قديم، قرر أن يجرّ جسده إلى المقعد الأمامي لسيارة لا تخصه، ويترك للصدفة أن تفعل ما يشاء به المزاج: أن تقوده، أو تنفيه به، أو تمحوه قليلاً من الداخل.

أدار المحرك.

لم يكن يعرف إلى أين، لكن المدينة كما لو أنها تعرفه بدأت تتلعه بهدوء.

تدحرجت السيارة في الأزقة مثل فكرة لم تكتمل.. , أضواء صفراء،
بيوت نائمة، وكلب يركض كأنه يطارد ذاكرته.. , ثم، فجأة، ارتفعت يد
من العتمة.

شاب.

أوقف السيارة.

– إلى أين؟

سأل بصوت لم يكن متأكدًا من أنه صوت “سائق”.

– الزعرانية.

فتح الباب وصعد الشاب.

كان في الثامنة عشرة تقريبًا، وجهه جميل على نحوٍ موجه، كأن الحياة لم
تبدأ معه بعد، لكنها بدأت تضربه مسبقًا.. , عيون متعبة، وملابس تحمل
غبار يوم طويل لا ينتهي.

تحركت السيارة.

صمت قصير، ثم قال السائق:

- يبدو أنك خرجت من معركة.

ابتسم الشاب ابتسامة لا تشبه الفرح.

– معركة؟ لا... هذا يوم عمل فقط.

سكت لحظة، ثم أضاف كأنه يفتح ملفًا لا يريد فتحه:

— منذ الفجر وأنا أعمل في البناء.. , حملت إسمنتًا وحديدًا وأحلامًا لا
تخصني.. , وبعد الظهر ذهبت لهدم مرحاض قديم في بيت خالتي في

مدينة الصدر.. , عملٌ “تطوعي”... ؛ نحن الفقراء نُجيد اختراع الكلمات لتبدو الحياة أقل قسوة.

التفت السائق نحوه قليلاً.

– ولماذا كل هذا؟ ألم تجد عملاً أرحم؟

ضحك الشاب بخفية مرة.

– جرّبت كثيرًا.

ثم بدأ يسرد كأنه لا يتكلم مع أحد، بل يراجع حياته بصوتٍ عالٍ:

— كنت حملاً في الشورجة. السوق مات، وبقينا نحن الأحياء نتنافس على الموت البطيء.

ثم عملت في فندق... راتب جيد، غرفة نظيفة، لكن صاحب الفندق أراد أن يحوّل كل شيء إلى ثمنٍ للجسد.. ؛ هربت.

صمت.

السيارة مرت بجسرٍ شبه مظلم.

أكمل الشاب:

— عملت في كوفي شوب.. , قالوا لي “مجرد خدمة”.. , لكن صاحب المكان كان يضع أشياء في المعسل... ؛ يضحك ويقول إنها “نكهة”.

ثم اكتشفت لاحقاً أنها بداية سلاسل.. , من يدخنها مرة، يعود طالباً المزيد... حتى يصبح بلا قرار.. , رأيت شباباً يتحولون إلى ظلال.

شدّ السائق على المقود.

لم يقل شيئاً.

تابع الشاب، وصوته صار أثقل:

— وآخر مرة... صاحب محل طلب مني أن أطلق شعر جسدي كله.. ,
وعندما سألته، قال: أريدك أن تكون لي... أتكفل بك.

توقف لحظة، ثم قال بحدة مكبوتة:

— كأني شيء معروض للبيع.

نظر إلى السائق:

— أنا رجل. لست صفقة.

سكت.

ثم أضاف بصوتٍ أخفض:

— تركت كل شيء.. , والآن أعمل أي شيء بيدي فقط...؛ التعب أفضل
من الانكسار.

دخلت السيارة الأزقة الأخيرة للزعفرانية.. , كانت الإضاءة أقل،
والمدينة أكثر هدوءًا، كأنها تستعد لابتلاع كل ما قيل.

توقفت السيارة.

نزل الشاب.

ثم التفت:

— كم الأجرة؟

لم يجبه السائق مباشرة.. , كان ينظر إليه كمن يرى نسخةً أصغر من
خييته القديمة.

— اقترب.

تردد الشاب، ثم اقترب من النافذة.

مدّ السائق ورقة نقدية.

خمسون ألفاً.

تجمد الشاب.

– لا... هذه أكثر من اللازم.

لكن السائق لم يسمع.. , أو لم يشأ أن يسمع.

التقت عيونهما.

وفي تلك اللحظة، لم يعد هناك سائق ولا راكب.

كان هناك شخصان فقط، كلُّ منهما يعرف أن الحياة لم تترك له خياراً نظيفاً، وأن النجاة ليست بطويلة، بل شكلاً آخر من الخسارة.

انكسرت نظرة الشاب أولاً.

أخذ المال بصمت، كأنه يحمل شيئاً أثقل من الورقة نفسها.

– شكرًا... قالها بصوتٍ لا يشبه الشكر.

ثم ابتعد في عتمة الحي.

بقي السائق وحده.

أدار المحرك من جديد، لكن السيارة لم تكن تتحرك كما قبل.. كأنها فقدت مقصدها.

لم يعد يبحث عن زبائن.

كان يدور فقط.

يدور في مدينة لا تنام، ولكنه بدأ يفهم متأخراً أن الصدفة ليست لعبة... بل طريقة أخرى لقول الحقيقة:

أن الجميع هنا سائقون بلا طريق، وركاب بلا نجاة.

سرير من رماد (٣٨)

كأن الزمن نفسه أصيب بالحمى، أو كأن ساعة خفيفة في أعماقه قد توقفت فجأة دون أن تستأذن أحداً... ؛ كانت ساعته البيولوجية — تلك التي تضبط إيقاع الحياة في جسد الإنسان — قد تعطلت، فأصبح الزمن عنده كتلة ضبابية بلا بداية ولا نهاية .

كان السرير يطفو في منتصف الغرفة كجزيرة منكسرة، ورحمن يستلقي عليه كغريق لا يملك إلا أن يتشبث بقطعة خشب آيلة للغرق... ؛ لم يعد يعرف إن كان ما يراه من النافذة نهراً أم ليلاً، فالزمن في جسده المتهالك توقف عن الجريان، صار الوقت جرعات كيميائية تتساقط في عروقه كالرصاص المذاب، وساعات من القلب على فراش يابس كأنه مرصوف بالسيف أو مطرز بالشوك وشظايا الزجاج المتكسر ...

كان رحمن قبل أن يزور جسده ذلك الضيف الثقيل — الذي لا يطرق الباب بل يقتحمه كجيش من النمل الأبيض يأكل العظام من الداخل — إنساناً مختلفاً... ؛ ليس نشيطاً بالمعنى المتعارف عليه، بل كان نشاطه وميضاً خجولاً في ليل طويل من الإرهاق المزمّن... ؛ لكنه الآن ينظر إلى تلك الأيام وكأنها كانت فردوساً مفقوداً، أيام كان يستطيع أن يتمشى في شوارع بيروت تحت شمسها الذهبية، متناسياً جسده منشغلاً بروحه وفكره .

يتذكر جيداً تلك الرحلة إلى بيروت، قبل أن تتقلب الحياة رأساً على عقب...

ففي أحد الأيام، وبينما كان رحمن مسافراً إلى بيروت للسياحة والاستجمام — كما اعتاد في بعض رحلاته النادرة — التقى بصديقه سليم...

كان سليم مختللاً عنه تماماً؛ رجلاً يعتني بجسده عنايةً دقيقة، يراقب صحته كما يراقب التاجر صندوق نقوده، لكنه في المقابل كان مهملاً لروحه وفكره...

أما رحمن فكان على العكس منه تماماً...؛ كان يقرأ كثيراً، يفكر كثيراً، يطيل التأمل في معنى الأشياء، لكنه يهمل جسده كما يهمل شاعرٌ جسده حين يغرق في القصيدة...

قال سليم ذات صباح وهو يرتدي معطفه :

سأذهب إلى المستشفى الأمريكي لإجراء بعض الفحوصات العامة...؛ أحب أن أطمئن على صحتي بين حين وآخر...

نظر إليه رحمن مبتسماً، ثم قال بنبرة عفوية :

... خذني معك...؛ ربما يجدر بي أنا أيضاً أن أجري بعض الفحوصات

هزّ سليم رأسه موافقاً: لا بأس... لنذهب معاً.

وصلا إلى المستشفى...

المكان كان نظيفاً إلى حدٍ يجعل المرء يشعر أن المرض نفسه يخجل من الظهور فيه...؛ أروقة بيضاء، وأطباء بوجوه هادئة، وأجهزة تومض بأضواء باردة...

أجريا الفحوصات...

جاءت نتائج سليم عادية... ؛ لم يكن يعاني سوى من التهابات بسيطة في الكليتين وبعض الرمل فيهما... ، أمرٌ عابرٌ لا يستحق القلق .

لكن الطبيب طلب سليم على انفراد ...؛نظر إليه الطبيب طويلاً قبل أن يقول بصوتٍ خفيض : رحمن صديقك؟

قال سليم : نعم .

تنهد الطبيب قليلاً، ثم قال :

صديقك مصاب بسرطان المثانة... ؛ في المرحلة الثانية... ؛ إن لم يتدارك الأمر سريعاً فقد تكون حياته في خطر .

في تلك اللحظة، شعر سليم أن الأرض قد انسحبت من تحت قدميه ...؛تجمّعت الدموع في عينيه دون أن يستأذنها ...

خرج من الغرفة وهو يحمل السر كمن يحمل قنبلةً موقوتة في صدره ...

سأل رحمن الطبيب لاحقاً ببراءة :

في نتيجة الفحوصات كتبوا أن لدي مشكلة في المثانة... ؛ ماذا يعني ذلك؟

أجابه الطبيب بتردد :من الأفضل أن تراجع طبيب اختصاص في المسالك البولية.

لكن سليم أسرع بالكلام قبل أن يتفقم القلق في قلب صديقه :

... لا شيء مهم... ؛ مجرد أملاح أو رمل في المثانة... ؛ ربما التهاب بسيط

ابتسم رحمن مطمئناً ... ؛ واقتنع بالكذبة الجميلة .

عادا إلى بغداد، وهناك انفجرت الحقيقة في وجه العائلة كقنبلة موقوتة... ؛ اذ صار البيت ندبة كبيرة تئن، والأصوات تتصاعد كالبحور الأسود:

صراخ، عويل، بكاء، ثم صمت ثقيل كالرصااص... ؛ ومنذ تلك اللحظة، بدأت رحلة رحمن في متاهة لا مخرج منها: عيادات تزدهم بالوجوه الشاحبة، مختبرات تفوح منها رائحة الكحول والموت، مستشفيات حكومية ممراتها تشبه أنفاق القبور، وصيديات يدفع فيها المال مقابل علب صغيرة تُعد بالحياة وتُهدي الموت بطيئاً...

كان يسافر إلى نيودلهي بين الحين والآخر، هناك حيث المدن تغص بالبشر والآلهة تتسول في الشوارع... ؛ كان يدخل غرف العلاج الكيماوي فيُعَلِّقون في ذراعه قنينة من نور معتم، تشع في جسده إشعاعات نووية تقتل الخلايا المتمردة وتقتل معها الخلايا المسالمة أيضاً... ؛ كان يشعر وكأن جسده ساحة حرب تدمر بالكامل حتى لا يبقى فيها حجر على حجر...

أما في البيت، فقد صار السرير سجنه الوحيد... ؛ كان لا يغادر غرفته إلا نادراً، حين تضطره حاجة الحمام أن يجر جسده كجريح يزحف من معركة خاسرة...

كان يتقلب على الفراش كخبز على مقلاة ملتهبة: ينام على جنبه الأيمن فيصرخ الأيمن، فيتحول إلى الأيسر فيصرخ الأيسر، ثم ينام على بطنه فيتذكر أنه لا يحتمل وزناً على صدره، وأخيراً يستلقي على ظهره فيشعر أن عموده الفقري يتحول إلى قطع زجاج مكسور... ؛ وكان فراشه مصنوع من شوك لا يرى...

كان ينهض بصعوبة يعصرها الألم، يتوكأ على يديه تارة وعلى عصاه تارة أخرى... ؛ وهو الذي كان يركض كالغزال في شوارع بيروت... ؛ عندها ينشد قائلاً :

كأنني وقد جاوزتُ تسعين حِجَّةً *** خَلَعْتُ بها يوماً عَذَارَ لَجَامِي

على الراحتَيْنِ مَرَّةً وَعلى العَصَا *** أَنْوَأُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي

كان يأكل الطعام وكأنه يمضغ الزجاج، يدفع اللقمة في فمه كمن يدفن ميتاً...

كان يريد النوم لكن النوم صار حلماً بعيداً و ضيقاً نادراً ، وإذا غفا غفوة خفيفة هاجمته الكوابيس كذئاب جائعة، فراش الموت يهزّه بعنف، وجوه غريبة تطل من الظلام وتهمس: لقد حان وقت الرحيل ... ؛ لقد حان وقت الرحيل ...

نعم , كان يرى نفسه يسقط في هاوية بلا قاع ... ؛أو يرى ظلاً سوداء تلاحقه كأنها رسل الموت ... ؛يستيقظ مذعوراً ... ؛ينظر إلى السقف طويلاً ... ؛كأن السقف مرآة يرى فيها النهاية القادمة .

في لحظات نادرة من الصفاء والعزلة التامة ، كان يسمع الموسيقى الحزينة، الأغاني التي تبكي فراق الأحبة، وكان يطرب لصوت النساء الثكالي وهن يندبن موتاهن، كأنه يستعد لدوره القادم في هذه المراثية الكونية... كان يشعر أن تلك المراثي موجهة إليه ؛ وصار يعني نفسه كل يوم قبل أن يموت، يبكي على جسده الذي يتفتت كتمثال من رمال، على روحه التي تتسرب من بين أصابعه كالماء ...

صار رحمن الميت الحي، الشاهد على موته البطيء... ؛ كان يزحف على يديه وركبتيه حين لا تراه العيون، من شدة الألم في عظامه التي صارت هشّة كالزجاج بعد أن أكلها العلاج الكيماوي... ؛ من كثرة التشنجات التي كانت تلويه كأفعى عملاقة، من وهن العمود الفقري الذي لم يعد يحتمل وزنه ...

وروحٌ تقف كل ليلةٍ على حافة الوجود ... ؛تنتظر إلى العدم ؛وتتساءل بصمت :

هل الحياة حلمٌ قصير، أم أن الموت هو اليقظة الحقيقية؟

كان رحمن قد اكتشف فجأة الحقيقة التي يتأخر البشر في فهمها ... ؛ أن الإنسان لا يموت حين يتوقف قلبه ... ؛ بل يموت حين يبدأ في رؤية حياته من الخارج ... ؛ كأنه غريب عنها...

وفي إحدى الليالي، بينما كان يتألم في صمت، سمع صوتاً من الداخل، صوتاً يشبه صوته لكنه كان أكثر نقاءً: ألسنت أنت من كان يهمل جسده في سبيل الروح؟!

انظر، ها هو جسدك ينتقم منك الآن، يريد منك أن تعترف به، أن تحبه، أن تحس به... ؛ عندها أدرك رحمن أن السرطان لم يكن مجرد مرض، بل كان صرخة جسده المهمل الأخيرة ... ؛ محاولة يائسة ليقول: أنا هنا أيضاً، أنا لست وعاء هامشياً، أنا أنت ...

ومع هذا الإدراك، بدأ رحمن يتصالح مع جسده المتألم، يربت على يده المنتفخة من المحاليل، يداعب قدميه المتورمتين، يهمس له: سامحني يا صديقي، لقد أهملتك طويلاً، والآن نحن هنا معاً ننتظر النهاية...

ومنذ تلك اللحظة، صار الألم أقل قسوة، صار كطفل يبكي ليلفت الانتباه، وحين حصل على الاهتمام، هدأ قليلاً ...

لكن النهاية كانت قادمة لا محالة، كقطار يأتي في موعده مهما تأخر ... ؛ وفي صباح أحد الأيام، بينما كانت الشمس تخرق الستائر بخجل، توقف صدر رحمن عن الحركة، وارتوى جسده في سريره كجندي عائد من حرب طويلة، منهك لكنه أخيراً في سلام ...

غادر رحمن الحياة بهدوء، تاركاً خلفه سريراً من رماد، وغرفة تنتظر ناكباً جديداً... وفي زاوية من زوايا الغرفة، كان هناك ظل خفيف يهمس: “ربما في المرة القادمة، سأعتني بجسدي كما أعتني بروحي، فأنا لست روحاً محمولة على جسد، بل أنا الكل، أنا الواحد الذي لا يتجزأ...

سلسلة من نار (٣٩)

نشأ أحمد في بيتٍ لم يكن ينقصه المال، بل كان ينقصه شيءٌ واحد: الهواء الهادئ.

كان والده، الحاج صادق، رجلاً يؤمن أن التربية لا تُبنى إلا على الصوت العالي.. لا يمرّ يومٌ في البيت دون صراخٍ، ولا خطأ دون عقوبة، ولا نقاش دون أن يتحوّل إلى مواجهة.

كان يقول دائماً:

«الابن إذا لم يخف أباه... ضاع.»

لكن أحمد لم يكن يرى في الخوف تربية، بل كان يراه شكلاً يومياً من الاختناق.

في إحدى الليالي، بعد صفةٍ تلقاها بلا سبب واضح سوى "سوء المزاج"، جلس أحمد على سطح البيت، يضغط كفه على وجهه ويهمس لنفسه:

«إذا كبرت... لن أكون هذا الرجل.»

لم تكن جملة ثورية، بل كانت وعداً خافتاً لطفلٍ يريد أن ينجو.

مات الحاج صادق بعد سنوات، وترك مالا لا بأس به، لكنّه ترك وراءه شيئاً أثقل: فراغاً من الطمأنينة.

كبر أحمد، وتزوَّج لاحقاً، وكأنّه يدخل حياة جديدة ليُصلح ما انكسر فيه..

, كان هادئاً، ليئلاً، شديد الحرص على ألا يرفع صوته في بيته.

كان يقول لزوجته أحياناً:

«لن أكرر أبي... يكفي ما رأيته.»

ورزق ثلاثة أولاد وبنات.

كان أقرب إلى صديق لأبنائه منه إلى أب تقليدي.. , يضحك معهم، يتنازل، يتفادى الصدام، ويغلق عينيه عن كثير من الأخطاء الصغيرة.

كان يعتقد أنه بذلك قد "كسر السلسلة".

لكن السلاسل، كما سيكتشف لاحقاً، لا تكسر بالنوايا.

كبر التوأمين: زيد وعلي.

وفي مرحلة المراهقة، بدأ البيت يتغير من جديد.

زيد، الابن الأكبر، صار يميل إلى التدين الصارم، لكنه تدينٌ يختلط فيه الإيمان بالحدة.. , كان يراقب والده أكثر مما يستمع له، ويقول له أحياناً بنبرة لا تخلو من اتهام:

«هذا ليس صحيحاً شرعاً... أنت تتساهل كثيراً.»

كان أحمد يرد بهدوء:

«الدين ليس سيفاً يا زيد... الدين فهم ورحمة.»

لكن الحوار بينهما كان يتحول سريعاً إلى جدار بارد.

أما علي، فكان الاتجاه الآخر تماماً.

غرق في هاتفه، في العالم الافتراضي، في صداقات سريعة ووهم أكبر من عمره.. , بدأ يكذب، يتأخر، ثم اختفت من حسابات أبيه مبالغ صغيرة... قبل أن تتحول إلى مبلغ كبير.

وفي ليلة واحدة، لم يعد علي إلى البيت.

مرّ شهرٌ كامل.

كان البيت فيه صمتٌ غير طبيعي، صمتٌ أثقل من الصراخ القديم.

أحمد لم يكن ينام.. , كان يخرج كل ليلة، يتصل، يبحث، يسأل، يزور الأصدقاء والأقارب.

كان يقول بصوت متعب:

«أريده حيًا... فقط حيًا.»

حتى وُجد علي أخيرًا في أربيل، وأُعيد إلى البيت.

لكن العودة لم تكن نهاية القصة.

في ليلة العودة، انفجر البيت.

صوت التوبيخ، صراخ العائلة، الغضب المتراكم.

وفي لحظة فقدان السيطرة، قرر أحمد أن “يوقف الفوضى”.

تم احتجاز علي في الغرفة الخلفية.

لم يكن الأمر مخططًا بالكامل، لكنه حدث تحت ضغط الخوف والغضب والعار العائلي.

سلاسل حديدية... باب مغلق... وطعام يُمرّر بصمت ثقيل.

كان علي يجلس هناك، يحتق في الجدار، كأنه لا يرى أباه بل يرى شيئًا آخر أعمق: انهيار الصورة.

ففي أحد الأيام السابقة، قال أحمد بصوت منخفض لنفسه:

«سأعيده... لكن بالقوة هذه المرة.»

ولم يدرك أنه يعيد إنتاج شيء ظن أنه انتهى داخله منذ زمن.

زيد رأى المشهد.

لم يرَ "تأديباً".

رأى إذلاًلاً.

وقف عند الباب للحظات، لا يتكلم.. , كان وجهه مشدوداً، وصوته الداخلي يتصارع:

«هذا ليس أبي... هذا ليس الرجل الذي وعد نفسه أن يكون مختلفاً.»

ثم خرج صامتاً.

صعد إلى غرفة والده.

لم يكن في عينيه بكاء، بل فراغ مشحون.

فتح درجاً جانبياً.

أخرج السلاح الذي كان محفوظاً منذ سنوات كجزء من "حماية البيت".

لم يكن يفكر بالموت كما يفكر الناس به.

كان يفكر فقط بإيقاف الصوت الداخلي الذي صار أعلى من كل شيء.

قال بصوت شبه مكسور:

«كفى...»

وضغط الزناد.

سقط الصمت فجأة، لكن ليس الصمت الذي يُشفي... , بل الصمت الذي

يُنهي كل شيء.

في الأسفل، كانت الأم تركض.

فتحت باب الغرفة الخلفية، قيود علي في يده، عينه لا تصدق ما يسمعه من صراخ.

قالت وهي ترتجف:

«زيد... زيد لا...»

لكن الجملة لم تكتمل.

علي فهم كل شيء دون شرح.

سقط على الأرض، كأن السلسلة التي في يده تحوّلت إلى داخل صدره.

صرخ:

«هذا أنا يا زيد ... انا السبب .. انتهى كل شيء!»

ثم اندفع خارجاً، لا يلتفت.

في تلك الليلة، بقي أحمد وحده.

جلس في غرفة صامتة، لا يشبه صمتها أي شيء عرفه سابقاً.

لم يعد يرى نفسه أباً صارماً أو أباً متسامحاً.

رأى فقط سلسلة طويلة تمتد خلفه... لا يعرف أين تبدأ.

تذكر صوت أبيه:

«الابن إذا لم يخف أباه... ضاع.»

ثم سمع صوته هو، في الماضي:

«لن أكونه.»

وبكى بمرارة، كأنه فهم أخيراً المفارقة القاسية:

أن الإنسان لا يهرب من أبيه... بل يعيد إنتاجه بشكل مختلف.

عند الفجر، كان الأذان يرتفع من بعيد.

لكن أحمد لم يسمعه كدعوة عبادة فقط.

سمعه كشيء آخر:

سؤال متأخر جداً.

جلس، يحدق في يديه، وكأنهما ليستا يديه.

وأدرك، لأول مرة، أن أخطر ما في القسوة...

أنها لا تموت مع أصحابها،

بل تبحث دائماً عن جسد جديد لتعيش فيه.

سَلَّمَ الذِّكْرُ الَّذِي قَادَ إِلَى الشَّيْطَانِ !!.. (٤٠)

لم يكن الشيخ حسن زاهداً بالمعنى الذي تُلصقه الكتب بالزهاد، أولئك الذين يمشون فوق الأرض كأنهم فقدوا ثقلها.

كان أقرب إلى رجلٍ مُنْهَكٍ من ذاته، يطارد طمأنينةً تتراجع كلما اقترب منها.. , لا تقوده العقيدة بقدر ما تقوده الحاجة: حاجةٌ خام، تشبه جوعاً لا يعرف اسمه.

كان يقرأ الأذكار كما لو أنها خرائط سرّية للخلاص، مقتنعاً أن للكلمات بنية خفية، وأن تكرارها ليس عبادة فقط بل إعادة تشكيل للداخل.. , في ليالي طويلة، كان يهمس:

“إذا تكررت الكلمة بما يكفي، ستتوقف عن كونها صوتاً... وتصبح باباً.”

في إحدى الزوايا المنسية من مكتبة قديمة، عثر على ذكرٍ منسوب إلى رجل غامض يُدعى رجب الخياط، قيل : إنه لا يذكر الله فقط، بل “يخيط الوجود بالذكر”، كأن الروح قماشٌ ممزق يحتاج غرزة دقيقة كي لا يتسرب منه الإنسان.

لم يسأل حسن عن صحة النسبة.. , كان التعب في داخله أقوى من الشك.
بدأ الذكر.

ألف مرة... ثم عشرة آلاف.

لم تعد الكلمات تُقال، بل كانت تُستنزف منه.. , كأن كل تكرار ينزع طبقة من جلده الداخلي.. , ومع الليلة العاشرة، لم يعد يعرف إن كان يذكر أم يُسندَكر.

في تلك الليلة، انطفأت الغرفة دون أن ينطفئ الضوء.. , شيء ما ظلّ يعمل في الظلام.

بين النوم واليقظة، انشقّ الهواء كجرحٍ بلا دم.. , وظهر الرجل الغريب .

كان طويلاً بشكل غير مطمئن، كأنه امتداد لفكرةٍ لم تكتمل في عقل الكون.. , بشرته شاحبة بلا مرض، وشعره منسدل كأنه خرج للتو من ذاكرة قديمة.. , لم يقترب بسرعة، بل بطريقة توحى أن المكان ملكه منذ البداية.

حسن همس، وقد تكسرت حنجرتَه بالخوف:

— أعوذ بالله...

ضحك الرجل.. , لم تكن ضحكة ساخرة فقط، بل ضحكة تُفكك المعنى من داخله.

وقال بصوت هادئ، أقرب إلى شرح بارد:

— أنا هو الذي تتعوذ منه , وأنا أيضاً أعرف الطريق إليه... ولكن بطريقتي.

تراجع حسن، ثم بدأ يقرأ ما يحفظه: آيات قصيرة، متقطعة، كمن يحاول تثبيت سقف ينهار.. , لكن الكائن لم يتأثر.. , بل بدا كأنه يستمتع بتفكك اللغة بين يديه.

تمددت الظلال في الغرفة.. , الجدران لم تعد جدراناً، بل احتمالات مغلقة.. , وحسن شعر لأول مرة أن الخوف ليس شعوراً، بل كائنٌ يجلس بالقرب منه .

اقترب الوجه.

لم يعد هناك “هو” و “الآخر” .. , فقط مسافة تتأكل.

وحين انعدمت المسافة، لم يجد حسن شيئاً يستند إليه سوى اسمٍ خرج من أعماقه، لا يعرف كيف وُلد فيه:

— يا علي...

سكت لحظة، ثم كررها، كأنه يتأكد أن الصوت ما زال يخصه:

— يا علي... يا علي...

في تلك اللحظة، لم يحدث انفجار ولا نور.. , حدث شيء أبسط وأشد رعباً: انكماش.

الكائن تراجع كأنه فقد اتساقه الداخلي، كأن الاسم لم يكن استغاثة بل مرآة عكست عليه هشاشته.. , تشوّهت ملامحه، لا إلى قبح فقط، بل إلى “لا شكل”.. , شيء لا يستطيع أن يثبت كونه موجودًا.

وهو ينسحب نحو الباب، قال بصوت متقطع، أقرب إلى وعدٍ مهزوم:

— ليست النهاية... أنت لم تفهم بعد.. ؛ سأعود يا حسن .

ثم اختفى.

استيقظ حسن على صمتٍ ثقيل، كأن الغرفة نسيت ما حدث لتوها.. , جسده كان متعبًا بشكل لا يفسّر، كمن عاد من حرب لا يتذكرها.

صلى.. , لكن الصلاة لم تكن راحة، بل سؤالاً مفتوحًا.

نام مرة أخرى.

في النهار، رن الهاتف.

رقم مجهول.

لم يكن هناك مقدمات.., صوتٌ بارد، واضح، كأنه لا يأتي من شخص بل من نظامٍ خفي:

— أنت تظن أنك نجوت؟

لم يرد.. , تجمد.

تابع الصوت:

— ما رأيته ليس خارجك... بل طريقتك في رؤيتك لنفسك.

ثم انقطع الاتصال.

جلس حسن طويلاً دون حركة.. للمرة الأولى، لم يعد السؤال: “من كان ذلك؟”

بل: “لماذا أنا الذي رآه هكذا؟”

بدأ الفهم يتسلل إليه ببطء مؤلم: ربما الذكر لم يكن باباً إلى الخارج، بل مرآة إلى الداخل.. , وربما ما يُسمّى بالشيطان ليس كياناً يهاجم، بل صورة تتشكل عندما يشتد الضوء على زوايا النفس غير المعترف بها.

منذ ذلك اليوم، تغير الذكر في فمه.

لم يعد يُقال ليُطرد شيئاً، بل ليكشف شيئاً.

كان يهمس:

“ليس لأهزم الظل... بل لأرى أين أبدأ أنا والظل معاً.”

وصار كل تكرارٍ خطوةً داخل نفسه، لا فوق عديٍ خارجي.

لم يعد يبحث عن الخلاص من “هناك”، بل عن صدقه “هنا”.

وفي ليالٍ لاحقة، حين يغمض عينيه، كان يسمع شيئاً يشبه الصمت وهو يتكلم، كأنه يقول له دون صوت:

“الطريق لم يكن إلى الله بعيداً عنك... بل إليك وأنت تظن أنك بعيد.”

شمعة اللاهوت وصومعة الظلام (١٤)

في الأزقة العراقية القديمة، حيث كانت الشتائم تُقال كما يُقال السلام، وحيث تختلط رائحة الطين بدخان النفط والكأبة، كان نذير مختلفاً منذ طفولته.

لم يكن يلعب كثيراً.

كان يقف عند حافة الأشياء، كأنه وُلِدَ خارج عمره الحقيقي.

بينما كان الصبية يركضون خلف كرة ممزقة، كان هو يحدّق في السماء متسائلاً:

كيف يرى الله كل هذا الخراب ويسكت؟

لم يكن يعرف لماذا كانت فكرة الله تسكنه بهذه الوحشية.

شيءٌ خفيّ يشده إلى الأعلى، بينما كل ما حوله يغرق في الأسفل.

وفي أحد أيام الصيف، كان أطفال الزقاق يتبادلون السباب المعتاد... ؛ ضحكات، ألفاظ قذرة، تحديات طفولية.. ثم صاح أحدهم:

— خرب .. ال ل

ولم يُكمل الجملة.

اندفع نذير نحوه كمن دُفع من داخله، وصفعه بقوة حتى انفجر أنف الطفل بالدم.

ساد صمت قصير، ثم بدأ الصراخ.

جاءت أم الطفل غاضبة، ترتدي عباءة سوداء ورائحة البصل والعرق تخرج منها مع الكلمات:

— ابنكم ضرب ابني! كاد يقتله!

التفتت أم نذير إليه:

— لماذا ضربته؟

كان صدره يرتفع بعنف، وعيناه مشبعتين بدمعة غامضة:

— لأنه سبَّ الله.

ضحكت المرأة بسخرية جارحة:

— وهل الله قرييكم حتى تدافع عنه؟!!

كبروا عقولك ... الدنيا خرابنة , وجنابك الكسيف تدافع عن الله!

ثم بصقت قرب الباب وغادرت.

أما نذير، فقد بقي واقفاً كأن أحدًا طعنه في مكان لا يرى.

في تلك الليلة لم ينم.

كان يسمع أصوات الرجال في المقهى القريب، سبابهم، ضحكاتهم،
أحاديث الحرب والتموين والحصار، بينما هو يغرق في سؤال واحد:

أين الله عن كل هذه الفوضى (الهوسه) ؟

كبر نذير، وكبر معه القلق.

كل سنة كانت تضيف إلى روحه طبقة جديدة من الوحشة النفسية والحيرة
الوجودية .

كان متفوقاً، نظيفاً، هادئاً أكثر مما ينبغي، حتى إن المعلمة ساجدة انتبهت
إليه منذ الأيام الأولى.

كانت تختلف عن بقية المعلمات.

صوتها منخفض، وعيناها فيهما حزن لا يخص المدرسة وحدها.

لاحظت طريقته في كتابة الإنشاء.

طفل في العاشرة يكتب عن الموت كأنه عجوز نجا من حربين.

أعطته مجلات الأطفال أولاً، ثم الكتب الصغيرة لاحقاً.

كانت تفتح له باباً سرّياً نحو العالم، بينما كان الوطن يغلق أبوابه كلها.

ومع السنوات، صار ينتظر حصتها أكثر من أي شيء آخر.

لم يكن يفهم ما يشعر به.

هل كانت أمّاً؟

أختاً؟

قديسة؟

امراً؟

في المجتمعات المغلقة تختلط المسميات، وتضيع الحدود بين الحنان والرغبة، بين التربية والعشق، بين الاحتواء والجوع العاطفي.

كانت ساجدة ترى فيه شيئاً نادراً وسط الخراب:

روحاً لم تتلوث بعد.

وكان يرى فيها خلاصاً صغيراً من قسوة العالم.

حين بلغ الصف السادس، كان جسده قد بدأ يستيقظ بطريقة مرعبة.

صار يشعر بانتصاب مفاجئ كلما اقتربت منه المعلمة، فيرتعب من نفسه.

يحاول أن يخفي الأمر خلف حقيبتة أو انحناء مرتبكة.

كان يشعر أن جسده يخونه.

روحه تريد الطهارة، لكن الجسد يسحبها نحو الأرض.

وكان هذا التمزق بداية الكارثة.

في العراق آنذاك، لم يكن الحب البريء مفهومًا ؛ مفهومًا قابلاً للحياة.

كل شيء محكوم بثلاثية: العيب، العار، الخوف.

الناس لا يصدقون الأرواح، بل يصدقون الفضائح فقط.

ولهذا ظل كل شيء صامتًا.

مجرد نظرات طويلة، وأسئلة مدرسية تتحول إلى ارتباك، وصمت مشبع بما لا يُقال.

حتى جاء يوم الوداع.

نجح نذير وانتقل إلى المتوسطة، بينما بقيت ساجدة واقفة عند باب المدرسة تراقب الطلاب الخارجين.

وحين مرَّ قريبها، اكتفت بقول:

— لا تضع نفسك يا نذير.

كانت تعرف أن شيئًا مظلمًا ينتظره.

لكنه لم يفهم الجملة إلا بعد سنوات.

في المتوسطة، دخل عالمًا آخر.

المراهقون يتحدثون عن النساء، الصور الخليعة، المغامرات الرخيصة، بينما صور القائد الضرورة تراقب الجميع من الجدران.

المدرسة كانت تكتنئ مصغرة.

المدير رجل يشبه ضابط تحقيق أكثر من كونه مربّيًا.

هناك تعرّف على راضي.

كان مختلفًا.

هادئًا، حادّ النظرات، يحمل كراهية عميقة للعالم.

علم لاحقًا أن والد راضي أعدم بتهمة الانتماء لجماعة دينية معارضة.

لكن راضي كان يقول دائمًا:

— أبي لم يكن سياسيًا... كان فقط يبحث عن الله أكثر مما تسمح به الدولة.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ التحول.

شيئًا فشيئًا، صار نذير يرى العالم فحًا شيطانيًا.

الضحك خطيئة.

الرغبة نجاسة.

الجسد عدو.

ترك الموسيقى.

ترك اللعب.

ترك النوم.

أصبح يصوم باستمرار حتى شحب وجهه.

يصلي ليلاً حتى تتعب قدماه.

يمشي مطأطئ الرأس كأنه يحمل نعثًا غير مرئي.

وكان كلما تذكر ساجدة يشعر بوخز مرعب.

كيف أحب امرأة؟

كيف سمح لجسده أن يشتهي؟

صار يستغفر من ذكرياته نفسها.

ثم جاءت مرحلة أكثر ظلمة.

خلق شعره بالكامل.

وقف أمام المرأة يتأمل رأسه الأصلع، شاعراً أن الشعر جزء من الخطيئة.

وحين رآته عمته شهقت:

— ما الذي فعلته بنفسك يا بني؟ الشباب يتباهون بشعرهم وأنت تحلقه كالمجانين!

لكنه لم يجب.

كان يشعر أنه يقتل شخصاً داخله.

بعد ثلاثة أيام فقط، حدث ما لم يكن يتوقعه.

طرقت ساجدة باب البيت.

كانت برفقة معلمة أخرى، وقد مرتا صدفة من الشارع القريب فأرادت الاطمئنان عليه بعد انقطاعه الطويل.

استقبلتهما أم نذير بحفاوة بسيطة، ثم أسرعت إلى غرفته.

كانت الغرفة شبه مظلمة.

كتب دينية مكدسة.

رائحة عرق وصيام وسهر.

وشاب جالس في الزاوية كأنه ناسك مهجور.

قالت الأم مبتسمة:

— الست ساجدة جاءت لتراك.

رفع رأسه فجأة، وفي عينيه خوف متوحش.

صرخ:

— أخرجيها فوراً!

أما تخافين الله؟!

تجمدت الأم في مكانها.

ولأول مرة شعرت أن ابنها لم يعد ابنها.

خارج الغرفة، كانت ساجدة تسمع الصراخ.

فهمت كل شيء دفعة واحدة.

ذلك الطفل الذي أحبَّ الله أكثر من الجميع...

ابتلعه الله نفسه.

خرجت بصمت.

وعندما وصلت إلى باب الزقاق، التفتت نحو البيت للحظة.

كان الغروب يبتلع الجدران العتيقة ببطء، فيما ارتفع أذان بعيد ممزوج

بصوت مولدة كهرباء مختنقة.

أدركت أن نذير لم يعد يبحث عن الحقيقة.

بل صار يهرب من الحياة.

أما داخل الغرفة، فقد جلس نذير وحده، يرتجف.

لم يكن يعرف إن كان انتصر على الشيطان...

أم خسر نفسه إلى الأبد.

شيطان الأرق ... (٤٢)

رغم السويغات القليلة التي يحاول أن يختلسها من بين أنياب اليقظة، كمن يسرق ماءً من نهرٍ متوحّش، ما إن يضع رأسه على الوسادة ويمدّ جسده المتشجّج فوق الفراش، حتى تنقضّ عليه الكوابيس دفعةً واحدة.

تأتيه لا كأحلامٍ عابرة، بل كغزوٍ منظم، كأن شيطان الأرق قد كُتبت له الوصاية على لياليه، فلا يتركه يعبر إلى الضفة الأخرى من النوم.

يرى بنت عمّه تخرج من باب الدار، لا تلتفت خلفها، كأن البيت لم يكن يوماً مأوى...؛ تمضي إلى شارعٍ مهجور، يبتلع خطواتها بصمتٍ ثقيل، تصحب طفلها الصغيرين، تتقدّم بهم كمن يقود ظليّه إلى المجهول...؛ وجهها شاحب، وعيناها معلقتان في فراغٍ لا طريق له، كأنها لا تعرف أين تذهب، ولا من يسوقها إلى هذا المصير...

ينتفض صارخًا، وقد خرج الصوت من أعماقه قبل أن يمرّ بعقله:

خديجة... خديجة... خديجة، أين أنت؟

ينهض من فراشه مذعورًا، يركض عبر باب الدار الذي تركته مفتوحًا، كأنها كانت على عجلٍ من الرحيل، أو كأن الأبواب لم تعد تعترف بالحدود... ؛ يصل إلى الشارع، فلا يرى إلا الفراغ، ولا يسمع سوى صدى اسمه يرتدّ عليه... ؛ لا خديجة، ولا طفلين، ولا أثر يدلّ على مرور بشر...

يصرخ من جديد، وقد صار النداء أثقل من أن يُحتمل، يختنق في صدره قبل أن يبلغ الهواء:

خديجة... خديجة... خديجة!

يركض نحو باب دار أبيه الملاصقة لدار عمّه، يطرق الباب بعنف، كأن الخشب مسؤول عن هذا الفقد... ؛ ينادي اسمها، لا ليستدعيها، بل ليؤكد لنفسه أنها ما زالت موجودة في هذا العالم...

يفتح الباب...

وها هي تقف أمامه، مبتسمة، هادئة، كأن شيئاً لم يحدث، وكأن الشارع المهجور لم يكن سوى وهم... ؛ تقول بصوتٍ بسيط، خالٍ من الفزع:

— نعم، أنا خديجة... ما بك يا محمد؟

عندها يستيقظ محمد فجأة، جالساً في فراشه، وقلبه يخفق كطائرٍ اصطدم بزجاج الواقع... ؛ يتلّفت حوله، يتلمّس جسده، يتحقّق من الغرفة... ؛ تمتد يده إلى الهاتف، يريد أن يسمع صوتها الحقيقي، أن يربط الحلم باليقين.

ينظر إلى الساعة، فإذا بالعقرب يشير إلى الثالثة والنصف مساءً.

ليس فجرًا... ولا ليلاً.

وقتٌ معلّق، كحاله تمامًا.

يحاول عبثاً أن يعود إلى الفراش، لكن النوم، وقد ذاق طعم الخوف، يرفض أن يعود.

الساعة التي لا تنام... ؛ كان ينام ليهرب من النهار، من ثقله، من أسئلته المباشرة... ؛ فيوقظه الليل متنكراً في هيئة سؤالٍ أعمق...!!

كلما أغمض عينيّه، تسالت الذاكرة من شقوق الظلام، كدخان يعرف طريقه إلى الرئتين... ؛ تعبث بملامحه، تشوّه الصور، وتعيد ترتيب الوجوه، كما تعبث الريح بورقةٍ يابسةٍ فقدت الشجرة والعنوان.

يرى نفسه يسير في بيتٍ بلا جدران، لا يحميّه سقف، ولا يحده اتجاه... ؛ أصوات أحبّته تتدلى من السقف الوهمي، كالمصابيح المنطفئة ؛ موجودة، لكنها لا تُنير... ؛ يناديهم بأسمائهم، فتحييه الجدران الخفية بصدى اسمه فقط، كأن العالم قد اختصر نفسه فيه، ثم نسيه...!!

تقترب منه ساعة حائط، معلّقة في الهواء، بلا عقارب، بلا زمن... ؛ تحدّق فيه طويلاً، ثم تقول بصوتٍ منكسرٍ، كمن يعترف بحقيقة مؤلمة:

— أنت لا تخاف النوم...

أنت تخاف ما يتذكرك فيك.

ينتفض، وقد غمر العرق جبينه، ويجلس على حافة السرير، نصفه في الحلم ونصفه في اليقظة... ؛ يمدّ يده نحو الهاتف، ثم يتراجع، كأن الاتصال بالحقيقة يتطلب شجاعةً لا تقلّ قسوة عن مواجهة الكابوس.

ينظر إلى النافذة، فيرى الليل واقفاً هناك، صامتاً، بلا تعاطف، ينتظره
كما ينتظر القاضي متهمه ...

عندها يفهم، أخيراً، أن الأرق ليس عجز الجفون عن الانغلاق،

بل قدرة الذاكرة على البقاء مستيقظة،

وأن النوم ليس راحة ؛ نعم , كان يظن أن النوم بابٌ جانبيٌّ للراحة، فإذا
به ممرٌ سرّي إلى ذاته... ؛ بل هدنة مؤقتة مع ما لا يجرؤ القلب على
نسيانه.

عندها فهم، لا بعقله بل بتقله الداخلي،

أن الأرق ليس غياب النوم،

بل حضور الذات كاملةً، بلا أقنعة،

وأن بعض الناس لا يُعذَّبون لأنهم لا ينامون،

بل لأنهم، كلما أغمضوا أعينهم،

استيقظوا على حقيقتهم...

صدي اليقين (٤٣)

في شقة ضيقة بأحد الأحياء العتيقة، حيث الرطوبة تلتهم أطراف الجدران، كان سليم مستلقياً فوق سريره الحديدي يتأمل تشققات السقف الممتدة كأنها خرائط لسنواته المتعبة.

منذ ستة أشهر وهو يدور في حلقة مغلقة: أبواب تُفتح قليلاً ثم تُغلق، ووعود عمل تتبخر، ومدخرات تتآكل ببطء كشعلة تُستهلك في غرفة مهجورة.

لم يكن رجلاً بعيداً عن الله تماماً، ولا قريباً منه تمام القرب.

كان إيمانه يشبه ضوء مصباح خافت يتردد بين الاشتعال والانطفاء.

حين تضيق به الدنيا يرفع يديه بالدعاء، وحين تهدأ العاصفة قليلاً يعود إلى انشغالاته الصغيرة، كأن الطمأنينة المؤقتة تنسيه هشاشته القديمة.

في تلك الليلة عاد من مقابلة عمل أخيرة بخطوات ثقيلة.

ألقي مفاتيحه فوق الطاولة الخشبية، ثم جلس في الظلام بعدما انقطعت الكهرباء مجدداً.

كان الليل ساكناً على نحوٍ مخيف، حتى بدا صوت أنفاسه كأنه شيء غريب يتحرك في الغرفة.

أخرج ما تبقى في جيبه من نقود وعدّها بصمت.

أسبوع آخر فقط... ثم ماذا؟

أسند رأسه إلى الحائط وأغمض عينيه متعباً.

وعند تلك اللحظة، تسلل من خلف الجدار صوت جاره العجوز، واهناً ومتقطعاً، لكنه دافئ على نحوٍ غريب:

“أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ...”

ثم عاد الصمت.

كان سليم يعرف ذلك الرجل جيداً.

عجوز يعيش وحيداً منذ سنوات، بعد أن فقد زوجته ثم ابنه الوحيد في حادثٍ قديم.

ومع ذلك، لم يسمعه أحد يشكو يوماً.

كل صباح كان يخرج بوجهٍ هادئ، يحمل كيس الخبز بيد، ومسبحته بالأخرى، ويتمتم: “الحمد لله”.

ظل سليم دقائق طويلة ينظر إلى الجدار الفاصل بينهما، قبل أن ينهض فجأةً ويتجه إلى باب جاره.

فتح العجوز الباب ببطء، وعلى وجهه تلك الطمأنينة التي تثير الحيرة أكثر مما تمنح الراحة.

تردد سليم قليلاً، ثم قال بصوت خافت:

— كيف تستطيع أن تحمد الله بعد كل ما خسرتَه؟

تأمل العجوز وجهه المتعب دون أن يجيب مباشرة.

ثم أشار إلى ساعة حائط قديمة معلقة قرب النافذة.

كانت عقاربها تتحرك ببطء، فيما يغطي الصداً أطرافها.

قال مبتسماً:

— هذه الساعة تتعطل كثيراً... أحياناً تتوقف ساعات كاملة، ثم تعود للدوران وحدها بعد أن أطرق عليها بيدي قليلاً.

وصرت كلما تعطلت أتذكر شيئاً واحداً: أن الأشياء المتعبة لا يعني أنها قد انتهت.

اقترب سليم من الساعة يتأمل صوتها الخافت.

تابع العجوز بصوت هادئ:

— الإنسان أيضاً يصدأ من الداخل... بالخوف، والخسارة، وطول الانتظار.

لكنه ما دام يتحرك، وما دام قلبه قادراً على الرجاء، فهناك دائماً وقت لم ينته بعد.

لم يجد سليم ما يقوله.

جلس دقائق صامتاً، يستمع فقط إلى حركة العقارب المتناقلة، كأنها تنبض داخل الغرفة.

حين عاد إلى شقته، لم يشعر بأن شيئاً كبيراً قد تغير، لكن ثقلاً خفيفاً بدا وكأنه انزاح قليلاً عن صدره.

وفي الصباح، بينما كان يجلس على حافة سريره، وهو يحتسي فنجان قهوة رخيصة، رن هاتفه للمرة الأولى منذ أيام...؛ كان صديقاً قديماً لم يكلمه منذ ثلاث سنوات، يعرض عليه مشروعاً صغيراً يحتاج فيه إلى خبرته...؛ لم تكن صدفة...؛ أدركها سليم هذه المرة...؛ فقد كانت هناك يد خفية تنسج الخيوط في الظلام...

منذ ذلك اليوم، لم يعد سليم يفاوض الله...؛ صار يدعوه في الشدة والرخاء...؛ لم يعد ينتظر المعجزة ليؤمن، بل آمن ليرى المعجزات في

كل شيء: في نملة تحمل قوتها، في سحابة تمر، في ساعة جاره الصدئة
التي لا تزال عقاربها تدور ...

أنهى المكالمة وبقي واقفاً قرب النافذة.

في الخارج كانت المدينة تستيقظ ببطء ...

صرخة في سكون ظلام الزمن الأخير (٤٤)

في تلك المدينة التي كانت تتقن فنّ التواطؤ مع الخوف، لم يكن الليل
مجرد وقتٍ من اليوم، بل سلطةً كاملة تُمارس طقوسها على الأرصفة
والبيوت والصدور المغلقة.

كانت الشوارع تنام على جثث ضوئها الباهت، والنوافذ تُطبق أجفانها
كانها لا تريد أن ترى ما يحدث في الخارج... أو ربما في الداخل أيضاً.

في الزقاق الخلفي من المدينة، انشقّ الصمت.

لم يكن الصوت عادياً.

كان أشبه بجرحٍ فتح فمه فجأة في جسد الليل.

صرخت.

“لا... لا تقتربوا!”

لم تكن الصرخة مجرد حروف.. , كانت شيئاً أعمق، كأنها محاولة أخيرة
لإثبات أن الإنسان ما زال قادراً على الرفض قبل أن يُمحى تماماً.

لكن المدينة لم تكن مدينةً تسمع.

كانت مدينةٌ تُدرب صمتها على التجاهل.

من خلف الأبواب، تحركت ظلال.

أحدهم قال بصوتٍ خافت وهو يتنأب:

— “مرة أخرى... نفس الفيلم.”

آخر ضحك:

— “دعها تنتهي بسرعة، لدينا عمل صباحًا.”

أما الليل، فقد كان يعرف ما يجري جيدًا، لكنه لم يتدخل.. , الليل في هذه المدينة ليس حياديًا... بل شريك.

اقتربوا منها.

لم تكن ترى الوجوه بوضوح، لكنها كانت تشعر بها:

وجوه بلا ملامح تقريبًا، كأنها صُنعت على عجل من طينٍ وغضبٍ قديم، من عيون لا تعرف النوم إلا لتستيقظ على الأذى.

أحدهم أمسك بذراعها.

آخر دفعها إلى الجدار.

قال بصوت جاف، بارد كالمعدن:

— “كان عليك أن تصمتي.”

فأجابت، وهي تتنفس بصعوبة، كأن الهواء نفسه صار خصمًا:

— “الصمت هو الذي جاء بكم أولاً... ثم جعلني الهدف التالي.”

تبادلوا نظرات سريعة.. لم يكن في كلامها ما يهددهم، لكن في نبرتها شيء يزج توازنهم الداخلي، كأنها تفضحهم دون أن تصرخ.

ثم حدث ما يحدث دائماً حين تفشل الكلمات:

تحولت المدينة إلى جسد بلا أخلاق.

سقوط... دفع... ارتطام... صمت أكثر كثافة من السابق.

لكن الصرخة الأولى لم تمت.

بل انقسمت.

جزء منها بقي في الهواء، يتردد بين الجدران، وجزء آخر عاد إليها، كأنه لا يجد مكاناً في العالم سوى صدرها.

حين خفت الحركة، لم يبق سوى أثر باهت على الأرض: دم مختلط بماء لا يُعرف إن كان مطراً أم عرق المدينة نفسها.

كانت مستلقية، لا كجثة كاملة، بل كفكرة لم تكتمل.

وفوقها، وقف الليل.

لكن هذه المرة، لم يكن صامتاً تماماً.

كان هناك شيء يشبه الارتجاف في هوائه... كأن الصرخة، رغم كل شيء، نجحت في خدش توازنه.

وفي مكان ما من المدينة، استيقظ طفل لم يعرف لماذا بكى فجأة.

رأس ممتلئ بالغياب (٤٥)

كان أيوب يخشى النوم أكثر مما يخشى الموت.

فالموت احتمالٌ بعيد، أما النوم فكمينٌ يوميّ، يسقط فيه كل ليلة دون مقاومة.

وما إن تغمض عيناه حتى تبدأ تلك الحديقة المعتمة بالتفتح داخل رأسه؛ وجوهٌ يعرفها قبل أن يراها، أصواتٌ تأتيه من أماكن لم يزرها، وأحداثٌ لم تقع بعد لكنها تتحرك في داخله كذكريات قديمة.

في طفولته، ظنت أمه أن الله اصطفاه بشيء من الكرامة.

كانت تمسح على رأسه كلما أخبرها بما رأى، وتقول بصوت خفيض يشبه الدعاء:

— قلبك نظيف... لذلك ترى ما لا يراه الآخرون.

لكن أباه كان ينظر إليه كمن ينظر إلى شرخٍ في الجدار.

لا يوبخه، ولا يصدقه أيضاً. فقط يشيح بعينه عنه، وكأنه يخاف أن تنتقل العدوى إلى البيت كله.

ومع السنوات، تعلّم يونس أن يصمت.

اكتشف مبكراً أن الناس لا تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة حين تأتي مبكرة أكثر من اللازم.

فالإنسان يستطيع احتمال المصيبة بعد وقوعها، لكنه ينهار إذا رآها تزحف نحوه ببطء.

في الجامعة، صار أكثر عزلة.

لم يكن منطوياً بالمعنى التقليدي، بل بدا كمن يعيش بتوقيت مختلف عن الآخرين. يضحك متأخراً، يصمت فجأة أثناء الحديث، وينظر طويلاً إلى الوجوه كأنه يقرأ خلف الجلد شيئاً لا يريد أحد الاعتراف به.

أصدقائه وصفوه بالحساس.

بعضهم قال إنه مكتئب.

آخرون اعتقدوا أنه متصوف ضلّ طريقه إلى قسم الفلسفة.

أما هو، فلم يكن يعرف على وجه الدقة ما الذي يحدث له.

كان يشعر فقط أن روحه أرهف من اللازم، وأن العالم خشنٌ بصورة لا تُحتمل.

في إحدى الليالي رأى صديقه “سالم” واقفاً تحت جسر قديم، يحرق في الماء الأسود أسفله.

لم يتكلم سالم في الرؤيا، لكنه التفت نحوه بعينين مطفأتين، ثم اختفى.

استيقظ ايوب مذعوراً.

ظلّ الحلم يطارده طوال النهار، حتى قرر الاتصال بسالم. لم يجب.

وفي المساء، انتشر الخبر سريعاً:

سالم ألقى بنفسه من فوق الجسر.

يومها أدرك ايوب أن ما يراه ليس أوهاماً عابرة.

كانت الرؤى تتحقق بدقة مرعبة، كأن القدر يسرّب إليه مسوداته الأولى قبل اعتماد النسخة النهائية من الكارثة.

ومنذ تلك الحادثة، بدأ شيء داخله يتآكل ببطء.

صار يخاف التعلّق بالناس، لأن كل حبٍّ جديد يعني احتمال رؤية نهايته مسبقاً.

كان يشعر بأنه يحمل مقبرة مؤجلة في رأسه.

حتى المدينة تغيّرت في نظره.

الشوارع بدت له كأنها تسير نحو مصائرهما دون أن تدري؛ البائع العجوز الذي سيختفي قريباً، الطفل الذي ستبتلعه الحرب بعد أعوام، المرأة التي تضحك الآن بينما الخيانة تنمو خلف ظهرها كفطر سام.

كل شيء كان هشاً بصورة موجهة.

وذاث فجر، رأى نفسه للمرة الأولى.

كان جالساً في غرفة ضيقة بلا أبواب، وعلى الجدار المقابل كُتبت عبارة بخط أسود:

“المعرفة التي لا تغيّر شيئاً... عقوبة.”

استيقظ مرتجفاً، وشعر بأن الحلم لم يكن رؤيا هذه المرة، بل حكماً.

لأيام طويلة، ظل يفكر في العبارة.

ما جدوى أن يرى ما سيحدث إذا كان عاجزاً عن منعه؟

هل المعرفة نعمة فعلاً، أم شكل آخر من أشكال العذاب؟

وهل اختار الله البشر الجهل رحمةً بهم؟

بدأ يميل إلى العزلة أكثر.

لم يعد يشارك أحداً بما يرى، ليس خوفاً من السخرية، بل خوفاً من التحول إلى شاهدٍ أبدي على انهيارات لا يستطيع إنقاذها.

ومع الوقت، صار يشك حتى في نفسه.

هل الرؤى حقيقة؟

أم أن عقله المرهق صار بارعاً في صناعة المصادفات؟

هل كان يرى المستقبل... أم كان فقط يبالغ في تأويل العالم بسبب حساسيته المفرطة؟

ذلك الشك كان أكثر قسوة من الرؤى ذاتها.

فالإنسان يستطيع احتمال اللعنة، لكنه ينهار حين يشك بسلامة عقله.

في الليلة الأخيرة، رأى حلمًا مختلفًا.

لم تكن هناك وجوه، ولا موتى، ولا جسور.

رأى فقط مدينة كاملة نائمة تحت سماء رمادية، بينما الناس يسيرون داخل أيامهم كالعميان، يتقاتلون ويحبّون ويخدعون بعضهم بعضًا، دون أن يدركوا هشاشتهم الهائلة.

وفجأة، وسط ذلك الزحام، لمح نفسه يمشي بينهم بهدوء... بلا خوف.

اقترب منه أكثر.

كان وجهه متعبًا، لكنه مطمئن على نحو غريب.

ثم سمع صوته يقول:

— النجاة ليست في أن ترى القدر... بل في أن تتصالح معه.

استيقظ قبل الفجر بقليل.

فتح النافذة، فدخل هواء بارد ورائحة مطر بعيد.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يشعر بالرعب من الليل.

في الخارج، كانت المدينة ما تزال نائمة، غارقة في جهلها الرحيم.

أما أيوب، فجلس بصمت يتأمل السماء، كمن أدرك أخيرًا أن الروح التي ترى أكثر من اللازم... تحتاج أحيانًا أن تغض عينيها كي تعيش.

درج إلى الأعلى... ومرتأة إلى الداخل (٤٦)

دُعي إلى مؤتمرٍ ما ... ؛ يعرف دهاليزه كما يعرف خطوط كَفّه ؛ وهو الضَّليغُ بمثل هذه الأمور... ؛ فالمكان صديقٌ قديم، والطقوس محفوظة عن ظهر قلب.

وحين همَّ بالصعود إلى الطابق الثاني، عبر سلالم مريحة أنيقة مكسوّة بالمرمر الإيطالي الذي يلتقط أضواء ثريات الكريستال الذهبية ليحيلها إلى شظايا لبنية متألّئة ، كانت قاعة المؤتمر تلوح واضحةً كوضوح الشمس في رائعة النهار؛ تُرى من الطابق الأرضي، بل كان المرء يستطيع رؤية بابها العالي المنفتح على الطابق الأرضي، كفم معتمٍ يبتلع الاضواء ... ؛ وكان صوت عريف المؤتمر يصل الى كافة أرجاء الفندق عبر مكبرات الصوت كأنه نفخة إسرافيل تُوقظ الحجر.

ومع هذا الوضوح كلّه، ومع هذا الصخب الذي لا يترك مجالاً للتّيه... ؛ برزت فجأة كشبح من زمن منسي... ؛ عجوز شمطاء، تجرّ أذيال “التصابي” كرداء مهترئ... ؛ وضعت على محياها - ذلك المحيا الذي تشقّه تجاعيد عميقة كأخاديد على لوح طيني قديم، رغم عمليات التجميل وسحب البشرة التي بدت كخريطة مُزورة - كمية هائلة من مكياج مستهلك ونافذ الصلاحية : أحمر شفاه قرمزيّ ينزلق خارج حدود الشفتين الرقيقتين، ووجنتان ورديتان كدمى مسوّسة، وعيون مُحاطة بدائرات زرقاء داكنة كهالات سوء... ؛ نعم ، قد طمست وجهها بطبقات من مكياج هجين، تحاول أن تُخفي تجاعيد فضحتها عمليات شدّ البشرة قبل أن يفضحها الزمن... ؛ وكانت ملامحها مزيجاً مربّكاً من ماضٍ يرفض الرحيل وحاضرٍ يرفض الاعتراف.

وفي قلب هذا الوضوح المطلق، والصخب المنظم، اقتربت منه وسألته سؤالاً أخرق، وهو الضليع بمثل هذه الأمور، الزيرُ سابقاً، العفيفُ لاحقاً: — كيف تصل العجائز إلى القاعة، يا فتى؟

لم تكن تسأل عن الاتجاه، بل كانت تطلق سؤالاً أبله، مقصوداً... ؛ سؤالاً يخفي في طياته استنكاراً للزمن، وتحدياً للحالة الطبيعية أو الاستقامة، وتلميحاً لرغبة عتيقة... ؛ سألته وكأنها، بكل هذا المكياج، قد اخترقت جدار الشيخوخة، أو اختزلته في مجرد نظارة يمكن نزعها... ؛ سألته وكأنها ما تزال في ربيعها العشريني، بسذاجة ممزوجة بدهاء خبيث... ؛ سألته لتغريه بما تبقى من أنوثة متهاكة، كي يردّ بالجواب التقليدي للمتملقين أو الخجولين: “كلا، أنت لا تزالين في ريعان شبابك، قوية، جميلة...”.

لم تكن تبحث عن اتجاه، بل عن مرآة...

كانت تريد، في قرارة نفسها، ليلة خاطفة في فندق بعيد عن موطنها... ؛ ليلة خيانة تختبر فيها قدرتها المتهاربة على الإغواء، فتستعيد، ولو للحظة، سجلّ خياناتها المتعددة حين كانت الصورة في المرآة تطابق رغبتها، وحين كان الجسد طيَّعاً لا يخون بالترهل والتجاعيد... ؛ ليلة تثبت لها أنها ما تزال هناك، داخل جسد الحياة، وليست مجرد شبح يتردد في دهاليز الماضي.

لكنه لم يجمال... ، نظر إليها بنظرة طبيب يحضر لتشريح جثة، أو فيلسوف يمعن النظر في خراب مبدأ ما... ؛ لم يكن قاسياً بقدر ما كان واضحاً، والوضوح أحياناً أقسى من السكين... ؛ اذ قال بنبرة جادة وملامح حادة: — الدرج أمامك... ؛ وعلى الرغم من كبر سنك، تستطيعين الصعود عبره... ؛ لقد صعد من هو أكبر منك سنّاً...!!

كانت الكلمات بسيطة، لكنها سقطت كحقيقة غير قابلة للمساحيق والتجميل ... ؛ فغاصت ملامحها فجأة في بحر من التجاعيد القاسية، كأن قناع المكياج الهجين انكمش مُفرزاً السطح الأصلي البائس تحته... ؛ سكنت سكوتاً ثقيلاً، وكأن على رأسها الطير... ؛ سكوت من هُزمت فيه كل حجج الوهم، وبقيت المرأة العجوز وحدها في مواجهة مرآة لم تكن لتكذب أبداً... ؛ صمتت ؛ لا غضب، بل انكسار لحظة سقوط القناع...

أما هو، فولّى هارباً، لا منها وحدها، بل من صورته القديمة فيها... ؛ شعر بالغثيان، لا اشمئزاً من جسدٍ هرم، بل من محاولة الهروب الجماعية التي يمارسها البشر حين يرفضون الاعتراف بأعمارهم، وبحودهم، وبأن الرغبة إذا لم تُهدَّب تحوّلت إلى استعارة رديئة للحياة...

وفيما كان يصعد الدرج، أدرك فجأة أن السلالم ليست طريقاً إلى قاعة فحسب، بل امتحاناً أخلاقياً صامتاً: من يصعدُها يعتزف بثقل جسده وخفة روحه، ومن يبحث عن مصعدٍ وهمي إنما يطلب اختصاراً للحقيقة... ؛ هناك، بين الممرر والصوت العالي، فهم أن الشيخوخة ليست عيباً، وأن العيب كل العيب أن نعيش غرباء عن أنفسنا، نساوم الزمن ولا نتصالح معه، ونطلب من الآخرين أن يكذبوا نيابةً عنا كي نستمر... .

لقد رأى المجتمع بكامله يتخفى وراء أقنعة، يخون ذاته بحثاً عن تأكيدات واهية... ؛ رأى الزمن، ذلك الطاغية الصامت، يسخر من الجميع: من العجوز التي ترفضه، ومنه هو الذي يحاول، بصعوده إلى مؤتمرات الفكر، أن يهرب من صعود آخر، حتمي، نحو هوية مجهولة... ؛ شعر كأن كل درجة يقطعها على السلالم الممرية هي خطوة أبعد عن براءة الماضي، وأقرب إلى قاعة كبيرة، صاخبة، مليئة بالأصوات المكبرة والأقنعة المتعددة، حيث الجميع مدعون، وأحد لا يعرف حقاً إن كان المكان مؤتمراً، أو محكمة، أو استراحة أخيرة قبل الصعود إلى طابق لا سلّم له...

حين يصبح الطيبون سبباً للبكاء (٤٧)

لم يكن سالم رجلاً استثنائياً بالمعنى الذي تصنعه الشهرة أو الأموال، بل كان استثنائياً بذلك النوع الخفي من البشر الذين يمرّون في الحياة كنسمة دافئة، لكن غيابهم يترك الشتاء خلفهم طويلاً.

كان يعود كل مساء إلى بيته حاملاً أكياس الخضار والفواكه والحلوى، فيركض أطفاله نحوه بلهفة العصافير الصغيرة حين ترى الحبّ ينثر أمامها. يضحك بصوت هادئ، ويجلس بينهم كأنه واحد منهم، لا أب أثقلته الحياة.

كانت زوجته زينب كثيراً ما تنتظر إليه بصمت، متعجبة كيف يستطيع رجلٌ يعمل منذ الفجر حتى المساء أن يحتفظ بكل هذا الحنان. فإذا بكى أحد أطفاله لأمرٍ صغير، احتضنه سالم كأن العالم كلّهُ انكسر في قلب ذلك الطفل. وإذا ضاقت زينب بأعباء البيت، أخذ عنها بعض الأعمال وهو يقول مبتسماً:

— “يكفي الإنسان ما تحمله الحياة فوق ظهره... فلا داعي لأن نحمل بعضنا فوق ذلك هموماً أخرى.”

وكان صديقه وقريبه حيدر شديد التعلّق به، لا لأنه قريبٌ فحسب، بل لأنه رأى فيه الصورة التي كان يتمنى أن يكونها الإنسان. كان يراقبه بدهشة: لا يرفع صوته، لا يهين أحداً، ولا يردّ القسوة بمثلها.

وفي إحدى الليالي، جلس حيدر معه على سطح المنزل بعد انقطاع الكهرباء، وكانت المدينة غارقة في الظلام إلا من ضوء قمرٍ شاحب.

قال حيدر: — “يا سالم، كيف تستطيع أن تبقى هادئاً رغم كل هذا الخراب؟ الناس صارت عصبية، قاسية، متعبة... أما أنت فكأنك خارج هذا العالم.”

ابتسم سالم طويلاً قبل أن يجيب: — “لأنني أدركت متأخراً أن الإنسان لا يعيش طويلاً كما يظن. نحن لا نملك من الدنيا إلا أثراً في قلوب الآخرين. بعض الناس يتركون مالا، وبعضهم يتركون جراحاً... والقليل فقط يتركون طمأنينة.”

سكت قليلاً ثم تابع: — “أتعرف ما المأساة يا حيدر؟ ليست في الموت... بل في أن يموت الإنسان قبل أن يكون رحيماً.”

ظلت تلك العبارة عالقة في ذهن حيدر كأنها وصية خفية.

بعد أسابيع، جاء رجلٌ فقير إلى بيت سالم، يشكو مرض ابنته وعجزه عن شراء الدواء. لم يكن سالم يملك يومها إلا راتبه الذي ادّخره لإيجار البيت، لكنه أخرجه وأعطاه للرجل دون تردد.

اعترضت زينب بخوف: — “وماذا سنفعل نحن؟”

فأجابها بهدوء: — “الرزق الذي يذهب لإنقاذ إنسان لا يضيع.”

في صباح يوم بارد، خرج سالم إلى عمله كعادته. وقبل أن يغادر، قبل أطفاله واحداً واحداً على رؤوسهم، على غير عادته. حتى زينب انتبهت إلى أن عينيه كانتا ممتلئتين بشيء غامض يشبه الوداع.

في الظهيرة، كان حيدر يعبر الشارع المزدحم، فرأى جمعاً كبيراً من الناس يحيطون برجلٍ ممدٍ على الأرض بعد حادثٍ مروّع.

اقترب بخطواتٍ مرتبكة...

ثم تجمّد قلبه.

كان سالم غارقاً بدمائه، وعيناه نصف مفتوحتين كأنهما مازالتا تبحثان عن شيءٍ بعيد.

حملوه إلى المستشفى، لكن النزيف الداخلي كان أسرع من دعوات المحبين.

رحل سالم.

ومنذ ذلك اليوم، تغير كل شيء.

صار البيت صامتًا بطريقة مؤلمة، كأن الجدران نفسها فقدت روحها. أطفاله لم يعودوا يركضون نحو الباب عند المساء، وزينب صارت تتحدث بصوتٍ منخفض، كأن الحياة بعده يجب أن تُحترم بالحزن.

أما حيدر، فكان يشعر أن العالم أصبح أكثر قسوة بعد موت سالم، وكأن الطيبين ليسوا مجرد أشخاص... بل توازنٌ خفي يمنع الحياة من الانهيار الكامل.

مرَّ عامٌ كامل.

وفي عيد الأضحى، ذهبوا جميعًا إلى قبره. كانت السماء رمادية، والريح تعبث بأوراق الأشجار اليابسة.

جلس حيدر قرب القبر طويلًا، ثم قال بصوتٍ مرتجف:

— “تعرف يا سالم؟ كنتَ حين نبكي، تمسح دموعنا جميعًا... أما الآن، فقد أصبحت أنت سبب بكائنا.”

ثم أطرق رأسه وأضاف:

— “الغريب أن الموت لا يأخذ الإنسان وحده... بل يأخذ معه جزءًا من الذين أحبه.”

عندها انفجرت زينب بالبكاء، بينما كان أطفال سالم ينظرون إلى القبر بصمتٍ بريء، غير قادرين على فهم كيف يمكن للتراب أن يخفي رجلاً كان قبل عامٍ فقط يملأ البيت ضحكًا وحياة.

وفي طريق العودة، أدرك حيدر حقيقةً موجعة:

أن الإنسان لا يُقاس بعدد السنوات التي عاشها، بل بعدد القلوب التي أصبحت أكثر يتمًا بعد رحيله.

حين يشوي العمّ (أبو محمد) لحمَ الذاكرة على جمر الزمن...

(٤٨)

في فجرٍ لم يكن فجرًا عاديًا، خرجتُ من نومٍ لم يكتمل، أو من يقظةٍ لم تبدأ أصلًا... كأنني كنتُ عالقًا بين طبقتين من الزمن: طبقةٍ تحلم بي، وطبقةٍ أهرب منها.

الأرقُّ لم يكن حالةً طارئة، بل كائنًا قديمًا يسكنني، يمدّ جذوره في ليالي كما لو أنني أرضٌ مهجورة لا تنام.

نهضتُ من الفراش كمن يخرج من غيبوبة طويلة.

لا شيء في الغرفة كان يطمئنني: الوسادة متهمّة، الجدار بارد، والصمت نفسه يبدو كأنه يراقبني.

وقفتُ لحظةً في منتصف الفراغ، بلا اتجاه، بلا سبب، ثم جاءت الفكرة فجأة، بسيطة حدّ الغرابة:

“أريد فطورًا بدائيًا... فطورًا يشبه الطين الأول، واليد الأولى، والنار الأولى.”

خرجتُ إلى المدينة التي كانت تستيقظ ببطءٍ كجسدٍ متعب.

الشوارع نصف نائمة، والضوء الرمادي للفجر يجرّ خطواته على الأرصفة.

كنت أقود بلا مقصد واضح، لكنّ الذاكرة كانت تقودني من مكانٍ آخر... من حيٍّ قديم اسمه “كسرة وعطش الصناعي”، حيث لا تُباع الوجبات بل تُستعاد الطفولة على شكل لحم مشوي.

هناك، في زاويةٍ لا تلمع فيها الإعلانات، كان يقف العمّ “أبو محمد”... الرجل الذي لا يبدو كبائع طعام، بل كحارسٍ قديمٍ لسرّ النار.

حين اقتربتُ، شممتُ قبل أن أرى: رائحة لحمٍ يشوي نفسه على جمرٍ هادئ، كأنه لا يُطهى بل يتذكّر شكله الأول.

كان يقلب القطع بيدين تشبهان صلاةً يومية، لا استعجال فيها ولا قسوة.

رفع رأسه نحوي وقال بصوتٍ خافت، كأنه يعرفني منذ زمن لم أعشه:

— “جئت مبكرًا اليوم... أم أنك لم تنم أصلاً؟”

ابتسمتُ دون جواب.. , اكتفيتُ بأن أجلس.

قال وهو يضع قطعة لحم على النار:

— “الناس تغيّرت... صاروا يريدون الطعام بلا روح.. , أما أنا، فأطبخ

كما تعلّمت: النار أولاً... ثم القلب.”

ضحكتُ:

— “وهل يدخل القلب في الطبخ يا عمّ؟”

نظر إليّ كمن يشرح بديهية قديمة:

— “إن لم يدخل، صار اللحم ميتًا مرتين.”

كان المكان بسيطًا حدّ الفقر، لكنه غنيّ بشيء لا يُشترى: دفءٌ خفيّ يشبه ذاكرة بيتٍ قديم لم يُهدم بالكامل.. , طاولات خشبية، زلاطة طازجة، بصلٌ يُشوى حتى يبيكي، وخبزٌ يبدو كأنه خرج للتو من يد امرأةٍ نسيت أن الزمن تغيّر.

وضعت أول لقمة في فمي... ولم أكن أكل فقط.

كنت أسترجع.

طفولةٌ بعيدة، موائد ترايبية، يد جدتي وهي ترفع الخبز من التنور، ووجوهٌ لا أعرف أين اختفت لكنها تعود الآن من خلال طعم واحد.

قال العم أبو محمد وهو يقلب اللحم:

— “نحن لا نبيع طعاماً يا ولدي... نحن نُبقي على شيء من الدنيا القديمة حياً.”

سألته:

— “ولماذا تغلق مبكراً دائماً؟ الطلب عليك كثير.”

هزّ رأسه:

— “الجشع يقتل النار.. أنا أفتح مع الفجر... وأغلق حين يمتلئ القلب.. ما بعد ذلك ليس رزقاً، بل تعب.”

سكت.

كان في كلامه شيء يشبه الحكمة، لكنه بلا ادّعاء.. حكمة رجل لم يقرأ الفلسفة، لكنه عاشها على الجمر.

بين لقمةٍ وأخرى، كان يتحدث عن لحم الخراف “الهرفي”، عن اللحم الطازج، عن الزلاطة التي تُقطع بسكين لا يعرف التسرع.. لكن كل التفاصيل كانت تتحول في يده إلى طقس، لا إلى مهنة.

قال فجأة:

— “هل تعرف ما الفرق بين مطعمٍ ومعبد؟”

قلت:

— “ما هو؟”

أجاب وهو يرفع قطعة لحم من على الجمر:

— “في المعبد... تُطهر نفسك.. , وفي المطعم الحقيقي... تتذكر أنك لم تكن ملوثاً أصلاً.”

لم أعلق.. , فقط أكلت أكثر.

كان الجمر يشتعل بهدوء، وكأن النار نفسها لا تريد أن تفسد هذه اللحظة..
, البصل المشوي، رائحة الدهن، الخبز الساخن... كل شيء كان يبدو
كأنه اتفاق قديم بين الإنسان والطبيعة، قبل أن يتدخل السوق.

وحين انتهيت، شعرتُ بشيء غريب:

لم أكن ممتلئاً بالطعام فقط... بل ممتلئاً بنفسي.

قال العم وهو يجمع أدواته:

— “اذهب الآن... ولا تنس أن الجوع الحقيقي ليس في المعدة.”

سألته:

— “وأين هو إذن؟”

أجاب دون أن ينظر إليّ:

— “في الذاكرة.”

خرجتُ من المكان وكأنني أخرج من صلاةٍ طويلة.. , المدينة نفسها بدت
مختلفة، أخفّ، أقلّ ضجيجاً، كأن لقمة واحدة أعادت ترتيب الفوضى
داخلي.

في الطريق إلى البيت، أدركتُ أن ما حدث لم يكن فطورًا عابراً، بل مواجهة صغيرة مع الزمن.

هناك، على نار العم أبي محمد، لم يُشَوَّ اللحم فقط... بل شُويت طبقة من الغياب في داخلي، واحترق شيء من القسوة التي تراكمت دون أن أشعر.

عدتُ وأنا أفكر:

ربما ليست البساطة نقيض الحضارة، بل هي ما نسيته الحضارة في الطريق.

وفي تلك اللحظة، فهمتُ أخيراً:

أن بعض الرجال لا يطهون الطعام...

بل يطهون الذاكرة، كي لا تفسد.

حين يأكل الفقرُ ملامحَ الروح (٤٩)

لَمَّا بلغ العاشرة، صار حسين يعرف الشوارع أكثر مما يعرف دفاتر المدرسة...

كانت الأرصفة أمّه المؤقتة، وإشارات المرور ساعاتٍ لا تتعب .

ومنذ العاشرة، وحسين يرحل بين الاحجار والاسفار... ؛ يبيع قطرات الماء نهارة ، ثم اقراص الاغاني المكدورة مساءً , ثم صار يقدم الشاي للغرباء كأنّه يقدم قلبه في قدح زجاجي رخيص... ؛ كان الوقت يتسرب من بين اصابعه كالرمال الحارة... ؛ كبر سريعاً , واشتد عوده... ؛ لا لأنّ الزمن كان كريماً ... ؛ بل لأنّ الجوع لا يسمح بالطفولة

تحولت الشوارع الى سوق لأجساد ناقصة... ؛ كان يقايض الحنين بالدينار، ويشترى لمسات مؤقتة من بائعات الحرمان ومتسولات الشوارع ... ؛ يربح الفا وينفق نصفه على لهوات باردة: قبل بلا ذكرى، و لمسات بلا معنى، و ايام تتكسر على اجساد غريبة.

نعم , جسد حسين، كان ملكا منفصلا... ؛ كان يجوب مدينة الاسمنت برغبات عارية، يركض وراء لذات سريعة تذوب كالملح في فم البحر... ؛ لاحقته الخلوات، والاجساد المقابضة ، وحتى الاجساد المشابهة... ؛ لم يعد يفهم فرقا، فالجوع نفسه في جميع الحالات. . .

لم تكن علاقة حسين بجسده سوى تاريخ من التوترات المكبوتة... ؛ منذ الطفولة، تحوّل جسده إلى ساحة معركة بين “الهو” الغريزي الجائع، و”الأنا” المذعورة، و”الأنا العليا” التي تلوح بقيم مجتمع لم يمنحه سوى الفقر والازدراء...

في نظرية فرويد، يولد الإنسان بطاقة جنسية غريزية – الليبيدو – تشكل شخصيته عبر مراحل نموه... ؛ لكن حسين، ابن الشوارع منذ العاشرة، علق في مرحلة بدائية: مرحلة تلبية الحاجة المجردة، حيث يختلط الجوع بالرغبة، والطعام بالمتعة، ويصبح الفم – أول المناطق “الإيروتنوجينية” عند فرويد – مدخلاً للألم وليس للذة... ؛ لقد قُطم عن براءة الطفولة باكراً، فلم يتعلم تأجيل الإشباع، بل تحول إشباع الرغبة إلى فعل بقاء، يشبه سرقة رغيف خبز...

مع صبايا الشوارع، لم تكن علاقته سوى تكرار بائس لهذا النمط ... ؛ بحثه عن “صغيرات السن” لم يكن مجرد انحراف أخلاقي، بل كان، من منظور سريالي، محاولة عبثية للعودة إلى “مرحلة الكمون” الجنسي المزعومة عند فرويد... ؛ تلك المرحلة التي يفترض أن تكون طاقة الطفل الجنسية فيها خامدة، منصرفة نحو التعلم واللعب البريء...

كان يحاول، عبر اجتياح رائحتهن الزائفة، أن يلمس براءة هو نفسه لم يعرفها، كمن يلثم شبح طفولة مسروقة... ؛ فالمتعة الجسدية كانت ثانوية؛

الأهم كان إثبات القوة عبر امتلاك شيء "نقي" - حتى لو كان وهمياً -
في عالم تدنس كل شيء فيه.

تتقل بين المهن كما يتقل العابر بين الظلال ... ؛ حتى استقرّ به الحال
فنيّاً في أحد فنادق العاصمة ... ؛ صار يلمس الحياة من خلال آلات
ميتة... ؛ ويصلح الأسلاك المعطوبة ... ؛ ولا يجد وقتاً لإصلاح نفسه
!!...

كان يعود إلى أهله مرّة في الشهر،

يحمل راتبه كاملاً ككفارة مؤجلة،

أب مشلول،

أم مثقلة بالمرض،

وأخ ينتظر العمل كما ينتظر المطر في صيف قاسٍ...

لم يكن الادّخار ترفاً متاحاً ... ؛ كان البقاء وحده مشروعاً يومياً...

وفي وحدته ... ؛ تسألّت الرغبات كريح عمياء... ؛ لا تسأل عن أخلاقٍ
ولا عن حدود ... ؛ تطلب فقط أن تُسكّت...!!

وبفضل وجهه الوضاء، وجسده الرياضي الرشيق ، انفتحت له عوالم
افتراضية... ؛ فقد فتح نافذةً على العالم عبر شاشةٍ صغيرة ... ؛ فإذا
بالوجوه تتكاثر، والكلمات تزداد لزوجةً، والاهتمام يتحوّل إلى فخٍ
ناعم... ؛ لم يكن يبحث عن حبّ ... ؛ بل عن شعورٍ عابر يؤكّد أنّه ما
زال حيّاً ؛ و أصبح بثه على التيك توك مذبحة روى... ؛ تدفقت الرسائل
العاطفية والجنسية كنهر من ضوء أزرق ...

حتى وصل له طلب من ظل بنت سنها سبعة عشر رمادا، مخطوبة في محافظة بعيدة... ؛ لم يبال... ؛ طلب مال السفر وجسدها... ؛ وافقت الظل...!!

ذهب في ليلة حالكة السواد... ؛ التقيا امام (هيكل) – بناء ناقص كأحلام ذلك المكان... ؛ تحول الهيكل الى فم مظلم يبتلع اصواتهما سبع مرات...

المكان نفسه كان استعارة سريالية لجسد حسين: هيكل عظمي من الإسمنت، ناقص، بلا واجهة، مهياً لاحتواء أي فعل عابر... ؛ ممارسته الجنس معها سبع مرات كانت طقساً قهرياً، “تكراراً إجبارياً” يحاول من خلاله تفريغ توتر لا ينتهي...

كان الفعل عدوانياً أكثر منه شهوانياً، كما لو كان يعاقب في جسدها كل براءة خائنه، وكل فقر حرمة من تطور نفسي سوي... ؛ فرويد يرى أن الصدمات الجنسية المبكرة – أو الإحباط فيها – قد تشكل لاحقاً عصاباً قهرياً... ؛ هنا، كان العصاب يجسد نفسه في حركة جسدية آلية، وكأنه يحاول، عبثاً، أن يملأ بجسد أنثوي فراغاً نفسياً أسود...

ولما انتهى، طلب المئة الف... ؛ ذهبت البنت الى بيتها كالسارق... ؛ بقي حسين ينتظر، فرأى خيالا اخر يتحرك خلف الباب... ؛ فاخفى كالحرامي المرعوب...

وسمع، من بعيد، صوت ام تسحب ابنتها: “ماذا تفعلين في جوف هذه الليلة؟”

وكذبت البنت ببراعة الف امرأة شرقية : “سمعت نباح الكلاب!”

فاندفعت خلفها... ؛ ثم سمع صوت صفع و اغلاق لباب الدار بقوة... ؛ هرب حسين، ولم يمسك في يده سوى ثلاثة الاف دينار – هباء لا يصل به الى بغداد... !!

مشى في طريق لا نهاية لها... ؛ وقفت الى جانبه سيارة صفراء... ؛ سائقها رجل اربعيني ينتثر الشيب على رأسه كالندى الاخير... ؛ امره بالصعود... ؛ عندها انقلب الصائد فريسة في سيارة السائق الأربعيني ، واكتملت الدائرة المأساوية... ؛ تحدث بصوت ناعم عن الاخلاق والدين... ؛ حتى عرف الحكاية الحقيقية... ؛ فجلس الصوت الناعم، وخرج من فم السائق صوت اخر، مسنن وجائع: عرض عليه خمسة عشر الفا لجسده...!!

لحظة صمت... ؛ في عيني حسين، تصارعت القذارة مع القذارة... ؛ ثم اجاب، وكأنه يساوم على بضاعة: “مرتين... ؛ بخمسة وعشرين الفا... ؛ وتوصلني الى الكراج”.

مارس الجنس مع الرجل الغريب في مكان مهجور شبيه بقلبه... ؛ شعر باعياء لا يطاق، كان جسده قد انفصل اخيرا وراح يراقب نفسه من عل... ؛ ؛ لم يعد الجسد مجرد أداة لإشباع رغبة أو بيع متعة، بل تحول إلى “عملة أخيرة” في اقتصاد العوز... ؛ الطلب المزدوج – مال مقابل جسد – لم يكن صفقة جنسية فحسب، بل كان تحقيراً مزدوجاً: للسائق الذي حوّله الفقر إلى مفترس، ولحسين الذي حوّله إلى سلعة مقبولة...

اخذ الفلوس وعاد الى العاصمة... ؛ وفي طريق العودة، وبينما الحافلة تهتز كمهد، ادار رأسه نحو النافذة... ؛ رأى انعكاس وجهه في زجاج مظلم... ؛ لم يعد يرى وجوها، لا وجوه النساء، ولا وجوه الرجال، ولا حتى وجهه هو... ؛ رأى فقط شكلا مستطيلا، املس وأبيض ، شبيه بتلك العملة المشبوهة التي تتبادلها الايدي في الخفاء...

ففهم، للمرة الاولى، بوضوح مرعب: ليس الفقر نقص المال... ؛ بل الفقر ان تتحول الى سلعة، وان تسقط كل المعالم، حتى معلم القذارة نفسها... ؛ فالفقر لا يسلب الخبز فقط، بل يسلب القدرة على اختبار المتعة بكرامة...!!

نعم , أدرك أن الفقر لم يسرق منه المال فحسب، بل سرق منه “مصادر اللذة” الطبيعية... ؛ و حوَّله إلى كائن تتحكم فيه “غريزة الجوع” قبل “غريزة الجنس”، فالتصقتا إلى الأبد... ؛ ولم يعد يعرف متعة لا تشوبها رائحة المعاملة، ولا لذة لا يقودها دافع القوة أو الخوف... ؛ اذ صار، كما أخبر نفسه في صمت الحافلة المهتز، “جسداً شرجياً” في عالم قضيبى: مغلقاً على ألمه، مشتتاً، غير قادر على الإخراج أو العطاء بانتظام، يحتفظ بكل شيء ويطرحه في اللحظات والأماكن الخطأ...!!

ومنذ تلك الحادثة ... ؛ صار يعرف : أن أشدَّ أشكال الفقر ليس الجوع ... ؛ بل أن يضطرَّ الإنسان ... ؛ لأن يعيش ضدَّ نفسه ...

حين صار الجسد جواز سفر (٥٠)

وُلِدَ قاسم في المدينة التي تَنَفَّسُ صداً... ؛ كانت شوارعها، فيما مضى، تمشي بأقدام حافيةٍ على جمر الحرمان، تحت سماءٍ من صفيح رصاصي... ؛ عاش أبناؤها في جُضُن العَوَز، يتناقلون الفُتات كوصفةٍ للبقاء، مُتَكَيِّفِينَ مع جَلَّدي الزمن، مُحَصِّنِينَ ضد الانتحار بجلدٍ صَليدٍ تَتَكَلَّلُ من سنواتِ القبضِ الحديدية... ؛ كان اليأسُ عندهم رفيقاً مألوفاً، لا غازياً مُرْعِباً.

وُلِدَ قاسم في مدينةٍ تعرف الفقر كما يُعرف الاسم، لا بوصفه لعنة، بل كعادةٍ يومية... .

نعم , كان الجوع هناك صامتاً، والحرمان مهذباً، والناس يتقاسمون القسوة كما يتقاسمون الخبز اليابس، دون أن يفكروا في الهرب من الحياة نفسها... ؛ كانوا محاصرين، نعم، لكنهم لم يكونوا مهزومين من الداخل؛ فالسجن الكبير الذي اسمه الوطن آنذاك لم يكن يسمح حتى بتخيّل نافذة...

الا ان قاسم لم يولد في الهامش، بل وُلد بعد انهيار نظام القمع والتهميش والافكار عام ٢٠٠٣ ... ؛ فالمدينة الشعبية التي جاء منها لم تعد كما كانت في ذاكرة آبائها؛ الفقر لم يعد جماعياً، بل فردياً، والحرمان لم يعد قدراً مشتركاً بل فشلاً شخصياً يُحاسب عليه صاحبه ... ؛ و هنا تكمن أولى المفارقات التي ستشكل وعيه ...

فقبل ولادته بأشهر معدودة ؛ سقط الجدار الدكتاتوري المقيت ؛ وفجأة، صار الهواء وفيراً أكثر مما ينبغي، وصارت الحرية ثقيلة على الأكتاف الغضّة ... ؛ وانفتحت أبواب السماء المعبّرة، ونزلت وعود الحرية كأمتار غريبة على أرض لم تتعود إلا على قطرات الدم ... ؛ و تهافت النور على البيوت، وتوسعت صدور الناس بزفير طويل، كأنهم وُلدوا من جديد...

نعم , جاء قاسم مع انبلاج الصباح الجديد، كأن قَدَرَهُ أن يَقْفَسَ من بيضة القمع مباشرة إلى فراغ الفضاء الواسع، حرّاً، كالنسر الذي تَعَلَّمَتْ أجنحته التشكّل في الفَقْص ...

فالأجيال السابقة عاشت القسوة بلا مقارنة، أما جيله فكان يرى العالم كله، ولا يملك منه شيئاً...

نشأ قاسم في بيتٍ مستقرّ، بلا نقصٍ ماديّ حاد، محاطاً بعناية زائدة، كأن الأسرة كانت تحاول أن تحميه من تاريخ لم يعيشه ... ؛ دلّته عائلته كما يُدَلّل الناجون، وكأنهم أرادوا تعويض قرنٍ من القهر في جسدٍ واحد

وفي علم النفس، يُسمّى هذا فرط التعويض: حين يُربّى الطفل المدلل لا ليواجه الواقع، بل ليُغفى منه ...

نشأ قاسم في حَجَرٍ دافئ، مُدَلَّلًا، باعتباره آخرَ عنقودٍ في سلسلة من الأبناء الخمسة ... ؛ نما كالسَّنْبُلَةِ في تربةٍ خَصْبَةٍ، فصارعَ فارغَ الطول، أبيضَ الحليب تحت القمر، عيناؤه واسعتان جميلتان من سَعَةِ الدنيا التي لم

يَعْرِفُ ضَيْقَهَا ... ؛ كان جسده نحيلاً قوياً، يتمايل في مشيته تمايل سَعَفَةٍ نادرة تهزها ريحٌ عابرة، كأنه إيقاعٌ مطوي داخل نغمة... ؛ زادتْهُ الرياضة صلابَةً وَهَجاً، وَرُبَّمَا غُرُوراً.

نعم ؛ كبر جميلاً، وكان جماله أشبه بسكين لامعة: نعمة في الظاهر، وخطرًا في العمق... ؛ و مصدر قوةٍ وسوء تقدير في آنٍ واحد؛ إذ اعتاد أن تُفتح له الأبواب بسهولة، فظنّ بلا وعي—أن العالم يعمل هكذا... ؛ كان يمشي وكأن الأرض أقلّ من أن تحمله، ويتحرّك كمن يعرف أن العيون تلاحقه قبل الخطى...

عندما اشتدَّ غُودُهُ، وبلغ السابعة عشرة، بدأ الشرخ... ؛ ونَظَرَ إلى وطنه بعَيْنِي مُسْتَكْشِفٍ وَقَعَ في أرضٍ بَائِسَةٍ... ؛ كَرِهَهُ كُرْهاً شديداً، مُتَجَلِّداً كالبلور... ؛ كره المكان لا لأنه قاسٍ، بل لأنه أصغر من خياله... ؛ ولم يُدرك سرَّ صبر أولئك الأقدمين على الذلّ والجوع والسجون والهَوَات التي تفتح في منتصف الطريق في عهد صدام... ؛ لم يَعْلَمْ أنهم كانوا سُجَناء في غرفةٍ مُعزَّولةٍ اسمها “العراق”، حيث كانت النوافذ مُحْكَمَةً الإغلاق، والهواء الآتي من العالم الخارجي مُشْفُوعاً بِرَقَابَةٍ صارمة... ؛ أما هو، فَصَحَا في عالمٍ بلا أسقف، حيثُ العالمُ كُلُّهُ قَرِيَّةٌ مُعَلَّقةٌ في سحابة اللامكان... ؛ فقد عاشَ قاسمٌ وأقارنُهُ حياةً مُنْشَطِرَةً: أرواحهم تُسْكُنُ باريسَ وبرلينَ ولندن، بينما أجسادهم تَرْقُدُ على أرائِكِ بغدادِ وأبوابِ الناصرية أو أهوار العمارة، كأنها أغطيةٌ فارغة... ؛ أَصَابَ هذا الانْشِطَارُ رُوحَهُ بِفَجْوَةٍ هائلة، كَوْنَتْ فِيهَا سُحُبُ الاكْتِنَابِ عاصفةٌ سوداء... ؛ فقد حاول أن يرمي نفسه في نهر دجلة، لولا أن أمسك به صديقُهُ حُسَيْن، كَالْغُصْنِ الذي يمنع ورقةً من السقوط.

نعم، لم يفهم كيف صبر السابقون، ولم يدرك أنهم لم يكونوا يملكون المقارنة... ؛

فهو ابن الشاشات الزرقاء المفتوحة، والخرائط الرقمية، والمدن التي تُزار بالأفكار قبل الأقدام... ؛ كان يعيش في بغداد بجسده، وفي عواصم العالم بروحه، فتمزق بين صورتين: حياة لا تشبه أحلامه، وأحلام لا تشبه واقعه... ؛ كان محاطاً بعالم افتراضي يعد بالكثير، ويمنح القليل، فدخل في ما يصفه علم الاجتماع بـ الاعترا ب المقارن: أن تقيس حياتك بما تراه لا بما تعيشه.

أحسَّ الأبُ برُّزْلَةَ الخطر في أساس البيت... ؛ فجَمَعَ لابنَه حُزْمَةً من الأملِ المُصنَّطَى، على شكلِ مال، لِيُلبِّي حُلْمَ الهجرة إلى أورُوبَّا، حيثُ تُرسَمُ الحياةُ بألوانِ الجنةِ الموعودة... ؛ حين غادر البلاد، لم يكن هارباً من الفقر، بل من الشعور بعدم الانتماء...

سافرَ قاسمٌ وحسين عبرَ تركيا، ثم رَكِبَا في أحشَاء قاربٍ مَهْرُومٍ، يَخْتَرِقُ جَسَدَ البحرِ الأبيض المتوسط... ؛ لكن، في إحدى الجُزُرِ المُتَعَبَةِ، وَقَعَتْ خصومة و شَجَارٌ مع رُكَّابِ أفغان متعصبين دينياً، وانتهى بِغَدْرَةٍ سَكِينٍ تُعْرِسُ نَفْسَهَا في قلبِ حسين... ؛ وحين قُتِلَ صديقه في الطريق، انهار التوازن النفسي الأخير لديه... ؛ فقد هنا لم يكن عاطفياً فقط، بل وجودياً: فالموت المفاجئ يجرد الحياة من منطقتها، ويجعل كل الخيارات متساوية في عبثيتها.

بَقِيَ قاسمٌ جاثياً أمامَ القبرِ المُوقَّتِ على الشاطئ، بينما انْسَحَبَ البحرُ بكلِّ أمواجه كأنَّ شيئاً لم يَكُن... ؛ حين مات صديقه في طريق الهجرة، لم يمت وحده... ؛ مات المعنى... ؛ ومنذ تلك اللحظة، صار قاسم يمشي وهو فارغ، كقنينة أُلْقِيَتْ في بحرٍ لا يعرف الرسائل...

وَصَلَ أثينا، المدينة البيضاء، حيثُ تَشَتَّتَ الرفاقُ كذراتِ غبارٍ في مهبِّ الريح، وبَقِيَ هو وحيداً، لا يدري أين تُؤدِّي به الخطوات.

عاشَ أياماً في غُرفِ فنادقٍ رخيصة، سَكَّرَانَ بِجمالِ المدينة ولوعةِ الفقدِ معاً... ؛ وَتَعَرَّفَ على شابٍّ تونسيٍّ، فأخَذَهُ الأخيرُ إلى عالمِ النسيانِ السائل: قناني خمِرٍ تَتَحَوَّلُ إلى أنهارٍ سوداءٍ تَجْرُفُ الذاكرة... ؛ استمرَّ

شهرين في دوامة الطعام الجاهز في المطاعم ، والنوم الثقيل والدخان الكثيف الذي يُعطّي مرآة النفس... ؛ وعندما تتورّ الشهوة الجسدية، كان يلجأ إلى جسده وحده، في طقس مُهين من العُزلة... ؛ حيث يمارس العادة السرية .

في المدينة الأوروبية، عاش المرحلة التي يسميها علماء النفس التفرغ: إنفاق المال، الإفراط في اللذة، محاولة نسيان الصدمة عبر الاستهلاك... ؛ لكن المال ينفد، والصدمة لا .

ففي اثنيا ، أكل حتى الشبع، شرب حتى النسيان، ثم... نفد كل شيء... ؛ وحين ينفد المال، يبدأ الحساب الحقيقي.

نعم ، نفد المال... ؛ وضاقت الدنيا فجأة كفتحة الابرة الصغيرة... ؛ أصبح الظل سقفاً، والحديقة العامة سريراً، حيث يضع حقيبتة تحت رأسه، ويتلفح بلحاف النجوم الباردة... ؛ ويتعدّى على فئات الموائد في زوايا الطرقات، ويتنسل بخجل في حمامات المحطات.

بلى ، صار ينام تحت السماء، ويغتسل من الخجل قبل الغبار، ويكتشف أن الجوع ليس ألم المعدة فقط، بل انكسار الكرامة.

عندما وجد نفسه بلا مأوى، بلا طعام، وبلا شبكة دعم، دخل مرحلة البقاء الخالص...

هنا تتراجع الأخلاق إلى موقعها الحقيقي: ليست مبادئ مطلقة، بل ترفاً مشروطاً بالأمان...

لم يفكر قاسم كثيراً؛ الجوع لا يمنح وقتاً للفلسفة، لكنه يصنعها لاحقاً...

اكتشف متأخراً أن الجسد في سوق العالم الحديث ليس ملكاً لصاحبه دائماً، بل مورداً يُستثمر حين تنعدم الخيارات... !!

وفي إحدى الأيام، اقترب منه رجلٌ يونانيٌّ اربعينيُّ يُدعى بيترو... ؛
تهادَّت بينهما كلماتٌ بسيطة، ثم قدَّم له خمسَ يورو هاتٍ مُقابلَ تدليكٍ
للكتفينِ المُتعبين... ؛ وافقَ قاسم، وشغَرَ بأصابعه، وهي تفرُّكُ جسدَ
غريب، كأنها تمسحُ كرامتَهُ نفسها...

عادَ في اليوم التالي، لكنَّ الطلبَ كان مختلفاً... ؛ “هل تمارِسُ الجنسَ
معي؟” سأله بيترو بعشرةَ يورو هات... ؛ ارتدَّ قاسمُ كمنْ لُطمَ، ففي
صميمِ كيانه، كان هذا الفعلُ هوةً سوداءَ لا يُشرقُ فيها نور... ؛ رَفَضَ،
فانصرفَ الرجلُ اليونانيُّ من دون رجعة .

عندها فهم الحقيقة التي لا تُدرَس: أن الجسد، حين يُحاصر، يتحوَّل إلى
عملة.

وأن بعض الأبواب لا تُفتح إلا حين تُغلق في داخلِك نوافذ كثيرة.

اشتدَّ الجوعُ، وصارَ كالوحش الذي يَنْهَشُ الأحشاء... ؛ وفي إحدى
حدائق اللقاءات المشبوهة، حيثُ يترصَّد المثليون ضحاياهم، ظهرَ رجلٌ
خميني سعوديٌّ مُتألِّق...

“أنتَ عراقي... أنتم الرجالُ الحقيقيون، جمعُكم الجمال والقوة” قاله
مبتسماً، ثمَّ أضاف، كمنْ يقدمُ عرضاً تجارياً: “أبحثُ عن شابٍّ قويٍّ
مثلَك... ؛ أكونُ أنا المرأة والزوجة وهو الرجل... ؛ مقابل مائةُ
يورو... لكلِّ مرة...!!”

تجمَّد قاسم... ؛ اذ رأى أمامَ عينيه جبلاً من الذهب وقد انهيارَ على رأس
جوعه... ؛ سكَّنتُ كلَّ القيمِ في داخلِهِ لحظةً واحدة... ؛ وافق...!!

في غرفة الفندق الفاخر، شربَ قاسمُ حتَّى الثمالة، كي يَغرقَ وَغِيهَ ولا
يرى ما يحدث... ؛ ثمَّ تحوَّل إلى آلة بلا روح... ؛ وقد أذهلت قوَّتهُ
الجنسية والعضلية الرجلَ السعودي، “أبو مشاري”، الذي دفعَ ألفاً بدلاً

من سبعمائة - مقابل سبع مرات من النكاح المتواصل على مدى ست ساعات - ، وألبسة من الملابس الراقية ، وأطعمة أطيّيب الطعام...

بقياً معاً عشرة أيام، ينتقلان بين أفخم المطاعم وأجمل المتاجر، وفي الليل يتحوّل قاسم إلى وحش غريب يفرس جسد الشيخ مقابل المال والمأوى... ؛ أهده أبو مشاري، عند الرحيل، هاتفاً جديداً وأربعة آلاف يورو... ؛ تعانقاً في المطار عناق العشاق الزائف، حيث تختلط أنفاس الشهوة بأنفاس الندم والمصلحة...

لم يكن ما حدث نتيجة انحراف، بل نتيجة اختلال ميزان القوة: طرف يملك المال، وطرف يملك الحاجة... ؛ ومع كل تنازل، لم يكن يشعر بالذنب بقدر ما كان يشعر بالفراغ.

الذنب يفترض وجود معنى أخلاقي ثابت، أما الفراغ فهو علامة على تآكل المعنى نفسه.

نعم ، لم يكن ما فعله شهوة، بل مقايضة صامتة مع العالم... ؛ كان يمنح ما لا يريد، ليشتري ما يحتاج.

وكل مرة، كان يشعر أن شيئاً منه يُترك خلفه، على مصطبة، أو في غرفة، أو في مرآة لا ينظر إليها طويلاً...

عاد قاسم إلى الحديقة العامة، إلى نفس المصطبة الخشبية ؛ جلس، وقد تحوّل جسده إلى سلعة معروضة في سوق النهار... ؛ ربما ينتظر زبوناً آخر يُشبه أبا مشاري، بينما تهمس في أذنيه ريح عابرة: “من أنت الآن، يا ولد المدينة الاوربية؟”

وتحت أقدامه، بدا ظلّه طويلاً، مُشوّهاً، كأنه طائر كسير الجناحين، نسي كيف يحلّق نحو السماء التي ولد منها.

نعم , حين انتهت المرحلة، وعاد إلى الحديقة، لم يعد الشخص ذاته...
؛فالنفس، حين تُباع مرة، لا تعود كاملة.

لم يكن محطماً بالكامل، لكنه لم يكن سليماً.

كان مثلاً حياً على ما يسميه الفيلسوف سارتر:

الإنسان محكوم بالحرية، حتى حين لا يملك خياراً جيداً.

جلس على المصطبة ذاتها، لا ينتظر شخصاً بعينه، بل احتمالاً منقذا كأبي
مشاري السعودي .

احتمال أن تبدأ الحياة من جديد،

أو أن تستمر كما هي، بلا تفسير.

وفي الحالتين، كان يعرف شيئاً واحداً فقط:

أن الإنسان لا يسقط دفعة واحدة،

بل ينزلق ببطء، خطوةً مبرّرة بعد خطوة.

حين تدور الأسطوانة... ويستيقظ زمنٌ لم يمت (٥١)

لم يكن الغروب سوى شاشةٍ باهتة تُسحب ببطء فوق المدينة.

طارق عاد من عمله مثقلاً، لا بالتعب وحده، بل بذلك النوع من الإرهاق
الذي لا يأتي من الجسد بل من التكرار؛ من الأيام التي تشبه نفسها حتى
تفقد القدرة على الاختلاف.

في سيارة الأجرة، كان السائق يهتمهم مع إذاعة قديمة، بينما المدينة تمرّ
مثل شريط بلا صوت.. , عند الإشارة الحمراء، توقّف كل شيء... إلا
داخله.

هناك، على اليمين، انفتح المشهد.

مقهى شعبي قديم.

ليس قديماً بالمعنى السياحي، بل بالمعنى الذي ينجو من الزمن رغم أن
الزمن يكرهه.. , واجهته خشبية، زجاجه مشوب بغبار خفيف، لكن
داخله يلمع كجرح لم يلتئم بعد.

السائق قال دون أن ينظر:

– “هذا المقهى رجع يشغل بعد سنين الحرب... كانوا معزّلينه من أيام
طويلة.”

طارق لم يجب.

كان ينظر إلى شيء واحد فقط.

جرامفون في وسط المقهى.

يدور كأنه قلب صناعي يحاول تقليد الحياة.

ثم جاء الصوت.

منه خرج العالم.

كان صوت عبادي العماري، كأنه لا يغني بل يستدعي أرضاً كاملة من
تحت الرماد.. , الصوت لم يكن موسيقى فقط، بل ذاكرة تمشي على
قدمين.

السائق التفت أخيراً:

— “لسه الناس تسمع هالأشياء؟”

طارق همس، دون أن يدري أنه يتكلم:

— “هي ما انتهت... إحنا اللي انتهينا عنها.”

ثم فتح الباب.

لم ينتظر الإشارة.

وكان شيئاً داخله سبق جسده إلى هناك.

داخل المقهى، الهواء مختلف.

ليس أنظف، بل أصدق.

رائحة الشاي تمتزج بالدخان والوقت.

الكراسي الخشبية تصدر صريراً كأنها تتذكر من جلس عليها.

طارق اختار زاوية قريبة من الجدار.. لم يكن يريد أن يُرى.. كان

يريد أن يختفي بطريقة محترمة.

لكن الصوت لم يسمح له بالاختفاء.

كان يقرأ أبودية:

“بعض بني الهجر مات حريقاً

والبعض أضحى بالدموع غريقاً

لم يشك عشقاً عاشقاً فسمعتُه

إلا ظننتك ذلك المعشوقا...”

وفي اللحظة التي انتهى فيها البيت الشعري ، حدث الانكسار.

لم يكن صوتاً فقط.

كان مفتاحاً.

طارق لم يعد في المقهى.

كان في مكان آخر.

ليلى عادت.

لكن ليس كذكرى فقط.

كحضور يفرض نفسه.

جلس إلى نفسه الأخرى.

قال داخلياً:

“لماذا الآن؟”

وجاءه الجواب من لا أحد:

“لأنك أخرتني كثيراً.”

ليلى لم تكن امرأة في ذاكرته فقط.

كانت نظاماً كاملاً من الإدراك.

حين كانت تضحك، كان العالم يعيد ترتيب نفسه.

حين كانت تنتظر إليه، كان يفقد تعريفه.

كان يقول لها مرة، وهي تقطع حديثه بابتسامة:

– “أنت تشبهين الفكرة التي لا تُقال.”

فترد:

– “وأنت تشبه الرجل الذي يحاول أن يشرح الفكرة بدل أن يعيشها.”

في المقهى الآن، طارق يسمع صوته القديم ينهار داخله.

يتذكر:

ليالي اللقاء الأولى.

الحديث الذي كان يتعثر لأنه لم يكن يريد أن يكون حديثاً.

القرب الذي لم يكن جسدياً فقط، بل وجودياً، كأن المسافة بينهما كانت خطأً في الكون يتم تصحيحه.

كان يقول لها:

– “أشعر ألي عندما أقترب منك، لا أقترب من امرأة... بل من نفسي التي ضاعت.”

فتجيبه بهدوء غريب:

– “وأنا عندما أراك، لا أراك... أرى ما كنتُ أستطيع أن أكونه لو لم أخف.”

الصوت في المقهى يستمر.

الإبرة تחדش الأسطوانة كأنها تحفر في جلد الزمن.

كل خدش يفتح باباً.

كل باب يطلق مشهداً.

طارق الآن يختلط عليه الزمن.

هل هو هنا؟

أم هناك؟

أم أن “هناك” هي الكذبة الوحيدة التي اخترعها العقل ليحمي نفسه من
الانهيار؟

صوت أحد رواد المقهى يقطع الصمت:

– “تدري؟ هالمطرب يرجعنا لأيام ما نقدر نرجع لها.”

يرد رجل آخر:

– “إحنا ما نريد نرجع... إحنا نريد نفهم ليش ضاعت.”

طارق يهمس لنفسه:

– “لأننا اعتقدنا أنها انتهت... وهي لم تنته، بل انسحبت منا.”

تتسارع الموسيقى.

والذاكرة تبدأ بالتمرد.

ليلي لم تعد صورة.

بل سؤال.

في لحظة، ينقطع الصوت.

الجرامافون يتوقف.

صمت مفاجئ، كصفعة.

كأن الزمن أغلق فمه فجأة.

طارق يرفع رأسه.

المقهى يبدو مختلفاً الآن.

أكثر فراغاً.

أكثر حقيقة.

كان كل ما حدث كان عرضاً مؤقتاً داخل رأسه فقط.

النادل يمرّ بجانبه:

— “أول مرة تجي؟”

طارق يتردد:

— “لا... كنت هنا من زمان.”

النادل يبتسم:

— “الغريب إننا كلنا نقول هذا الجواب.”

طارق يخرج.

الهواء الخارجي بارد، لكنه نظيف بشكل جارج.

يمشي.

لا يعرف إن كان يهرب من المقهى أم يعود إلى نفسه.

وفي داخله سؤال واحد يزداد وضوحاً كل خطوة:

هل كنا نعيش الماضي؟

أم أن الماضي هو الذي كان يعيشنا دون أن نلاحظ؟

وفي لحظة، يسمع خلفه شيئاً لا يرى.

كأن الإبرة عادت للدوران وحدها.

أو كأن صوت ليلي، أو ظلها، قال له دون كلمات:

“لم أغب... أنت فقط توقفت عن الإصغاء.”

ويمضي طارق.

لا كإنسان يبحث عن حب ضائع.

بل كمن أدرك متأخراً أن الذكرى ليست ما حدث...

بل ما لم ينته بعد.

حمدي يختبئ خلف الباب... (٥٢)

دخل حمدي غرفته هارباً من جحيم المسؤوليات و أعباء البيت التي تنتظره خلف الباب، تسلل إلى عزلته كما يتسلل الجريح إلى كهفه يلحق جراحه... ؛ مفلس ، جيبه فارغ كقلب أمّ تكلّى، ومحفظته تخلو حتى من وهم النقود... ؛ أوى إلى صمته ثلاثة أيام كاملة، كمن يُغلق على نفسه فصلاً كاملاً من الخيبة ، لا يؤانس جوعه إلا كسّرُ خبز يابس يبلّها بالماء، كأنما يعاقب نفسه على ذنب لم يقترفه سوى أنه وُلد في الجانب المظلم من الحياة...!!

كان الصمت كثيفاً، يتدلى من السقف كعنكبوتٍ عجوز، ثم جاء ذلك الصوت ... ، اذ قطعت الصمت طرقاتٌ صغيرة على الباب لكنها عنيدة ... ؛ كأنها دقات قلب طفل يطلب الحياة... ؛ ثم ارتفع صوت ابنته الصغرى يخترق سكون الغرفة كسكين حاد يقطع وشاح الليل: “بابا... بابا... بابا... افتح الباب! أريد نقوداً للحلويات... ؛ كل الأطفال يشتررون

حلويات إلا أنا... ؛ مضى أسبوع كامل لم أذق فيه طعم الحلوى...
أرجوك افتح الباب...!!

أطفأ حمدي النور، فغرق في ظلام يليق بحاله... ، لا ليخفي نفسه عنها،
بل ليخفي نفسه عن نفسه ؛ و تظاهر بالنوم ، كأن النوم حيلة أخلاقية، أو
عذر يُغفر به العجز، تجمد في مكانه كتمثال من حجر، لكن الطرقات لم
تتوقف... ؛ فالطفل حين يشتهي أمراً لا يعترف بمنطق العوائق، ولا
يستوعب معنى الاستحالة، خاصة حين يرى ما تشتهي نفسه في أيدي
الآخرين، قريباً من عينيه، بعيداً عن يديه ...

نعم ، الاطفال لا يفهمون فلسفة الحرمان؛ يرون الرغبة حقاً، وما دام
الآخرون ينالونه، فلا سبب يمنعهم...!!

في تلك اللحظة، شعر أن الباب لم يعد خشباً يفصل بين غرفتين، بل حداً
فاصلاً بين عالمين: عالم يطلب، وعالم يعجز. بين براءة تصرخ، وكرامة
تتكسر بصمت ...

في عتمة الغرفة، تأمل حمدي مشهده المأساوي طويلاً... ؛ و شعر بشيء
يتكسر في أعماقه، بشيء أعمق من الجوع، وأشد إيلاماً من الحرمان...
؛ لم يشعر في حياته كلها بأمر أقبح ولا أشنع ولا أبشع من شعوره
بالفقر... ؛ إنه ليس مجرد غياب للمال، بل حضور دائم للعجز... ؛ الفقر
وحش خرافي حقيقي، يلتهم الإنسان من الداخل، يهدر كرامته قطعة
قطعة، يشوه ملامح روحه قبل ملامح وجهه، يذله أمام نفسه قبل أن يذله
أمام الآخرين ...

الفقر يحوّل المرء إلى قزم لا يُرى... ؛ يمرّ بين الجموع فلا يراه أحد،
يتكلم فلا يسمعه أحد، يتألم فلا يشعر به أحد... ؛ فالفقير حقير في نظر
الجميع ... ؛ لا استثناء في هذه القاعدة القاسية التي كتبتها قوانين
الاجتماع البشري بمداد من دمع ودم .

نعم ، اكتشف أن الفقر ليس نقصاً في المال فحسب، بل هو حالة نفسية تُعيد تشكيل الإنسان من الداخل... ؛ إنه لا يسرق الخبز من فمك فقط، بل يسرق لغتك، قدرتك على التبرير، وحتى حقك في الحزن... ؛ الفقير لا يُسمح له أن يكون معقداً؛ يُختزل في حاجته، ويُختصر في عجزه...

لكن الأشد إيلاماً من كل ذلك، هو ذلك الصوت البريء خلف الباب... ؛ تلك الطفلة التي لا تفهم لماذا يختلف عالمها عن عالم الآخرين... ؛ لماذا تمتد يدها إلى الفراغ بينما تمتلئ أيدي رفيقاتها بالحلوى الملونة؟!

جلس حمدي في ظلامه، وأحس لأول مرة أن الفقر ليس غياب المال فحسب، بل هو غياب القدرة على أن تكون أباً كاملاً، إنساناً كاملاً، حضوراً كاملاً في حياة من تحب... ؛ الفقر الحقيقي هو أن تختبئ من طفلتك خلف باب مغلق، لا لشيء إلا لأنك لا تملك ثمن قطعة حلوى...

وعندئذ، نهض...

لم يفتح الباب بحثاً عن نقود ليست معه، بل فتحه بحثاً عن شيء آخر... ؛ حمل طفله بين ذراعيه، ضمها إلى صدره ضمة طويلة، وهمس في أذنها بصوت مبجوح: غداً يا صغيرتي... غداً سأشتري لك كل حلويات العالم

...

لم تفهم الطفلة لماذا غداً وليس الآن، لكنها فهمت شيئاً آخر عندما كبرت : دفعه حضن أبيها، وصدق وعده، وحباً لا يحتاج إلى نقود ليكون عظيماً

...

عادت إلى لعبها البسيطة وهي تلعب على مضض ؛ بينما وقف حمدي على عتبة غرفته ينظر إلى السماء، متسائلاً في صمت: أي عالم هذا الذي يجعل من لقمة الحلوى بوابة للكرامة؟!

وأي نظام هذا الذي يحول الأبناء إلى أقزام في عيون أطفالهم لا لذنوب اقترفوه، سوى أنهم فقراء؟!

ثم أدرك شيئاً عميقاً: أن القزم الحقيقي ليس من يفقده المال طوله، بل من يفقد إنسانيته... ؛ وأن الفقر قد يسرق منك الكثير، لكنه لا يستطيع أن يسرق منك قدرتك على أن تحب، وأن تعد، وأن تكون حاضراً حين يطلبك قلب صغير لا يفهم من الحياة إلا أن بابا هو البطل الذي يصنع المستحيل...

وفي تلك الليلة، نام حمدي على أرض غرفته الصلبة، و تذكر كيف كان يضحك مع أصدقائه قديماً، كيف كان يُخطط، يحلم، يؤمن بأن المستقبل مساحة مفتوحة... ؛ أما الآن، فقد صار المستقبل جداراً آخر، لا باب فيه !!...

حلم... وقرار (٥٣)

أستيقظتُ مرعوباً.

كانوا يبحثون عني في الطرقات، في الأزقة الضيقة التي تحفظ خطوات الهاربين، في بيوت الجيران والأصدقاء والأقارب، كأن المدينة كلها تحولت إلى فم كبير يلفظ أسماءنا واحداً واحداً.. ؛ ذهبوا إلى المعهد، ثم إلى دكاني الصغير - محلّ تجارتي البسيطة - فلم يجدوني.

لكن الصدفة السيئة، ذلك الطالع الذي لا يخطئ في اصطيد الضعفاء، جمعتني بهم عند عودتي إلى البيت، حين قررت أن أهرب إلى نوم قيلولة قصيرة، كنت متعباً كمن يجرّ عمره على إسفلتٍ ساخن.

رأيتهم.

أبصروني.

وفي لحظة واحدة انفرط الزمن من بين أصابعي.

أطلقتُ قدمي للريح، وركضوا خلفي... ؛ ركض الوحوش المتعطشة للدماء خلف غزلان البراري المذعورة.

كانت الأرض لا تتسع لخطاي ولا لخطواتهم، والهواء نفسه بدا كأنه يختنق من الصراخ غير المسموع.

حال بيني وبينهم الشارع العام، ذلك الشريط المزدهم بالسيارات، والذي بدا لي آنذاك نعمةً سماوية، جدارًا غير مرئي أنقذني من أنياب الضباع ومخالب الغربان.

هناك... ، عند الحافة الفاصلة بين الحياة والموت، بلغت الروح التراقي، وتسارعت دقات قلبي كطبول حرب، وارتفعت حرارة جسدي حتى شعرت أنني أشتل من الداخل، وجحظت عينايا كأنهما ستنفصلان عن وجهي.

ثم... انقطعت الصورة.

استيقظت.

كان صمت الغرفة أثقل من أي صراخ.. ، لا أحد غيري.. ، الوالد في العمل، الأم في السوق، إخوتي في المدرسة.. ، التيار الكهربائي مقطوع كالعادة، فابتلعت الظلمة زوايا البيت حتى صار كل شيء يبدو كأنه جزء من أرشيف قديم لدوائر الأمن الصدامي؛ تلك الغرف التي لا يدخلها الضوء إلا معتقلاً.

ياللهول...

حلمٌ مزعج، وواقعٌ بائس، وظلمٌ مقيم.

أهرب من سجنٍ لأقع في سجنٍ أتعس، كأن الأرض كلها ليست إلا طبقات
متراكمة من الزنازين، تختلف في سعتها وضيقها، لكنها تتفق في شيء
واحد: أنها لا تفتح أبوابها إلا للانكسار.

كان وطني، في ذهني، شبكةً من دوائر الأمن والمخابرات والحزب
والجيش، تتداخل مع عصابات طائفية هجينة، ذات جذور أجنبية غريبة،
كانها نُسجت عمدًا فوق جسدٍ أنهكته القرون.. ؛ دهاليز التعذيب، للقتل،
للتغيب، للتهميش، للإقصاء، للتعسف... ، أسماء متعددة لجحيم واحد.

حتى السجون لم تكن متساوية في الرعب؛ فسجن أبو غريب، سيئ
الصيت، بدا لي جنّة باردة إذا ما قورن بجحيم سجن الرضوانية، حيث
يتكثف الألم حتى يصبح هواءً يُتنفّس.

في تلك اللحظة، لم يعد الحلم حلمًا، ولا الواقع واقعًا... بل امتزجا في
كتلة واحدة من الخوف.

فقررت السفر.

لم يكن قرارًا بقدر ما كان هروبًا من تأويل الحلم.. ؛ اعتبرته نبوءة،
تحذيرًا متأخرًا من قدرٍ يترصد بي خلف كل زاوية.

حزمتُ حقيقتي الصغيرة، تلك التي لا تحمل من الدنيا إلا بقايا حياة،
وأوراقًا، وذاكرةً مثقوبة، وبعض حاجياتٍ بسيطة لا تكفي حتى لتأجيل
الفقد.

ووجهتُ وجهي نحو...

لا أعرف إلى أين تمامًا.

لكنني كنت أعرف شيئاً واحداً: أن البقاء هنا لم يعد احتمالاً، وأن المعاناة القادمة مهما كانت ستكون فقط امتداداً لأرخبيلٍ طويلٍ من الهروب، لا بداية له ولا نهاية.

جدر الباميا ... (٥٤)

عندما انتقلت أم حسن من حي الشعلة إلى إحدى الأحياء الزراعية في شرق بغداد ... ؛ بعد أن عجزت الحكومات المتعاقبة عن منحهم قطعة أرض رغم مرور ثلاثين عاماً على تعيين زوجها في وظيفة حكومية ، كان بيتها الجديد ملتصقاً ببيت الحاج رحيم العارضي، الرجل السبعيني الذي اشتهر في المنطقة بتربيته للحمام الزاجل

وكان بيت الحاج رحيم لا يخلو من ضجيج: زوجته أم سجاد، وبناته الثلاث، وابنه الوحيد سجاد، شاب في الثلاثين من عمره، وسيم الملامح، لكنه يعرج بشدة منذ حادثة سير مروعة في شبابه، يعمل موظفاً بسيطاً في دائرة التسجيل العقاري ...

أم حسن، التي أنجبت خمس بنات وولد واحد هو حسن، كانت ترى في سجاد فرصة ذهبية لابنتها الكبرى زهراء، الفتاة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً، التي رفضت كل الخاطبين بسبب حساسيتها المفرطة من صوت المراوح السقفية!

نعم، كانت زهراء تصاب بنوبة هلع كلما رأت مروحة تدور، وترفض النوم في أي غرفة بها مروحة، وهو أمر نادر في بيوت بغداد الحارة .

فاتحت أم حسن زوجها أبو حسن بالأمر، فقال مازحاً: “سجاد يعرج وزهراء تخاف من المراوح...؛ شكلهما خليقاً ببعض”... ؛ لكن أم حسن

كانت جادة: الرجل محترم وموظف ولديه بيت خاص ... ؛ والعرج لا يعيب الرجل ... ؛ أما الفوييا من المراوح فسنجد لها حل ؛ ان شاء الله .

قررت أم حسن أن تبدأ بمغازلة أم سجاد جارتهم الجديدة... ؛ وفي احد الايام أرسلت إليها طبقاً من الباميا باللحم، ثم طبقاً آخر بالدجاج، ثم ثالثاً باللحم مرة أخرى... ؛ وعندما سألتها أم سجاد عن سر الكرم، همست أم حسن: أريد خير البيتين...؛ بنتي زهراء لولدك سجاد

تتهددت أم سجاد طويلاً ثم قالت: والله يا أم حسن، نحن نقدركم وتشرفنا بكم، لكن سجاد... سجاد حالته صعبة... ؛ ليس بسبب العرج، فالله ابتلاه به وله أجر الصبر... ؛ لكنه... منذ الحادثة وهو يرى كوابيس كل ليلة... ؛ يصرخ في نومه، يضرب الحائط، أحياناً ينهض ويجر ساقه خارج البيت بملابس النوم... ؛ جربنا الأطباء والمعالجين والشيوخ، والله (ما فاد معه) شيء... ؛ من ترضى لبناتها بواحد مثل هذا؟!!

أصرت أم حسن: زهراء تفهم... ؛ زهراء تعرف المعاناة.

دعتها أم سجاد للغداء، وحضر سجاد... ؛ جلس صامتاً، يأكل بتؤدة، ثم نهض فجأة وهو وركض إلى الحمام مغلقاً الباب خلفه ...

ضحكت أم سجاد بحرج: انه يعاني من مرض القولون ... ؛ هذا حاله منذ سنوات ... ؛ خرج سجاد بعد نصف ساعة، معذراً بصوت خافت، ثم دخل غرفته ولم يخرج .

لكن أم حسن لم تتراجع... ؛ قالت لزوجها: سأذهب لأخطبه لزهراء بنفسى...!!

فعلتها... ؛ وذهبت إلى الحاج رحيم، الرجل الطيب الذي كان يربي حمامه على السطح، وطرحت الأمر... ؛ نظر إليها الحاج رحيم بعينين دامتيتين، ثم قال: أم حسن، ابني سجاد مريض... ؛ وأنا أعرف أن زهراء مريضة أيضاً بعلتها الغريبة... ؛ مريضان معاً... لا يؤسسان بيتاً، بل

يهدمانه... ؛ أريد لسجاد أن يجد امرأة تقوده إلى الشفاء، لا امرأة تحتاج إلى من يقودها...

عادت أم حسن إلى بيتها باكية... ؛ ثم قالت لزهراء: سامحيني يا بنتي، رفضونا...!!

ابتسمت زهراء ابتسامة باردة غريبة وقالت: لا بأس يا أمي. أنا لا أريد الزواج أصلاً... ؛ الخوف من المراوح... ؛ والآن العرج والكوابيس... ؛ الناس كلها فيها عيوب؛ إلا أن البعض يتنمر على البعض...!!

مرت أشهر... ؛ وفي إحدى الليالي الصيفية الحارة، استيقظ بعض الجيران على صراخ مدمٍ... ؛ خرجوا فوجدوا سجاد واقفاً في منتصف الشارع وهو شبه عاري، ينظر إلى السماء، يردد: سائق الشاحنة سوف يدهسني مرة أخرى...

أسرع الحاج رحيم وأم سجاد وأخواته لإدخاله، لكنه كان يقاوم بعنف... ؛ عندها، خرجت زهراء من بيتها... ؛ مشيت نحو سجاد بهدوء... ؛ نظرت إليه، ثم قالت بصوت هادئ: لا تخف... ؛ الشاحنة ذهبت بعيداً عنك...

توقف سجاد عن الصراخ... ؛ نظر إلى زهراء بعينين زائغتين، ثم أغمى عليه...

حمله الرجال إلى فراشه... ؛ وفي الصباح، طرقت أم حسن باب أم سجاد وقالت: ابنتي زهراء لم تنم البارحة حزناً على حالة سجاد...

نظرت أم سجاد إلى أم حسن طويلاً... ؛ ثم بكت... ؛ ثم ضمت جارتها إليها.

تزوج سجاد وزهراء بعد شهر... ؛ ولم يعد سجاد يصرخ في نومه... ؛ أصبحت كوابيسه تأتي مرة في الشهر فقط، وكانت زهراء تهمس في أذنه

حتى يهدأ... ؛ أما زهراء، فلم تعد تخاف من المراوح... ؛ ففي ليلة زفافها، نامت تحت مروحة السقف وهي تضحك !!!...

وبعد عام، رزقا بطفلة اسمياها : رجاء .

وفي يوم ممطر، كانت أم حسن تطبخ الباميا باللحم، وإذ بجيرانها يدخلون باكين... ؛ سجاد كان يعبر الشارع حين انحرفت شاحنة مسرعة... ؛ مات في الحال !!!...

حملوا جثمانه إلى المستشفى، ثم إلى بيته... ؛ جلست زهراء بجانب جثة زوجها، لا تبكي... ؛ فقط تمسح على وجهه وتقول: أنت لست ميتاً... ؛ أنت ذاهب في رحلة قصيرة... ؛ وسوف تعود سريعا...

مرت ثلاثة أيام، وزهراء لم تأكل ولم تنم... ؛ وفي اليوم الرابع، نامت فجأة... ؛ حلمت أن سجاد يطير مع حمام والده، ويصرخ من الأعلى: الشاحنة... الشاحنة أتت مسرعة... ؛ لكنها هذه المرة حملتني إلى السماء العاشرة ؛ هناك لا شاحنات ولا كوابيس ولا مخاوف ولا عيوب...
...

استيقظت زهراء باكية... ؛ ثم نهضت، وطبخت قدراً كبيراً من الباميا، ووزعته على كل جيران الحي ؛ لان سجاد كان يحب مرقة الباميا كثيرا
...

ثم قالت لأُمها: سجاد شفي أخيراً... ؛ الكوابيس راحت للأبد .

أم حسن نظرت إلى ابنتها، إلى قدر الباميا الفارغة، إلى السماء التي لم تمطر بعدها... ؛ أدركت أن بنتها لم تعد خائفة من المراوح، لكنها أصبحت خائفة من كل شيء آخر !!!...

تبعات الرؤيا (٥٥)

لصفاء روحه وطهارة قلبه، كان "يونس" يرى في منامه ما يجله في يقظته، فتأتيه الرؤى حاملة أسرار القدر، تارة مبشرة - في هيئة بشير يربّت على كتفه -؛ وتارة منذرة - ومرة في صورة نذير يفتح أمامه أبواب القلق-، وكأن السماء اختارته ليكون مرآة لحقائق مخبوءة، تكشف له الغطاء عمّا تخفيه الأيام...

وكان يؤمن، في أعماقه، أنّ بعض الرؤى ليست سوى ظلال للمستقبل، تتقدّم الزمن بخطوات قليلة.

كان يونس من أولئك الذين يمشون في الحياة بقلوب بيضاء، حتى يبدو للناس أنّه خلق متأخراً عن زمنه.

ففي عالم يتقن فيه الجميع ارتداء الأقنعة، كان هو يدخل إلى الآخرين بوجهه الحقيقي، بلا حذر، بلا مكر، وبلا أسوار.

في ليلة مقمرة، بعد أن أتم صلاته بخشوع وأسبغ وضوؤه بماء بارد غسل عنه تعب النهار، نام يونس قرير العين، خالي البال من شوائب الدنيا... ؛ لكن النوم ما لبث أن حمله إلى عالم غريب، فرأى في منامه رجلاً فارح الطول، عريض المنكبين، مقتول الساعدين، لم يتجاوز الثلاثين من عمره... ؛ كان أنيق الهنّام، يرتدي ثياباً فاخرة تليق بأبناء الذوات، وفي يده خاتم ذهب لامع يخطف الأبصار... ؛ نظر الرجل إلى يونس نظرة طويلة متحديّة، اختلطت فيها الشماتة بالاستعلاء، وكأنه يخبره بأمر جلل دون أن ينبس ببنت شفة...

وقف إلى جانب الرجل كهمل من حثالة المجتمع ؛ دعاه إلى مجلس قريب بدت عليه مظاهر اللهو والعبث والخمر... ؛ ورغم المسافة القصيرة التي تفصل يونس عنهما، فإنه ظل شاهداً على المشهد بكل تفاصيله الدقيقة...

ثم التفت إليه الرجل فجأة، وقال بصوت يقطر انتصاراً خبيثاً: "لقد دَسَسْتُ
عرضك رغم أنفك!"

انهمرت دموع يونس في المنام بلا إرادة منه، رغم أنه لم يكن متزوجاً
بعد، ولم تكن له أخت؛ واما قد بلغت من العمر عتياً ...

استيقظ يونس مذعوراً، وقد امتلأت عيناه بالدموع دون أن يعرف
السبب...

مرّت السنوات، وطوى الزمان صفحاته، وتزوج يونس من "ليلى"،
امرأة فاتنة الجمال، لكنها كانت ذات روح قلقة مضطربة، تخفي خلف
عينها الواسعتين فراغاً عاطفياً عميقاً...

خُدع يونس بجمالها وهدوئها المصطنع، إذ لم يكن يدرك أن بعض
النفوس تحمل في طياتها بذور التمرد والخيانة، لا لشيء إلا لأنها لم تتعلم
يوماً كيف تواجه فراغها الداخلي بشيء غير التدمير...

كانت ليلى تؤدي دور الزوجة الصالحة في البداية، تؤثث البيت بصمتها
المريب وتنشغل بطفلها الأول "آدم"، بينما كان يونس منهمكاً في توفير
لقمة العيش، غارقاً بين العمل والدراسة، يظن أنه بذلك يؤدي رسالته
كرجل على أكمل وجه... لكنه لم يدرك أن الإهمال العاطفي جرح لا
يلتئم، وأن الحب إن لم يُروَّ يومياً يذبل ويموت بصمت...

وفي غفلة من الزمن، تعرفت ليلى على "سلمى"، جارة مشبوهة، وسينة
السمعة، ماهرة في إفساد القلوب الضعيفة...

كانت سلمى تعزف على أوتار الحرمان بمهارة شيطانية، تهمس في أذن
ليلى كل مساء: "إلى متى تبقيين سجيناً الإهمال؟"

ألا ترين كيف تذبلين كزهرة في صحراء قاحلة؟

غيرك من النساء، الأقل منك جمالاً، يلبسن الذهب ويعشن الحب ويتمتعن بالحياة... ؛ لكل امرأة حق في السعادة، ولكل زوجة حق في الاهتمام، وأنت امرأة كغيرهن، لا ينقصك شيء!"

كانت كلماتها كالسم يسري في العروق ببطء، يغتال الفضيلة تحت ستار الصداقة والحرص على المصلحة... ؛ ترددت ليلى في البداية، وخافت من الفضيحة والعار، لكن الفراغ كان كالسديم يبتلع كل مقاومة...

"ساعة لربك وساعة لقلبك"، هكذا كانت سلمى تبرر التناقض، فتتصدع النفوس تحت وطأة هذا المنطق الأعوج الذي يخلط المقدس بالمدنس، ويبرر الانحدار تحت شعارات التوازن المزعوم...

وفي لحظة ضعف مالي، حين احتاجت ليلى المال لعلاج طفلها، مدت سلمى يدها بالإقراض، لتكمل نسيج الخيوط حول عنق ضحيتها...

كانت الديون طعماً يعلق في حلق الكرامة، ثم جاء يوم الحسم... ؛ إذ أحضرت سلمى طعاماً شهياً، وفي خضم المتعة الحسية، كشفت عن خطتها: "هناك من يحبك منذ رأك في السوق، شاب وسيم اسمه 'أمير'، غني، حنون، يهتم بك أكثر من زوجك... إنه ينتظر إشارة منك فقط"

سال لعاب النفس أمام إغراء المال والاهتمام معاً، ذلك الخليط القاتل الذي يغتال الفضيلة...

بدأت اللقاءات الخاطفة، والهدايا المغرية، والكلمات المعسولة التي لم تسمعها ليلى من زوجها يوماً... ؛ وشعرت لأول مرة أنها مرئية، مرغوبة، مقدرة، فظنت أن هذا هو الحب!

كانت تشتري الوهم بالتدريج، تبيع نفسها قطعة قطعة، حتى سقطت في الهاوية كاملة...

انهار جدار الأخلاق أمام إعصار الاحتياج العاطفي والمادي، وغرقت ليلى في مستنقع الخيانة تبرر لنفسها كل خطوة بأنها ضحية زوج مهمل...

لكن القدر كان يراقب بصمت... ؛ فجأة، هرب أمير بعد فضيحة سرقة كبرى، واختفت سلمى كالثعبان الذي بدل جلده، تاركة ليلى تواجه عواقب اختياراتها وحدها...

تبدل سلوكها، واضطربت أعصابها، وتحولت إلى امرأة حادة الطباع، تنتشجر مع زوجها لأتفه الأسباب، فالذنب حين يتعذر الاعتراف به يتحول إلى عدوان على الآخرين، وكأن المعاقبة للضحية البريئة تخفف من وخز الضمير...

في صباح مشؤوم، وجد يونس رسالة مجهولة على عتبة داره، تفضح خيانة زوجته بتفاصيل مروعة، وتكشف كل شيء...

قرأها ... ؛ ومع كل سطر، كان شيء في داخله ينهار...

تجمد الدم في عروقه، وخيم عليه صمت ثقيل كالموت...

ثم بدأ يراقب زوجته بعين المحقق، وقاده البحث عن الحقيقة حتى وجد أمير... ليجد أنه نفس الرجل الذي رآه في منامه قبل سنوات، بنفس الملامح، ونفس نظرة الشماتة المتحدية...

أدرك حينها يونس أن رؤياه كانت كشفاً لما تخبئه له الأقدار، وأن قلبه الصافي كان أشبه بمرآة تعكس حقائق مخبوءة خلف حجب الزمن، فرأى ما لم تره العيون...

لكن إدراك الحقيقة لم يجلب السلام... ؛ اشتعلت نار الانتقام في صدره، فدبر مكيدة لأمر وقته في ليلة حالكة الظلمة، انتقاماً لشرفه المهذور...

ثم، في بطن محسوب، بدأ يضع سمّاً خفياً في طعام زوجته، يوماً بعد يوم، حتى أسلمت الروح بصمت، دون ضجيج أو فضيحة، بينما كان طفلها الصغير نائماً على صدرها لا يدري شيئاً...

عاد يونس إلى فراشه ليلتها، منهك الجسد، مثقل الروح، ليغلبه النوم مرة أخرى... ؛ فإذا بالرجل نفسه يزوره في منامه، بنفس النظرة المتحدية،

ونفس الابتسامة الشامتة... ؛ أدرك يونس حينها، في تلك اللحظة المتأخرة، أن الانتقام لم يحرره، وأن الشماتة ما زالت تلاحقه حتى بعد الثأر... ؛ فالعار لا يمحوه الدم، والخطيئة لا تغسلها خطيئة أكبر...

وبقي السؤال معلقاً في أرجاء روحه كصدى بعيد: من كان السجين الحقيقي في هذا القفص؟!!

ثم أدرك متأخراً أنّ المآسي الكبرى لا تبدأ بالخيانة، ولا بالجريمة، بل تبدأ بلحظة صمتٍ طويلة بين قلبين كان ينبغي أن يتحدّثا...

وعرف أن الإنسان لا يُهزم دائماً بالخيانة... ؛ بل قد يُهزم أحياناً بالإهمال، بالصمت، وبالأشياء الصغيرة التي نؤجل قولها حتى يفوت الأوان.

بين فحين... حلم يقطر دماً (٥٦)

لم يكن نومه نوماً كاملاً تلك الليلة.. , كان أشبه بغرقٍ متقطع في ماءٍ بارد، كلما همّ أن ينجو منه أعاده شيءٌ إلى القاع.

في الفجر، فتح عينيه على صرخة لم يسمعها بصوتها، بل شعر بها تنفجر داخل صدره.

جلس على طرف السرير، يلهث كمن خرج لتوّه من تحت ركام.

كان الضوء الرمادي يتسلل من النافذة، لكنه بدا له كضوء غرفة تحقيق لا كضوء صباح.

الشيء الوحيد الذي بقي واضحاً في رأسه: الحلم.

الشارع أمام بيته كان ممتلئاً بالناس.. , الجيران الذين يعرف وجوههم واحداً واحداً، الأقارب الذين يتشاجر معهم على تفاصيل صغيرة، الأصدقاء الذين يتسمون في المناسبات ثم يختفون... ؛ كانوا جميعاً هناك.. , مصطفين بصمتٍ غريب، كأنهم لم يأتوا لزيارته، بل لحكم مؤجل.

والمخيف لم يكن عددهم.

بل عيونهم.

كانت جميعها متجهة نحو ميزاب بيتهم، حيث كان الماء—أو ما يشبه الماء—يتحوّل إلى دم.. , قطرات حمراء تنزل ببطء، كأنها لا تسقط بل تتردد قبل أن تعترف بأنها دم.

وحين حاول في الحلم أن يصرخ، لم يخرج صوته.. , ركض.. , لا يعرف إلى أين.. , فقط ركض، كأن النجاة فكرة لا مكان.

استيقظ.

لكن الحلم لم يستيقظ معه.

في الصباح، لم يتصرّف كما يفعل عادة.

لم يفتح التلفاز.. , لم يتفقد هاتفه.. , لم يثرثر مع نفسه كما اعتاد حين يبدأ يومه.

جلس في المطبخ أمام فنجان قهوة بارد تقريباً، يمسكه بكفه كما لو أنه الشيء الوحيد الذي يمنع سقوطه داخل رأسه.

دخلت زوجته ؛ إن كان ما بينهما يمكن تسميته زواجاً في تلك المرحلة.

قالت وهي تضع الخبز على الطاولة دون أن تنتظر إليه:

“لم تنم؟”

أجاب بعد لحظة طويلة:

“نمت كثيرًا... وهذه هي المشكلة.”

لم تفهم، أو تظاهرت بعدم الفهم.. , وهذا كان أكثر راحة للطرفين.

في داخله، كان شيء قديم يستيقظ.. , ليست فكرة، بل حالة.. , ذلك الشعور الذي رافقه منذ سنوات: أن كل ما يفعله لا يصل، أن كل نصيحة يسمعها تتبخر قبل أن تلمس أرضه، أن كل باب يطرقه يردّ عليه بصدى مغلق.

قال لنفسه وهو يحثّق في القهوة:

“حتى الحياة لا ترد.”

ثم، وبشكل مفاجئ، ظهر الحل في ذهنه كأنه ليس فكرة بل إغراء.

الموت.

لم يكن تفكيرًا فلسفيًا.. , لم يكن رغبة سرّية وجودية في النهاية.. , كان أقرب إلى قرار إداري بارد: إغلاق ملف لم يعد يحتمل التأجيل.

وقف.

فتح درجًا قديمًا في غرفة النوم.

كان المسدس هناك، كما لو أنه لم يُخفَ بل وُضع لليوم الذي يأتي فيه دوره.

لم يهزه.

حشوه بالطلقات.

كانت يده ثابتة بشكل مخيف، كأن شخصًا آخر يقوم بالفعل نيابة عنه.

في الخارج، كان الشارع طبيعياً.. , وهذا ما جعله أكثر رعباً.

الطبيعي دائماً يبدو خيانة حين تكون أنت على حافة غير مرئية.

نزل الدرج.

كل خطوة كانت أقصر من التي قبلها، كأنه يقترب من نفسه لا من الشارع.

فتح الباب.

البداية لم تكن واضحة.

ثم حدث كل شيء بسرعة، بشكل لا يشبه أي تفكير مسبق.

صوت معدني حاد شقّ الهواء.

صرخة أولى.

ثم صرخات تتكاثر.

الناس الذين رأهم في حلمه... صاروا هنا.

لكن هذه المرة لم يكونوا رموزاً.

كانوا بشرًا يركضون فعلاً.

امرأة تسقط.

رجل يصرخ باسم لا أحد يجيبه.

طفل يضيع بين الأرجل.

الشارع الذي كان في الحلم لوحة... , صار جسداً حياً يتألم.

تراجع خطوة.

ثم أخرى.

يده التي أمسكت بالسلاح ارتجفت لأول مرة.

قال بصوت لا يسمعه أحد:

“هذا... ليس ما أردته.”

لكن الرصاص—أو ما حدث—كان قد سبق كلامه.

في لحظة ما، توقف كل شيء داخله.

ليس الخارج.

بل هو.

كأن جسده انفصل عن قراره، وتركه وحيداً أمام نتيجة لا تخصه، لكنها خرجت منه.

سقط على ركبتيه.

بدأ يسمع نفسه من بعيد، كأن صوته ليس داخله.

ثم انفجر.

صرخة طويلة، لا تشبه الألم فقط، بل تشبه الانهيار الكامل لفكرة الإنسان عن نفسه.

“لماذا؟... لماذا لم أنتظر؟”

ثم، أخفض صوته فجأة، كأنه يخاطب شخصاً مات داخله قبل أن يموت جسدياً:

“الصبر... كان أبسط من هذا كله...”

سكت.

لم يعد هناك ما يُقال.

في النهاية، لم يبقَ صوت.

ولا شارع.

ولا حلم.

فقط رجل جالس في منتصف فراغٍ ثقيل، يكتشف متأخراً أن بعض الأبواب لا تُغلق بالمفتاح... بل بالوقت.

وأن الفخّين اللذين ظنّ أنه محاصر بينهما... لم يكونا سوى باب واحد، اختار أن يفتحه في الاتجاه الخطأ.

بين الدخان والتلج (٥٧)

لم يكن عارف يؤمن بالصدفة، بل كان يراها شكلاً متأخراً من القدر حين يتردد في إعلان نفسه... ؛ لذلك حين وصلت دعوة السفر إلى إيران، لم يقرأها كخبر عابر، بل كاختبار صغير لما تبقى من يقينه بأن الكلمات قادرة على إنقاذ العالم، أو على الأقل إنقاذ صاحبها من التآكل البطيء داخل ذاته.

الدعوة جاءت عبر صديقه غسان، رجل الإعلام الذي يجيد ترتيب الصور أكثر من ترتيب الحقائق.

وفدٌ عراقي متنوع سيزور طهران: شمال وجنوب، مدن وأهواء، طوائف ووجوه، وكأن البلاد تُعاد تركيبها مؤقتاً في حقيبة سفر واحدة لعرضها خارج حدودها.

حين سمع عارف أن بين المدعويين شيوخ عشائر، خطرت له فكرة لم يسأل نفسه عن براءتها أو خطورتها: أن يدعو قريبه الشيخ حيدر.

حيدر كان حالة ملتبسة؛ شيخ عشيرة بلامح مدنية، وصحفي تخرج من كلية الإعلام، ورجل يعيش كأنه لا ينتمي تماماً لأي تعريف.. كان وسيماً على نحو يربك المعنى، بعينين خضراوين لا تُشبهان صلابة موقعه الاجتماعي، كان الطبيعة ارتكبت خطأ جميلاً حين منحتهما له.

وافق غسان.. وهكذا تحرك الوفد، لا كرحلة، بل كمسرح متنقل يُعيد تمثيل صورة وطن متشظٍ دون أن يجرؤ على الاعتراف بتشطيه.

في طهران، هبطوا تحت سماء رمادية تشبه ذاكرة مرهقة.. التلج خفيف، كأنه ترددٌ في السقوط.. شعر عارف أن الهواء يغسل صدره من الداخل، بينما قال حيدر ضاحكاً إن البرد يوقظ في الإنسان رغبة الاحتماء بشيء دافئ، ثم ترك الجملة معلقة، كأنه سيعود إليها لاحقاً ولم يفعل.

الفندق كان شاهقاً، والطابق السادس عشر يمنح المدينة شكل لعبة صغيرة تحت الأقدام.. برج ميلاد كان يطلّ من بعيد كإبرة مغروزة في السماء، لا تخطط شيئاً بقدر ما تجرّب ثقب المعنى نفسه.

تساءل عارف بصمت: ما جدوى العلو إذا كانت الأرواح تتحدر في الاتجاه المعاكس؟

في المساء، بدأ الانزلاق الأول.

في مقهى الفندق، كان الدخان كثيفاً كأنه لغة موازية يتفاهم بها الآخرون.. حيدر انخرط فيه بسهولة، سجائر ونرجيلة وضحكات مقطعة.. أما

عارف فكان يتعامل مع الدخان كعدو غير مرئي، كأن كل نفس منه خيانة صغيرة لجسده.

هناك رأى المرأة.

كانت في الستين تقريباً، ملامحها أنيقة على نحو موجه، ترتدي السواد كأنها في حداد طويل على حياة لم تُتصفها.. , اقتربت من حيدر مباشرة، تجاهلت عارف كأنه غير مُدرج في المشهد، ظل زائد عن حاجة الحكاية.

اسمها نوال، مهندسة متقاعدة من كركوك، أرملة تعيش نصفها في ذاكرة لا تنتهي، ونصفها الآخر في انتظار لا يأتي.

جلست مع حيدر كمن وجد فجأة نافذة في جدار مغلق.. , ضحكت.. , دخلت.. , واستعادت شيئاً لا يمكن تسميته بسهولة: شاباً مؤجلاً، أو وهماً مؤقتاً بالعودة إلى زمن لم يعد موجوداً.

غادر عارف المقهى دون احتجاج.. , كان يهرب من الدخان، نعم، لكنه كان يهرب أيضاً من سؤال آخر أكثر قسوة: لماذا يبدو البشر أكثر استعداداً للحياة حين يجدون من يشاركونهم وحدتهم، حتى لو كان ذلك المشاركة عابرة ومشوشة؟

في اليوم التالي، أخبره حيدر ببساطة أن نوال دعتة إلى الغداء.. , لم يقل إنه وافق، بل قال إنه "لم يستطع الرفض".. , كانت العبارة كافية لتلخيص كل شيء: الإنسان لا يختار بقدر ما يُدفع بلطف نحو خياراته.

خلال أيام قليلة، تأكلت المسافة بين الاثنين.. , الغداء صار لقاءات، واللقاءات صارت انزلاقاً هادئاً نحو علاقة لا تحتاج تعريفاً.. , وفي مساء قبل مغادرة طهران، قال حيدر بلا مقدّمات إنه أقام علاقة جسدية مع نوال.

لم ينفجر عارف.. , سكّت فقط.

لم تكن الصدمة في الفعل، بل في بساطته.. , كأن الجسد أصبح أسرع لغة ممكنة حين تفشل كل اللغات الأخرى.. , كأن الرغبة اختصرت الطريق على حساب كل ما يُفترض أنه إنساني: التردد، المعنى، الذاكرة.

في مدينة قم ، وعند محطة دينية مزدحمة، افترقا.. , نوال قالت إنها ستغادر مبكراً.. , و عارف لم يصدقها، لكنه لم يسأل.. , كان يرى في عينيها ما يشبه الهروب من شيء لا يُقال.

ثم جاء القطار.

سبع عشرة ساعة من العزلة داخل مقصورة تضيق تدريجياً.. ؛ حيدر يدخل.. , رجل آخر من الوفد يدخل.. , والدخان يتكاثر حتى يصبح الهواء فكرة غير قابلة للتنفس.

عارف كان يصعد إلى السرير العلوي كمن يهرب من العالم.. , يفتح النافذة فينهشه البرد.. , يغلقها فيخنقه الدخان.. , وبين الاثنين، لم يعد هناك فرق حقيقي بين الألمين.

بدأ صدره يتحول إلى مساحة غريبة، لا يدخلها الهواء ولا يخرج منها.. , شيء ما في الداخل كان يتعفن بهدوء.. , ثم انطفأ.

استيقظ في مستشفى بمدينة مشهد.

أبيض.. , صامت.. , نظيف أكثر من اللازم.

حيدر عن يمينه.. , الرجل الآخر عن يساره.. , باقة ورد على الطاولة كأنها محاولة متأخرة لتجميل حادثة لم تُفهم بعد.

ابتسموا حين فتح عينيه.. , وبعد أن خرجت الممرضة، عاد الدخان.

لم يسأله أحد إن كان يتحسن.. , لم يفكر أحد بإطفاء السجارة.

في تلك اللحظة، أدرك عارف شيئاً أبعد من الاختناق نفسه: أن البشر لا يتخّلون بسهولة عن أذاهم، حتى حين يتحول هذا الأذى إلى خطر واضح.. ؛ ليس لأنهم أشرار، بل لأن التغيير أثقل من الألم، وأكثر كلفة من الاعتذار.

أغمض عينيه.

هذه المرة لم يكن الدخان هو السبب وحده.

كان السبب أنه فهم متأخراً أن أخطر ما في الرحلة لم يكن الثلج في الخارج، ولا الدخان في الداخل، بل الإنسان حين يعتاد ألا يرى غيره وهو يختنق بجانبه.

وفي مكان بعيد، كان برج ميلاد ما يزال واقفاً، يشير إلى السماء كأنه يسأل سؤالاً لا إجابة له:

هل يصعد الإنسان حقاً... أم أن كل صعوده مجرد دخان، يتكاثف لحظة ثم يذوب في هواء لا ذاكرة له؟

بين الأجرة والرحمة (٥٨)

لم يكن تموز في بغداد شهراً...؛ بل كائنًا ناريًا يزحف على الإسفلات ويختبر صبر الأحياء.

الساعة تقترب من الثالثة، والمدينة تبدو كأنها تُسحب من حلقتها ببطء.

محمد يقود سيارته كمن يجزّ يومه من طرفه الأخير.

لا موسيقى، لا حديث، فقط صوت المكيف المتعب وصوت داخلي لا يصمت:

“فواتير... مدرسة... كهرباء... طفلة تريد لعبة... وزوجة تريد أن لا تنهار.”

يرى الناس ولا يراهم.

أجساد تتحرك على الرصيف كإشارات مرور بشرية: توقف... امض...
لا أحد يلوح له.

ثم حدث ما يشبه “الخطأ” في نظام يومه.

فتاة.

تقف وحدها، حقيبتان أكبر من كتفيها، وعباءة سوداء لا تخفي هشاشة
جسدٍ لم يكتمل بعد.

رفعت يدها بخجل، كأنها تعتذر مسبقاً عن وجودها.

توقف.

لا يعرف لماذا.

ربما لأن اليد لم تكن طلباً فقط... بل استغاثة مؤدبة.

— إلى أين؟

— المنصور... كم الأجرة؟

— اثنا عشر دينار.

— عندي عشرة فقط.

صمت لحظة.

ثم قال كمن يوقع على شيء لا يفهمه:

— اركبي.

في اللحظة التي أُغلق فيها الباب، تغيّر الهواء داخل السيارة.

لم تعد هناك مدينة... بل مساحة صغيرة مغلقة على احتمال مجهول.

محمد (بنبرة شبه أبوية، لكن مرتبكة):

— إنتِ منو؟ وين أهلك؟ ليش وحدج بهالحر؟

الفتاة تحقق في الشارع عبر الزجاج، كأنها تبحث عن نسخة أقدم منها
تهرب معها.

صمت.

ثم فجأة... انهارت.

ليس بكاءً عادياً.

كان كأن شيئاً انكسر منذ زمن وقرر الآن فقط أن يُسمع صوته.

— عمو... لا تظن بي سوء... والله وثقت ببيك.

ارتبك.

يده على المقود صارت أثقل من السيارة كلها.

— احجي... أنا أعتبرج بنتي.

وهنا بدأت الحكاية تتكشف، لكن ليس كقصة... بل كجرح يتكلم.

— اسمي حوراء... ١٥ سنة.

أهلي عايشين بمنطقة راقية... بس البيت موزين.

أبوي غني... بس ما يحبني.

تضحك ضحكة قصيرة مليئة بالدموع لكنها بلا معنى.

— ما يحبني، مو يعني يكرهني بس... يعني يشوفني غلط.

تواصل، وكأنها كانت تحفظ الجملة منذ سنوات:

— يصرخ، يذل، يقارنني، وأمي... أمي ساكتة.

وأنا تعبت.

قلت أهرب... يمكن أعيش مثل البشر.

محمد يضغط على المكابح الداخلية في صدره قبل السيارة.

— يا بنتي... الشارع مو بديل.

الشارع مو حرية... الشارع فخ.

يصمت لحظة، ثم يخرج الكلام كأنه ينزف:

— إنتِ فاكرة الهروب بداية؟ لا...

الهروب إذا دخلتيه بدون سند، يصير طريق ما له رجعة.

الفتاة ترفع رأسها لأول مرة:

— يعني أرجع أعيش مكسورة؟

يهتز صوته:

— مكسورة داخل بيت... أهون من مكسورة برا.

برا ماكو أحد يسأل إذا إنتِ موجهة أو ضايعة.

ثم، وكأنه يرى ابنته فيها:

— هنا ماكو رحمة مجانية.

هنا الناس مو كلهم ناس.

صمت طويل.

المدينة تمر بجانبهم كفيلم لا يهتم بالشخصيات.

فجأة، بصوت منخفض:

— عمو... خذني وياك.. , أخاف يرجعوني وأموت.

شدّ على المقود.

هذا هو الامتحان الحقيقي الآن، لا الطريق.

— لا.

ما أكرر.

إذا أخذتج، أكون أبدلت خطر بخطر.

تبدأ بالبكاء من جديد، لكن هذه المرة بلا صوت تقريباً.

ثم يقول، وكأنه يقرر عن العالم كله:

— نرجع.

السيارة تدور.

ليس انعطافاً... بل اعترافاً.

أمام البيت، كان الأب ينتظر، وجهه خليط بين القلق والغضب.

الحقائب تُنزل.

والصمت أثقل من أي شرح.

محمد يتكلم، لكن ليس كرجل ينصح... بل كرجل خسر هدوءه:

— هاي بنتك. مو لعبة.

أنت مسؤول عنها قدام ربك قبل الناس.

الأب يحاول الدفاع، يبرر، يعلو صوته... ثم ينكسر صوته فجأة أمام ثقل اللحظة.

محمد لا ينتظر النهاية.

يركب سيارته.

لكن شيئاً فيه لم يعد كما كان.

في البيت، يفتح الباب.

طفله تركض نحوه.

يحملها بسرعة غير معتادة، كأنه يتأكد أنها ما زالت موجودة، حقيقية، لم تهرب.

تضحك.

وهو... لأول مرة منذ زمن لا يُحصى، لا يفكر في الدنانير.

يفكر فقط في معنى بسيط وخطير:

أن تبقى إنساناً... في مدينة تحاول كل يوم أن تنزع هذا منك.

بوابة تُفضي إلى الوطن (٥٩)

مضت عشرة أعوام على هلاك الطاغية ... ؛ ومع ذلك أفقت من نومي
فرعاً، كأنّ الرعب لم يغادر جسدي منذ تلك الأيام الدموية السوداء ... ؛
رأيت في المنام أنّي أسير في أرض جرداء موحلة، موحشة كأغلب
أراضي العراق يوم كان الظل أثقل من الشمس، والخوف أقرب إلى
الناس من أنفاسهم... . كنت أمشي ومعّي أبي، وابني الصغير سيف،
ورجل رابع طويل القامة، يرتدي دشداشة بيضاء، لا أعرفه، أو لعلّي
عرفته ثم أنكرته خشية أن أحمله ما لا يحتمل من الذاكرة

كنّا نمشي بوجل وحذر، نُصغي لوقع أقدامنا كأنّها وشاية، ونلتفت إلى
الظلال كأنّها عيون... ؛ وفجأة نظرنا جميعاً إلى جهة بعيدة عن يسارنا،
فاذا بالطاغية صدام جالس على كرسي مرتفع، وخلفه وحوله حرس
كأنهم زبانية نار، يترّبصون بالمارة، يرمقونهم بنظرات الذئاب الجائعة
والضباع المتوحشة

ولا أدري كيف حدث ذلك، لكن اثنين منا رفعاً أيديهما لا إرادياً بالسلام
العادي الذي يتبادلّه الناس: “السلام عليكم”... ؛ نعم، تجمّد الدم في
عروقي، لكنّ يدين من بيننا — لا أدري أكانت يداي أم يدا أبي أم يدا
الرجل الغريب — ارتفعتا بلا إرادة، تلقّيان السلام كما يفعل الناس
بعضهم لبعض... .

كان سلاماً خرج من أفواهنا على استحياء، كأنّه يبحث عن عذر قبل أن
يبلغ مسامعهم... ؛ سلمنا على الطاغية وواصلنا السير دون توقف... ؛
كان يدخل سيجارة جرود كويبة، أما هو وزبانيته فلم يردوا السلام... ؛
أعدنا السلام مرّة أخرى، وكأنّنا نستجدي من الكلمات نجاةً، لكنّ الصمت
كان أثقل من الإساءة... .

فاذا بالصمت ذاته يخيم عليهم، مع أن رد السلام واجب في ديننا ... ؛
وهذا الامر أكد لنا صدق حقيقة جذورهم الغريبة عن هذه الارض
الطاهرة

لا أعرف مَنْ مِنّا الأربعة بادر بالسلام عليه، ولا أعرف لماذا... ؛ هل كان ذلك من باب التقية وحقاً للدماء؟

أم لأننا لم نتبين ملامحه في البداية؟

أم لأن السلام عادة العرب والعراقيين؟

كلّ ما أعلمه يقيناً أننا كنّا نكرهه كرهًا لا يوصف، نحن الأربعة، بلا استثناء؛ حتى ابني الصغير سيف، الذي لم يعرف من الدنيا إلا ظلّ الخوف، كان يحمل في عينيه نفورًا لا تخطئه الفطرة... ؛ حتى الرجل لغريب — أو الذي نسيث اسمه — كان يشيح بوجهه كأنه يخشى أن تفضحه النظرة

شعر الطاغية بما في صدورنا... ؛ ورأى الكراهية والحق في عيوننا كما رأينا نحن الجحيم والحق في نظراته الحادة

واصلنا السير حتى بلغنا ساحةً واسعةً محاطةً بسيّاح خرسانيّ عالٍ، يشبه عوازل السجون والمعتقلات... ؛ كانوا يسمونه “الكراج”، إذ من المفترض أن تقف فيه سياراتُ الأجرة لتنتقل الناس إلى وجهاتهم، لكنّه كان خاليًا إلا من ثلاث سياراتٍ صغيرةٍ متهاكة ... ؛ اما بقية السيارات فكانت خارجه ؛ نراها من خلال فتحات صغيرة في الجدار تشبه فتحات الزنانات...!!

نظرنا من خلال تلك الفتحات الضيقة المتسخة بالغبار و (الصخام) فرأينا رجالاً يزعمون أنهم سائقون، لكنّ وجوههم كانت توحى بالريبة وعدم الاطمئنان ؛ عيونهم تلمع بفضول الجواسيس... ؛ يراقبون المارة والمسافرين كما يفعل رجال الأمن، وكأنّ المهنة الحقيقية ليست نقل الناس، بل نقل أخبارهم ... ؛ كان معظم من يدّعون أنهم سائقو تلك السيارات من الهمج الرعاع، من أبناء المناطق الهجينة وشذاذ الافاق ... ؛ ممن يطيعون الطاغية طاعة عمياء ويحملون في صدورهم حقداً دفيناً على العراقيين الأحرار والاصلاء...!!

ثم سرنا نحو وسط الساحة... ؛ وكلّ خطوةٍ كانت امتحاناً... ؛ وفجأة سمعنا منادياً ينادي من خلفنا... ؛ حسبه نذير شؤم، ومبعوث الطاغية... ؛ في داخلنا سلماً أمرنا الله، وتهياناً نفسياً لبلاءٍ لا يُرد...، التفتنا... ؛ لكن المنادي لم يكن سوى جارنا وقربينا، "أبو علي"، ومعه مجموعة من الرجال يرتدون الدشاديش البيضاء والعقل فوق الكوفيات... ؛ بعد تبادل السلام، وكان في صوته رجفةً من نجا لتوّه من موتٍ محقق... .

أخبرنا أبو علي أنه نجا هو وآخرون بأعجوبة، فقد حاول الطاغية اغتصاب طفلتين صغيرتين، لكن الله نجاهما ونجاناً جميعاً من شره، فأفلتتا من قبضته الحديدية في لحظةٍ لم يحتسبها... لم يكمل حديثه حتى ودّعناه، كأننا نخشى أن يطول بنا الوقوف فترصد من جديد... ؛ سرنا مسرعين، فإذا ببوابةٍ كبيرةٍ عتيقة، تشبه بوابات المساجد العباسية، تفتح في أحد الجدران الخرسانية الصماء... دخلنا فيها... ؛ ثم خرجنا منها... .

لكننا لم نخرج إلى ساحةٍ أخرى، بل إلى سجنٍ أكبر؛ سجنٍ كان يُسمى يومها : الوطن...!!

غير أنّ المفارقة أنّنا، ما إن تجاوزنا تلك البوابة، شعرنا بالأمان؛ كأنّ الخلاص لم يكن في اتّساع المكان، بل في البعد عن عين الطاغية... ؛ فقد كنا في مأمن من الطاغية وزبانيته...!!

استيقظت وأنا ألّهت... ؛ عندها : أدركتُ أنّ الطغاة يموتون مرّةً في التاريخ، لكنهم يموتون ألف مرّةٍ في أحلام من عاشوا تحت ظلالهم... ؛ وأنّ الوطن، مهما ضاق، يبقى أرحم من كرسيٍّ يجلس عليه مستبدّ، يظنّ أنّ الصمت طاعة، وأنّ السلام خضوع... .

بوابة الغواصة (٦٠)

في البدء كانت الفوضى... ؛ وفي الفوضى كان خالد يبحث عن شكلٍ لروحه المثقوبة بالرصاص المنتظر.

الدخان يخرج من البيوت المهذّمة مثل أرواحٍ ضلّت الطريق إلى القيامة، والرصاص يمرّ فوق الرؤوس بصغيرٍ يشبه ضحك الشياطين.

لم يكن خالد يؤمن بالنجاة.

كان يؤمن فقط بأن الموت يتأخر أحياناً، مثل قطارٍ صديّ يضيع بين المحطات.

في معركة قضاء الكرمة، عام ٢٠١٤، كانت السماء أقرب إلى فوهة بندقية منها إلى سماء.

التراب ساخناً كأن الجحيم يتنفس من تحته، والرصاص يعبر فوق الرؤوس مثل أسراب غربان معدنية، كان سقف الموضع العسكري منخفضاً كأنه سقف تابوت .

اختبأ خالد خلف ساترٍ ترابي، واضعاً جبهته على كفه المرتجفة.

لم يكن خائفاً من الموت بقدر خوفه من أن يموت دون أن يفهم لماذا عاش كل هذا العناء.

همس:

— الله لا إله إلا هو الحي القيوم...

قرأ آية الكرسي مرة.

ثم ثانية.

ثم الثالثة.

كان ينفث عن يمينه ويساره، أمامه وخلفه، فوقه وتحتّه كأنه يبني حول نفسه قفصاً من نور ، كما أوصاه الشيخ العجوز قبل خمسة عشر عاماً في مدينة النجف الاشرف .

تذكر وجه السيد علي الكفائي؛ التجاعيد التي كانت تبدو كخرائط أنهكتها القرون، والصوت الهادئ الذي يشبه ماءً قديماً يجري داخل بئر.

— يا بني... الإنسان لا ينجو بالقوة وحدها.. , أحياناً تنقذك الفكرة والعقيدة التي تؤمن بها أكثر مما ينفذك السلاح.

حينها كان خالد شاباً هارباً من الجيش الصدامي، يحمل خوفه مثل حقيبة سوداء لا يستطيع رميها.

أما الآن، فقد صار يحمل بندقية وخرائط عسكرية وأسماء موتى كثيرين..

كان خالد ملتصقاً بساترٍ ترابيٍّ مبتلٍ بعرق الجنود والدم... ؛ إلى جواره جاسم يلوّك سيجارته بعصبية، بينما القناص في الجهة المقابلة يحصد الظلال.

رفع جاسم رأسه من المتراس وقال ضاحكاً:

— إذا متنا اليوم... سأرفع دعوى على الله لأن الإجازة لم تصدر بعد.

ابتسم خالد نصف ابتسامة.

وفي اللحظة التالية، اخترقت رصاصة القناص رأس جاسم لتستقر في جمجمته كما تستقر الحقيقة في قلبٍ لم يطلبها .

ترجع جسد جاسم إلى الخلف ببطء غريب، ثم سقط في حضن التراب، بينما بقيت عيناه مفتوحتين بدهشة طفلٍ اكتشف أن العالم يكذب.

سقط جسده بلا صوت تقريباً.

الغريب أن الموت صامت دائماً، أما الحياة فهي التي تصرخ.

ألقى خالد بجسده إلى الأرض كما يلقي المرء بعباءة بالية، والتصق بالتراب حتى شعر أنه يريد الدخول فيه، كأن الأرض أم ثانية.

سقط لا من خوف، بل من تلك اللحظة الفارقة التي تسبق الموت بجزء من الثانية، حين ينقسم الزمن إلى ما قبل الرصاصة وما بعدها.

"آية الكرسي..." همس وهو يلحق التراب... ؛ "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..."

قرأها ست مرات... ؛ لا لأنه يؤمن بالعدد، بل لأن العالم من حوله كان ينهار في ست جهات: شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وفوقاً وتحتاً... ؛ وكان الموت يأتي من كل الجهات معاً، كحبٍ قديمٍ عاد ليأخذ ما نسيه.

في الليل، ظل ينظر إلى خوذة جاسم الملقاة قرب الساتر.

كانت ممثلة بالدم والمطر.

وقال في نفسه:

«لماذا يختار الموت شخصاً ويترك آخر؟

هل المسألة حكمة؟

أم صدفة عمياء؟!»

استمرت المعارك الطاحنة عشرة أيام.

عشرة أيام كان الليل فيها أطول من التاريخ، وكانت الجثث تُسحب مثل أكياس رمل.

ثم جاءت فصائل المقاومة الإسلامية، ومجاميع المتطوعين الشجعان ؛ لتحل محل القوات الاتحادية، وانسحبت الوحدة العسكرية .

وبعد عشرة ايام ؛ عاد خالد إلى بغداد بإجازة قصيرة ، شعر أن المدينة ليست مدينة، بل امرأة عجوز أنهكها البكاء.

حين دخل البيت، شعر كأنه عبر من مقبرة إلى رحم.

رائحة الطعام.

صوت المكيف.

صحن الرز والفاصوليا.

يد أمه وهي تضع قطعة الدجاج في صحنه بصمت يشبه الصلاة.

تناول الطعام ببطء، كما لو أنه يتذوق الحياة نفسها.

في الحرب، يأكل الإنسان كي لا يموت.

أما في البيت، فهو يأكل لأنه يتذكر أنه إنسان.

كان يتأمل اطباق الطعام وكأنه يتأمل معنى البيت.

قالت له أمه:

— لماذا تنتظر إلى الصحن هكذا؟

ابتسم بحزن:

— لأن الذي يرى الموت كثيرًا... يتعلّق بالأشياء الصغيرة.

شرب الشاي المهيل، ثم دخل الى الحمام .

أخذ الليفة، وذلك جسده بعنف، كأنه يريد أن ينزع الحرب عن جلده.

كان الصابون التركي الفاخر يملأ المكان بالأريج ، لكنّه ظل يشعر أن

رائحة البارود ما زالت تسكن أصابعه.

وقف طويلاً تحت الماء.

همس لنفسه:

— كم جنة تحتاج الروح كي تشيخ؟

ثم نام تحت هواء المبردة كميّ نجا مؤقتاً من المقبرة.

ثم خرج إلى شارع الربيعي في حي زيونة الراقي .

كان يمشي بين مكاتب السياحة والسفر كمن يبحث عن منفذ سري للهروب من ذاكرته.

وحين دخل شركة القمة للسياحة والسفر ، شعر بشيء يشبه الطمأنينة.

الموظف مروان ناوله قطعة حلوى وسأله بابتسامة:

— إلى أين ترغب بالسفر؟

أجاب خالد بعد صمت قصير:

— إلى جورجيا .

بعد يومين، كان في مطار بغداد.

هناك شيء يشبه الخلاص في المطارات.

الناس لا تسافر فقط من بلدٍ إلى بلد، بل من نسخةٍ إلى نسخةٍ أخرى من أنفسهم.

في الطائرة، كان خالد ينظر من النافذة.

تحت الغيوم اختفى العراق.

شعر لوهلة أن الحروب مجرد حلم سيئ.

لكن الإنسان يحمل بلاده داخله، حتى لو عبر المحيطات.

وحين وصلوا تبليسي، بدا له العالم مختلفاً بصورة مغايرة تماماً .

الناس يضحكون بلا خوف.

المقاهي مليئة بالعشاق.

العجائز يمشون ببطء وكرامة، لا كمن ينتظر موته عند باب الجامع.

النساء يمشين بخفة لا تعرف معنى التفجيرات او التحرش الجنسي .

في تبليسي، كانت الشوارع نظيفة بصورة تثير الاسترخاء .

الأشجار والزهور متسقة وجميلة .

حتى مركز الشرطة كان يبدو مكائاً جميلاً، تحيط به الورود من كل

جانب، أشبه بـ«آرت ستوديو» هادئ أكثر من كونه مركزاً أمنياً...!!

بلغت نسبة الجريمة حدّ الصفر، رغم ما عصفت بالبلاد من هزّات

وانتكاسات واضطرابات، ورغم خوضها حرباً غير متكافئة مع روسيا ؛

ومع ذلك ظلّ المجتمع وديعاً، مدنيّاً، ومفعماً بروح السلام، كأنّ الخراب

كان يمرّ من فوقه دون أن ينجح في تلويث إنسانيّته.

في تبليسي، حيث نهر كورا يمزق المدينة إلى نصفين كما يمزق الحنين

صدر المغترب، جلس خالد على الضفة حاملاً قنينة الويسكي... ؛ كانت

الليلة الأولى له خارج العراق.. ؛ خارج الخوف.. ؛ خارج نفسه.

جلس قرب ضفاف النهر ، يحتسي كأساً صغيرة بينما يراقب شيخاً

جورجياً طاعناً في السن يصطاد السمك.

كان البرد قاسياً، لكن الشيخ الجورجي العجوز ظل واقفاً يصطاد السمك.

تجاوز المئة من عمره، ومع ذلك بدا أكثر حياة من شباب بغداد.

كان الراديو الصغير قرب يده يبعث موسيقى قديمة، والرياح تبعث بمعطفه

البنّي.

كان الشيخ الجورجي الذي يصطاد السمك في الليل يشبه سؤالاً فلسفياً معلقاً بين الماء والسماء... ؛ يدان مرتعشتان تمسكان بسنارة، وعينان تحدقان في العدم كما لو كانتا تقرأ كتاباً لم يكتب بعد... ؛ مئة عام من العمر، ومع ذلك يقف كشجرة بلوط عتيقة تأبى أن تسقط، لا عناداً، بل لأن السقوط لم يكن يوماً خياراً مطروحاً على جدول أعمالها.

"كيف تفعلها؟" سأل خالد نفسه، أو ربما سأل الشيخ من بعيد ، أو ربما سأل النهر الذي يجري دون أن يجيب.

رفع الشيخ رأسه ببطء، كما يرفع البحر رأسه ليلتقي بالقمر، وابتسم ابتسامة من عرف أن الحياة ليست في البقاء، بل في طريقة النظر إلى ما يبقى.

تأمله خالد طويلاً.

ثم تذكر رجالاً في بغداد كانوا يشيخون في الثلاثين.

هناك، في العراق، كان الزمن يأكل الناس بسرعة.

الحروب، الخوف، القمع، الظلم، الفساد، العقائد الثقيلة، الرؤى الطوباوية والسوداوية، الفقر، الحصار، الخسارات، الأمراض، العقد النفسية والاجتماعية، المشاكل، الصراعات...

كلها كانت تطحن الروح قبل الجسد.

أما هذا الشيخ، فكان يشرب البيرة ويبتسم للماء وكأن الحياة ما تزال تستحق التأمل.

تذكر خالد جاره عيسى. كان عيسى يغني دائماً: "عمر واتعدى الثلاثين لا يا فلان..." بصوت يشبه نحيب المآذن في أيام عاشوراء... ؛ وتذكر سيد سلمان الذي ما إن بلغ الأربعين حتى حلق شعره ولبس (العرقجينة) وانحنى ظهره كأنه يحمل على كتفيه كل موتى العراق.

تذكر رجالاً في العراق يموتون وهم أحياء... ؛ يموتون في الثلاثين ولو تنفست رئاتهم حتى السبعين... ؛ يموتون حين يتوقفون عن الرغبة... ؛ يموتون حين يصبح الأمس أكثر حضوراً من الغد... ؛ يموتون حين تتحول أحلامهم إلى ذكريات قبل أن تُعاش.

رجالاً يبلغون الثلاثين فيتحولون إلى كائنات منهكة، يطوون ظهورهم تحت ثقل الدين والخوف والفقر والسلطة والعادات.

أما هذا الشيخ الجورجي ، فكان يمارس الحب مع الحياة في كل لحظة... ؛ يلامس النهر بأصابعه كما يلامس عاشق جسد معشوقته... ؛ يشرب البيرة الجورجية الطازجة كأنها رشفة أولى من نهر النسيان... ؛ يستمع إلى الموسيقى الهادئة من راديو قديم، كأن الزمن لم يخنه، بل خانه هو... ؛ فكأنه يقف في مواجهة الفناء كجنديٍ أخير.

قال خالد لنفسه:

«ربما الشيخوخة ليست في العمر ولا في الجسد بل في الروح ... ؛ وفي مقدار ما خسرناه من دهشتنا.»

وفي الليلة الثالثة ، أو ربما الرابعة -(فالزمن في المنفى يذوب كالسكر في الشاي)-، دخل خالد ذلك الملهى الليلي... ، ليس بحثاً عن المتعة فقط ، بل هرباً من الفراغ. ؛ باب فولاذي أسود يشبه بوابة غواصة، وفي وسطه (جامة) زجاجة سمكة تحق في الداخل كما تحق عين القدر في مستقبل لم يتشكل بعد.

كان الجو في الداخل مختلفاً... ؛ الأضواء الحمراء والزرقاء والصفراء كانت تتراقص فوق الوجوه مثل أحلام العصافير... ؛ الموسيقى تهز الجدران، والنساء الحسنات يتحركن بخفة كأن أجسادهن لا تعرف ثقل الحروب.

كان مختلفاً لأن لا أحد هنا يحمل آية الكرسي في جيبه... ؛ لا أحد هنا يقرأ التعويذات قبل النوم... ؛ لا أحد هنا يهرب من الموت لأنه ببساطة لم يتعلم بعد أن الموت يطارده.

راقب خالد راقصة التعري وهي تصعد الأنبوب الحديدي... ؛ جسدها كان يرتفع كما يرتفع الدخان من فوهة الحرب... ؛ كانت تنزع ملابسها قطعة قطعة، وفي كل قطعة تسقط، كان يسقط معها جزء من خالد القديم... ؛ ليس شهوة ما كان يشعر به، بل تفكك، تفكك الذات التي بناها الخوف.. ، تفكك الرجل الذي تعلم أن الحياة خطر، وأن الجنس خطيئة، وأن الفرحة مؤامرة.

شعر خالد بالارتباك.

كان جسده يريد شيئاً، وروحه تريد شيئاً آخر.

كل شيء هناك كان يشبه محاولة جماعية لنسيان الموت.

جلس يراقب الوجوه.

بعضهم يضحك لأنه سعيد.

وبعضهم يضحك لأنه محطم.

ثم اقتربت منه فتاة جورجية ذات عيني بلون الشتاء.. ، شعرها الأشقر ينساب على كتفيها كحكاية جميلة تروى ببطء.

كانت تمشي بثقة من يعرف أثره على الآخرين.

ابتسمت له ابتسامة خفيفة، لكنها لم تكن ابتسامة إغواء بقدر ما كانت ابتسامة شخص يعرف الوحدة.

جلسا معاً طويلاً.

تحدثا بلغة إنكليزية (مكسرة) ، وإشارات، وصمت.

حين أمسك يدها، شعر بحرارتها الإنسانية أكثر من أي شيء آخر.

ولأول مرة أدرك أن الجسد ليس مجرد شهوة فحسب ؛ أحياناً يكون محاولة يائسة لإثبات أننا ما زلنا أحياء ... ؛ وإننا نعيش في ظلال رعاية دافئة واهتمام يفيض عناية واحتواءً.

تبعها إلى غرفة رقم ٣.. , الرقم الذي يرمز إلى الثالوث المقدس، وإلى الأبعاد الثلاثة، وإلى مراحل الحياة: الولادة والحب والموت.

عندما نزعت ملابسها ببطء، كان خالد قد نزع ملابسه بسرعة... ؛ ليس لأنه مستعجل، بل لأن جسده كان متلهفاً ليتخلص من جلده القديم.

كان واقفاً أمامها عارياً، ليس فقط من ملابسه، بل من تاريخه.. , من الحروب.. , من الموت.. , من آية الكرسي التي لا يزال صداها يرن في أذنيه.

"أنت جميل..." قالت بالإنجليزية المكسرة، وأشارت إلى قضيبه المنتصب... ؛ ابتسم خالد ابتسامة حقيقية لأول مرة منذ شهور طويلة .

ليست ابتسامة الانتصار، بل ابتسامة الاعتراف.. , اعتراف بأن الجسد له لغته، وأن اللغة لا تحتاج إلى ترجمة، وأن الترجمة تخون المعنى.

عندما وضعته في فمها، شعر أن العالم كله يتوقف.. , لا حرب.. , لا موت.. , لا آية كرسي.. , لا سيد علي الكفائي .. , لا نهر دجلة ولا نهر الفرات.. ؛ فقط هذا الفم الدافئ الذي يمتص منه ليس فقط رغبته، بل خوفه أيضاً.

قبلها من فمها بعد ذلك.. , كانت قبلتها تشبه مصالحة بين جسدين تعلم كل منهما أن الآخر هارب من شيء ما.. , طعم فمها كان طعم الحرية.. , ليس حرية الجنس، بل حرية أن تكون بلا ماضٍ.. , أن تكون لحظة فقط.. , أن تكون الآن وهنا.

وعندما مارس معها، لم يكن يمارس الجنس فقط.. كان يمارس العودة إلى الجنة التي طُرد منها آدم.. كان يمارس التمرد على كل المحرمات والممنوعات .. كان يمارس الحياة في وجه الموت.

كانت المرة الأولى في حياته التي لا يفكر فيها أثناء الجنس.. لا يفكر في الدين.. لا في الأخلاق.. لا في المجتمع.. لا في أمه التي تنتظره في بغداد.

كان حاضراً بكليته، كما لم يحضر في أي مكان آخر.. حتى في الحرب، حين كان الموت يحيط به، كان يفكر في النجاة.. أما هنا، في هذا الجسد الأنثوي الذي يستقبله كما تستقبل الأرض المطر، فلم يكن يفكر في شيء.

كانت تعرف ماذا تفعل.. ليست كالعاهرات في بغداد، ولا كالزوجات الخجولات اللواتي يمارسن الجنس كواجب.. كانت تمارسه كفن.. كشعر.. كموسيقى.. جسدها كان يعزف سيمفونية لم يسمعها خالد من قبل، وكل خلية فيه كانت تستمع.

في الذروة، بكى...

لم تفهم هي لماذا يبكي، فربتت على كتفه بحنان.. لكنه كان يبكي لأنه أدرك شيئاً مرعباً: أنه كان ميتاً طوالت هذه السنوات.. وأن آية الكرسي لم تكن تنقذه من الموت، بل كانت تؤجل موته فقط.. أما هنا، في هذه اللحظة، فقد عاد إلى الحياة.. ليس لأنه مارس الجنس، بل لأنه شعر.. شعر بدمه يجري.. شعر بقلبه ينبض.. شعر بجلده يرتعش تحت أصابعها.. شعر بأنه لا يزال إنساناً.

في تلك الليلة، لم تكن اللذة هي الحدث الحقيقي.

بل الهروب.

الهروب من صور الجثث.

من رأس جاسم المفتوح.

من رائحة الدم التي التصقت بذاكرته.

طوال الرحلة، لم يخرج مع أعضاء الكروب السياحي..، لم يزر المتاحف ولا الكنائس ولا الجبال..، كان كل ما يريده موجوداً في تلك الغرفة رقم ٣..، في جسد تلك المرأة التي صارت بالنسبة له وطناً بديلاً..، وطناً لا يحتاج إلى تأشيرة دخول.

كانت كماء البحر..؛ كلما شرب منه، ازداد عطشاً..، وكلما ازداد عطشاً، شرب أكثر..، حلقة مفرغة من اللذة لا تؤدي إلا إلى مزيد من اللذة..

كان يعود كل ليلة إلى الملهى...؛ ثم يرجع كل فجر إلى الفندق، وهو يشعر بفراغ هائل.

المشكلة أن الإنسان لا يستطيع الهرب من نفسه.

وكان يشعر أن روحه تنقسم إلى نصفين:

نصف يريد العودة إلى الإيمان والطمأنينة وآية الكرسي.

ونصف يريد أن يلتهم الحياة كلها قبل أن تلتهمه الحرب مجدداً.

في الليلة الأخيرة، خرج وحده إلى النهر.

كانت تبليسي نائمة تحت الضباب.

أخرج قنينة الويسكي، شرب قليلاً...؛ ثم أشعل سيجارة جروود...

نظر إلى النهر الطويل المتدفق تحت المدينة.

ثم همس:

— يا الله...

هل نحن في العراق نعيش حقاً؟

أم أننا فقط نهرب من موت إلى موت؟

ثم مضى على عجل نحو الملهى.

"ما اسمك؟" سألها في تلك الليلة.

"نينو" قالت وهي ترتدي ملابسها.

"نينو..." كرر الاسم كتعويذة جديدة.. , تعويذة لا تطرد الشياطين، بل تستدعيها.

في المطار، وهو عائد إلى بغداد، شعر خالد أن شيئاً ما قد تغير.. , ليس فيه فقط، بل في العالم كله.. , كان ينظر إلى المسافرين العراقيين العائدين معه، فرأى في عيونهم نفس الخوف الذي كان يسكن عينيه قبل أسبوع.. , نفس الانكسار.. , نفس الاستسلام.

تذكر الشيخ الجورجي صاحب المئة عام.. , تذكر جاره عيسى وأغنيته عن الثلاثين.. , تذكر سيد سلمان وعرقيته.

وفجأة، أدرك الحقيقة المرة: السعادة ليست في جورجيا.. , وليست في الجنس.. , وليست في الخمر.. , السعادة في أن تتصالح مع فكرة أنك حي.. , أنك ستموت.. ؛ و أن بين هاتين الحقيقتين مساحة صغيرة هي ما نسميه الحياة، عليك أن ترقص فيها، لا أن تزحف.

في الطائرة، وبينما كان يحلق فوق السحاب، أخرج المصحف الصغير الذي كان في جيبه.. ؛ فتحه على آية الكرسي.. ؛ قرأها مرة واحدة هذه المرة، لا سناً.. ؛ ليس لأنه لم يعد بحاجة إلى الحماية، بل لأنه أدرك أن الحماية الحقيقية هي في أن تتقبل الخطر.. , و أن تمشي في الحياة كما يمشي العشاق في الليل: بلا خريطة، بلا وجهة، بلا خوف.

عندما هبطت الطائرة في مطار بغداد، كان خالد قد نزل منها رجلاً آخر..
؛ ليس أفضل، ليس أسوأ.. فقط مختلف.. ؛ مختلف كما تختلف الحياة
عن الموت.. ؛ مختلف كما يختلف الماء عن السراب.. ؛ مختلف كما
تختلف آية الكرسي التي تُقرأ خوفاً، عن آية الكرسي التي تُقرأ حباً.

في البيت، استقبلته أمه بالدموع.. ؛ "اشتقت لك..." قالت.

"وأنا أيضاً..." قال، وهو يعرف أنه لا يقول الحقيقة كاملة.. ؛ فهو لم
يشفق لأحد.. ، لم يشفق لشيء.. ؛ لأنه لم يكن هناك أصلاً ليفتقد أحداً.. ،
كان غائباً عن نفسه قبل أن يغيب عن بغداد.

في تلك الليلة، نام خالد نوماً عميقاً بلا أحلام.. ، ولأول مرة منذ سنوات،
لم يستيقظ في منتصف الليل مفزوعاً من كابوس.. ، لم يحلم بالرصاصة
التي استقرت في رأس جاسم.. ، لم يحلم بالموت الذي كان يحيط به من
الجهات الست.

فكر بدلاً من ذلك بنهر كورا في تبليسي.. ، بشيخ جورجى يصطاد
السماك.. ، بامرأة اسمها نينو.. ، وبآية كرسي لم يعد بحاجة إليها دائماً .

في النهاية، لم يمض خالد في حرب مواجهة فلول الارهاب عام ٢٠١٤.. ،
لكنه مات بطريقة أخرى.. ، مات كي يولد من جديد.. ، مات الخوف فيه،
وعاش الجسد.. ، ماتت التعويذة، وعاشت الرغبة.. ، ماتت الطفولة
العراقية الحزينة، وعاش رجل لا يعرف بعد ماذا سيفعل بحياته، لكنه
يعرف شيئاً واحداً: أنه لن يموت قبل أن يعيش... ؛ وهذا، في بلد يتساقط
فيه الناس كأوراق الخريف، يعد انتصاراً صغيراً.. ؛ صغيراً كالفراشة
التي ترفرف في عاصفة.. ، لكنه انتصار، رغم كل شيء.

أنا عاهرٌ وليست هي عاهرة (٦١)

* الفكرة التي لا تُرى

لم تكن الفكرة فكرة في البداية.

كانت شيئاً أشبه بظلٍّ يمرّ في أطراف الوعي ثم يعود، ثم يعود أكثر كثافة في كل مرة، حتى صار من الصعب التمييز بين ما هو داخلي وما هو دخيل.

كنتُ أعيش حياة عادية ظاهرياً، لكن في الداخل كان هناك رجل آخر يتشكل بصمت.. , رجل لا يشبهني، أو ربما هو أنا حين أُجَرَّد من الرقابة.

أشواق كانت هناك.

لم تكن حدثاً بعد، بل احتمالاً.

والاحتمالات، حين تُترك بلا حارس، تتحول إلى مصائر.

* السطح

السطح ليس مكاناً مهماً في أي بيت.

لكن بعض الأماكن تتحول من جغرافيا إلى مصائر.

كانت تصعد كل يوم تقريباً، تنتشر الغسيل كأنها تنتشر حياتها على حبال الضوء.

وأنا كنت هناك.

لا أعرف متى بدأتُ أعتبر وجودي في السطح ضرورة، ولا متى صار النظر إليها جزءاً من يومي.

كنت أقول لنفسي: صدفة.

لكن الصدفة، حين تتكرر، تفقد براءتها.

لم أكن أراقبها فقط.

كنت أراقب نفسي وأنا أراقبها.

وهذه هي البداية الحقيقية لأي انحراف لا يرى.

* بناء الوجه الآخر

لم أقترب منها مباشرة في البداية.

كنت أختار كلماتي كما يختار الجراح أدواته.

الدين... الأخلاق... الحديث العابر... الاهتمام البارد الذي يبدو دافئاً من الخارج.

كنت أبني لنفسي وجهاً آخر.

وجه لا يشبه ما في الداخل.

وكانت هي، دون أن تدري، تمنحني فرصة اختبار هذا الوجه.

لم تكن ساذجة.

لكن الثقة دائماً تبدو كذلك في البداية.

* الانزلاق الأول

لم يحدث شيء كبير في البداية.

لا اعتراف، لا سقوط، لا لحظة درامية واضحة.

فقط تغييرات صغيرة جداً لا ينتبه لها أحد.

نظرة أطول قليلاً من اللازم.

صمت غير مفهوم في لحظة كان يجب أن يُقال فيها شيء.

اقترب لم يُسمِّ اقترباً بعد.

هكذا يبدأ كل شيء.

ليس بالقرار، بل بالتأكل.

كنت أظن أنني أتحكم.

لكنني كنت أسحب أيضاً، إلى منطقة لا أعرف قوانينها.

* الحب كآلية سيطرة

لم أكن أحبها.

أو ربما كنت أحب فكرة السيطرة أكثر من أي شعور آخر.

كنت أختبرها دون أن أقول ذلك.

أختبر حدودها، صبرها، هشاشتها.

وكانت هي، في المقابل، تختبر صدق العالم.

لكن العالم لا ينجو من الاختبار حين يكون المُختبر مكسوراً من الداخل.

بدأتُ أطلب منها ما لا يُقال بصوت مباشر.

وكانت ترفض.

ثم تتألم.

ثم تعود إليّ.

لم تكن علاقة.

كانت حلقة مغلقة من الألم المؤجل.

* لحظة السقوط غير المرئية

لا توجد لحظة سقوط واحدة.

السقوط الحقيقي يحدث حين لا يعود هناك فرق بين الخطأ والتكرار.

حين يصبح التنازل عادة.

وحين يصبح الصمت شكلاً من أشكال القبول.

لم تكن أشواق تسقط فجأة.

بل كانت تُدفع ببطء خارج نفسها.

أما أنا، فكنت أراقب هذا التحول وكأنه شيء يحدث لشخص آخر.

حتى لم يعد هناك "آخر".

* الفراغ

حين انتهى كل شيء، لم أشعر بانتصار.

ولا بخسارة.

فقط فراغ كثيف، يشبه غرفة بلا نوافذ.

لم أعد أريدها.

وهذه كانت الحقيقة الأكثر قسوة.

الرغبة، حين تموت، لا تترك حنيناً... بل تترك برودة.

تركتها.

ليس كفعل قوة.

بل كفعل عجز متأخر.

* المدينة تتكلم

لم أكن بحاجة لأن أكون حاضراً لأرى النهاية.

المدينة كانت تقوم بالمهمة جيداً.

الأسماء تتغير.

القصص تنتشوه.

والحقيقة تُعاد صياغتها حتى تصبح قابلة للهضم الاجتماعي.

أشواق لم تعد أشواق.

صارت حكاية.

ثم صارت تهمة.

ثم صارت جسداً بلا سياق.

كنت أسمعها تتساقط في أفواه الآخرين دون أن أستطيع إيقاف ذلك.

* الجسد الذي لا يعود

حين وصلني خبر النهاية، لم أبك.

لم أنهار.

لم يحدث شيء مما تتوقعه الروايات.

فقط شعرت أن شيئاً ما في الداخل انطفأ بشكل نهائي.

كأن شخصاً أطفأ ضوءاً لا يمكن إعادة تشغيله.

فهت متأخراً أنني لم أفقدها.

بل فقدت الشكل الذي كنت أراه للعالم من خلالها.

* الاعتراف

لم يكن صوتاً خارجياً.

لم يكن حلماً.

كان شيئاً يشبه الانكشاف الداخلي.

كأن طبقة من الوعي انزاحت فجأة.

وسمعت نفسي بوضوح لأول مرة.

أنا لم أكن المنفرج.

ولا الصامت.

ولا الضحية.

كنت الفعل نفسه.

ثم جاء الاعتراف، ببرود لا يشبه الندم:

أنا العاهر... وليست هي العاهرة.

*الخاتمة: ما بعد الاسم

بعد هذا الاعتراف، لم يتغير شيء في العالم.

المدينة استمرت.

الأسماء استمرت في السقوط من معناها.

لكن شيئاً واحداً فقط تغير داخلي:

لم أعد قادراً على رؤية نفسي دون أن أرى الآخر في داخلي أيضاً.

كان الخط الفاصل بين الجريمة والوعي... اختفى.

المدفع النمساوي والهلع الصدامي (٦٢)

في أواخر ربيع عام ٢٠٠٣، كانت بغداد تبدو كمدينة خرجت من جسدها لتقف على حافة نفسها.

لم تكن الحرب بعيدة، بل كانت تسكن الأزقة، وتتنفس من الشقوق، وتدخل البيوت مع الغبار.

في أحد أحياء العاصمة، كان "جاسم" يقف عند نافذة صغيرة في الطابق الثاني من بيت قديم.

نافذة لا تُطلّ على شارع بقدر ما تُطلّ على خوفٍ متراكم.. , كان يعمل مدرساً، لكنه في تلك الأيام لم يعد يدرّس شيئاً سوى الصمت.

في الخارج، كانت المدرعات تمرّ ببطء، كأنها لا تعرف أين تذهب، لكنها مُصرّة على أن تبدو واثقة.

رجال بزي عسكري يتنقلون بين نقاط تفتيش لا تعرف إن كانت تحمي المدينة أم تحاصرها.. , وعلى الجدران، كانت صور القائد الضرورة تبسم بثباتٍ غريب، كأنها لا ترى ما يحدث خلفها.

منذ أيام، بدأ صوت جديد يملأ السماء.

لم يكن انفجاراً عادياً، بل كان صوتاً منتظماً، عميقاً، يأتي من جهة مجهولة ثم يختفي ليعود من جهة أخرى.. , قالوا إنه “المدفع النمساوي”.

لم يفهم سالم لماذا مدفع في القرن الحادي والعشرين يحتاج إلى جنسية أوروبية في اسمه، لكن الأسماء في تلك المرحلة كانت جزءاً من الحرب أيضاً؛ تُصنع لتبدو أكثر فخامة من الحقيقة.

في البداية، حاول الناس التظاهر بأن الأمر طبيعي.. , ثم بدأوا يعدّون الانفجارات كما يُعدّ المطر في مدينة جافة.. , لكن شيئاً في الصوت كان مختلفاً: ليس الخطر وحده، بل العشوائية التي توحى بأن أحداً لا يقود شيئاً فعلاً.

في إحدى الليالي، كان جاسم جالساً مع عائلته في غرفة الإضاءة فيها خافتة، حين اهتزّ البيت كله.

سقط كوب شاي من يد زوجته.. , لم تصرخ، فقط نظرت إلى الأرض كأنها تعتذر للكوب.

قال ابنه الصغير:

— هل هذا قريب منا؟

لم يجب أحد.

ليس لأنهم لا يعرفون، بل لأن الإجابة لم تعد تغيّر شيئاً.

في الخارج، كان الوميض يظهر فجأة، يفتح السماء ثم يغلقها كعين غاضبة.. , وبعده مباشرة يأتي الصوت، متأخراً دائماً، كأنه يلاحق ما حدث ولا يفهمه.

في الصباح، مرّت شائعة في الحي: “المدفع النمساوي يضرب مواقع العدو”.

لكن جاسم كان قد رأى الليلة الماضية نافذة جارهم وقد اختفت.. , ولم يكن في الجهة المقابلة أي موقع عسكري، فقط بيوت تشبه بيوتهم.

في اليوم التالي، وقف جاسم عند دكان صغير لشراء خبز.. , كان الرجل خلف الطاولة يتحدث بصوت منخفض:

— يقولون إنها خطة ذكية... تشويش على الطائرات.

ضحك أحدهم ضحكة قصيرة، لم تكتمل:

— تشويش؟ أم تشويش علينا؟

لم يجب أحد.

في تلك الأيام، كانت الكلمات تخاف أن تكتمل.

مع مرور الوقت، أصبح "المدفع النمساوي" شخصية في حياة الناس، كأنه جار غير مرغوب فيه.. , لا يُرى، لكنه يفرض وجوده.. , يوقظ الأطفال، ويقطع النوم، ويختبر هشاشة الجدران... ؛ ولا يصيب الاعداء قط .

و ذات مساء، بينما كان جاسم عائداً إلى بيته، سمع مجموعة من الجنود يتحدثون قرب حاجز ترابي.

قال أحدهم بفخر متعب:

— يقال إنه أحدث ما لدينا... لا يقهر.

رد آخر وهو ينظر إلى السماء:

— لا يقهر؟ أم لا يميز؟

ثم ضحكوا.. , ضحكة قصيرة أيضاً، كأن الضحك نفسه يخشى أن يطول.

في تلك الليلة، كان الانفجار أقرب من المعتاد.

لم يكن أقوى، لكنه كان واضحاً بما يكفي لجعل النوافذ تعترف بضعفها.

سقط جزء من جدار قريب في الحي، ولم يأت أحد لرفعه.. , في الصباح، مرّ الناس بجانبه كما يمرّ المرء بجملّة محذوفة من كتاب قديم.

بدأ جاسم يلاحظ شيئاً غريباً: لم يعد الناس يسألون “لماذا؟”، بل “إلى متى؟”.

الفرق بين السؤالين كان الفرق بين حياة ما تزال تؤمن بالمعنى، وأخرى قررت أن تتعايش مع العبث.

وفي يوم ما، انتشر خبر كبير: انسحاب، انهيار، دخول القوات الأمريكية إلى أطراف المدينة.

لم يكن الخبر مفاجئاً بقدر ما كان متأخراً.. , كأن الجميع كانوا يعرفونه مسبقاً، لكنهم كانوا ينتظرون فقط الشكل الرسمي للسقوط.

في تلك اللحظة، توقف صوت المدفع.

صمتٌ مفاجئ، غير مريح، كأن المدينة فقدت شيئاً كانت تكرهه لكنها اعتادت عليه.

وقف جاسم عند النافذة ذاتها.

لا دخان، لا وميض، لا تأخير في الصوت.

فقط فراغ.

قال ابنه الصغير:

— هل انتهى كل شيء؟

لم يجب جاسم فوراً.

نظر إلى السماء التي كانت قبل أيام تمتلئ بالحديد، ثم قال بهدوء:

— لا ... بدأ شيء آخر.

وفي مكان ما من المدينة، كانت الأخبار تتحدث عن “نهاية مرحلة”.

لكن في الشوارع، لم يكن أحد يملك رفاهية تصديق كلمة “نهاية”.

كانوا يعرفون أن ما انتهى هو شكل واحد من الخوف، ليبدأ شكل آخر... أكثر صمتاً، وأقل ضجيجاً، لكنه قد لا يقل قسوة.

الغرفة العاجية المعزولة (٦٣)

كان يستيقظ متأخراً، لا لأن النوم يثقله، بل لأن الصباح لم يعد يعنيه.

الضوء يتسلل من شقوق النافذة كاعتذار لا يكتمل، فيشيع عنه كما لو أنه لا يريد الاعتراف ببداية اليوم.

على الطاولة مائدة واحدة تتكرر كقدر يومي: كسرة خبز، قليل من الأرز، مرق فاصولياء يابس، وكوب ماء.

كان يأكل كمن يختبر بقاءه لا كمن يشبع، ويشرب من الفراغ أكثر مما يشرب من الماء.

ثم يبدأ طقسه الوحيد: ذهاب وإياب داخل الغرفة.

خطواته دائرية مغلقة لا تؤدي إلى شيء، كعقرب ساعة فقد إيمانه بالدقائق.

الغرفة لا تتسع له ولا تضيق به؛ بل تتكيف مع ارتبائه الداخلي، كأنها تنصت بدل أن تحتضن.

يقرأ ويكتب.

لكن الكلمات لم تعد تخرج منه، بل تمرّ عبره ككائنات لا تعترف بصاحبه.

يراكم الجمل كما تُكدّس حجارة حول نار لا تنوي الاشتعال.

الشاي والقهوة يكثران حوله كحراس بلا وظيفة.

كان يظنّ أن الكافيين يمنحه نقطة إضافية، لكنه لم يكن يضيف إلا طبقة أخرى من السهر على فراغه.

فكرة واحدة كانت تدور: فكرة لم تولد بعد.

وجملة واحدة لم تكتمل.

وحلم يخشى أن يفتح نافذة، لأنه لا يعرف إن كان الداخل سيخرج أم الخارج سيدخل.

من نافذته يرى العالم كأنه أسفل حفرة.

ناسٌ يركضون، يضحكون، يتخاصمون، يحبون.

يرى كل ذلك كما تُرى حياة الآخرين من خلف زجاج لا يخصّه.

ابتسامة باهتة تمرّ على وجهه، لا مشاركة فيها، بل اعتراف صامت
بالعجز عن النزول.

كان البرج العاجي ليس بناءً من حجر، بل من خوفٍ تكدّس حتى صار
شكلًا ثابتًا للوجود.

خوف من السقوط، وخوف من الخيبة، وخوف أكبر من أن يكون النزول
بلا معنى.

حتى التعب لم يعد حدثًا، بل نظامًا يوميًا.

ينهار عند الظهيرة كما تنهار فكرة فقدت مبرر استمرارها.

لا فرق بين نومه ويقظته؛ كلاهما شكلان مختلفان من الانطفاء.

في أحلامه، ممر طويل من أبواب مغلقة.

كل باب يحمل اسم يومٍ مضى.

يفتحه فلا يجد سوى الغرفة نفسها، والمائدة نفسها، والأكواب نفسها،
والغبار نفسه الذي لا يتعب من التكرار.

الزمن لا يتحرك هنا؛ إنه يعيد نفسه فقط.

كانه لم يُخلق ليمرّ، بل ليُنسخ.

وحين تتراكم الأيام حتى تتشابه تمامًا، لا يوقظه شيء إلا صمت المرايا.

كأنها تسأله دون صوت:

“إلى متى تبقى في الأعلى؟”

في إحدى الليالي، أو ربما نهارٍ لا فرق، وبين رشفة قهوة ونقطة حبر،
توقف.

حدّق في الصفحة البيضاء طويلاً.

ثم قال لنفسه، كمن يسمع صوته للمرة الأولى:

“أما أن لهذا البرج أن يتصدّع؟”

لم يكن السؤال احتجاجاً، بل ارتباكاً متأخراً في فهم الشكل الذي صار عليه.

ثم أدرك، دون يقين كامل، أن الحياة لا تُمنح من الخارج.

بل تُرتكب.

وأن البرج، مهما بدا حماية، قد يتحول إلى طريقة دقيقة لتأجيل الحياة إلى الأبد.

العينان اللتان أوقفتا الزمن (٦٤)

كان المساء يهبط على المدينة ببطءٍ شاحب، كأن السماء تتردد في إغلاق نهارها الأخير.

عند موقف الباصات، وقف حمدي وحده وسط ازدحامٍ بشريٍّ مألوف: موظفون منهكون، طلاب يجرون خطواتهم الثقيلة، وباعة يلاحقون ما تبقى من اليوم في أصواتٍ متكسرة.

كان يبدو كمن لا ينتظر الباص، بل ينتظر شيئاً آخر لا يعرف اسمه.. ؛ شيئاً غامضاً يظلّ واقفاً في داخله، يرفض أن يُسمّى.

توقّف الباص أخيراً، وفتح أبوابه كتنفّسٍ متعب.. ، صعد الركاب واحداً تلو الآخر، حتى دخل حمدي.

هناك، حدث ما يشبه الانزلاق الصامت خارج الزمن.

رفعت فتاة رأسها من مقعدها قرب النافذة.

لم تكن النظرة عادية.

كانت لحظة ارتباك كونية صغيرة.

شعر حمدي أن العالم فقد توازنه فجأة، كأن الباص لم يعد يتحرك، بل صار يدور حول تلك العينين.. , لم يسمع صوت المحرك، ولا ضجيج المقاعد، ولا أحدًا حوله.. فقط ذلك الضوء الغريب الذي خرج من عينيها، لا كجمالٍ فقط، بل كاحتمالٍ آخر للحياة.

كانت عيناها ساكنتين، لكن فيهما شيء يشبه اللعان الداخلي، كأنهما نافذتان على مكان لا يرى.

خفض بصره سريعًا، ثم عاد يرفعه دون إرادة.. , كان كمن يُسحب بخيط خفي لا يُقطع.

قالت الفتاة بهدوء، من دون أن تنظر إليه مباشرة، وهي تلتفت نحو السائق:

— لو سمحت... هنا.

توقّف الباص.

نزلت.

ولم يفكر حمدي في شيء سوى أن ينزل خلفها.

لم يسأل نفسه لماذا.

الأسئلة كانت متأخرة.

خرج إلى الشارع خلفها، كظلٍ لا يعرف صاحبه.

كانت تمشي بخطوات واثقة، خفيفة، وكأن الطريق يعرفها.. , أما هو فكان يتعلم المشي خلفها من جديد، كطفل يتبع فكرة لا يجرو على لمسها.

مرّ عطرها في الهواء، فارتبك صدره.. , لم يكن عطرًا قويًا، لكنه كان واضحًا، كذكرى لم تحدث بعد.

دخلت زقاقًا ضيقًا، توقفت أمام باب صغير، ثم طرقت.

فُتح الباب.

اختفت داخله.

وقف حمدي لحظة أمام العتبة، كأنه على حدود عالمين، ثم انسحب ببطء.

لكن شيئًا فيه لم ينسحب.

كان قد حفظ المكان دون أن يدري: الجدران، الزاوية، لون الباب، صوت الإغلاق.

ومنذ ذلك اليوم، صار يعود.

لا بوصفه زائرًا، بل بوصفه احتمالًا مؤجلًا.

كان يقف أحيانًا عند الزقاق، وأحيانًا عند موقف الباص، كمن ينتظر أن يُعاد ترتيب اللحظة الأولى بطريقة مختلفة.

لكنها لم تكن تظهر.

مرّ الوقت كالماء فوق حجر ثابت: أيام، ثم أسابيع، ثم شهور.

حتى جاء ذلك اليوم.

كان واقفًا في الموقف نفسه، حين توقف الباص مرة أخرى.

صعد.

ورأها.

لكن شيئاً في المشهد لم يكن كما تخيل.

كانت تجلس بجانب شاب أنيق، يمسك يدها بثقة غير مترددة.. , كان يتحدث إليها بلا حذر، وهي تضحك بخفة، كأن بينهما مساحة مألوفة لا تحتاج تفسيراً.

اقترب حمدي خطوة دون أن يشعر.

كانت ضحكتها مختلفة عن تلك التي رسمها في داخله.

أخفّ، أبسط، وأقرب إلى الحياة منها إلى الحلم.

جلس صامتاً.

لم تره.

أو ربما رأت ما لم تعتبره مهماً.

سمع الشاب يقول لها، بنبرة عادية:

— نروح اليوم متأخر، ما عندنا شيء مستعجل.

ضحكت، وقالت:

— كل أيامك تقول مو مستعجل... وبالنهاية أنت دائماً مستعجل.

ضحك معها.

لم يكن في الحوار ما يشبه الأسطورة التي بناها حمدي في داخله.

نزل الثلاثة في محطة لاحقة.

تبعهم دون قرار.

دخلوا بناية قديمة، يعرفها الناس في الحي دون أن يصرّحوا بمعرفتها.

وقف حمدي خارجها.

مرّت دقائق طويلة.

ثم خرجت.

كان وجهها متغيراً قليلاً، أكثر تعباً، أقلّ حضوراً، كأن الضوء الذي رآه فيها أول مرة قد انطفأ أو انكشف.

تحدثت مع الشاب للحظة قصيرة، ثم افترقا.

صعدت إلى الباص وحدها.

أما هو فبقي واقفاً.

هذه المرة، لم يتبعها.

لم يعد الخيط الخفي يسحبه.

شعر بشيء يشبه الاستيقاظ المتأخر، كمن يفتح عينيه على صورة لم تكن خاطئة... لكنها لم تكن كاملة أيضاً.

اقترب منه فهمٌ بطيء، غير مؤلم، لكنه قاطع:

لم يكن يرى فتاة فقط.

كان يرى فراغه هو، وقد ارتدى هيئة شخص آخر.

ابتسم ابتسامة خفيفة، لا تشبه الانتصار ولا الخسارة.

ثم قال بصوت لا يسمعه إلا هو:

— كنت أبحث عن الضوء... لا عن صاحبه.

تحرك الباص مبتعداً، وتركه في مكانه، كأن شيئاً انتهى من دون ضجيج.

وفي داخله، ظل سؤال واحد يتردد، لا كجرح، بل كنافذة مفتوحة:

هل كانت تلك العينان شمسين حقاً... أم أنني كنت أحتاج الشمس لأرى نفسي فقط؟

العابر بين ظلاله (٦٥)

ضاق صدره كأن الجدران الأربعة التي احتوى بها يوماً لم تعد مأوى، بل تحولت إلى رئة ضيقة تنفّس عنه ببطء مؤلم.

لم تكن غرفته عازلةً عن ضجيج المدينة فحسب، بل صارت امتداداً لذلك الضجيج، نسخة صامتة منه تُعيد إليه صدى الأشياء بدل أن تحببه.

كان يظنّها قوقعةً تحفظه، ثم اكتشف أنها تلتف حوله مثل غبار يتكثف حتى يصير جسداً آخر يشاركه الاختناق.

في تلك الليلة، أغلق الباب خلفه بخطوةٍ بدت كأنها خروج من طبقة إلى أخرى من نفسه.

لم يُغلق باب الغرفة فقط، بل فتح شقاً داخله لا يعرفه.. , خرج إلى المدينة كمن يسير على خيطٍ مشدود بين غيابين، لا بداية له ولا نهاية.

كانت المدينة ليّلاً جسداً نصف نائم؛ أضواؤها تومض كنبرسٍ متقطع، وشوارعها تمتد كأنها جملٌ لم تُستكمل.

السيارات تمرّ مثل ذكرياتٍ لا تلتفت، والوجوه تلمع وتختفي كأنها لا تريد أن تُرى. شعر أنه يمشي في مدينة يعرفها جيداً، لكنها فقدت حقها في أن تعرفه.

الغربة، اكتشف أنها لا تحتاج إلى مكان جديد؛ يكفي أن يبتعد الإنسان خطوة واحدة عن نفسه.

في زاويةٍ لا ينتبه لها أحد، حدث ما لا يُخطّط له: التقى الغريب.

لم يكن الغريب غريباً تماماً.. , كان أقرب إلى صورةٍ يعرفها دون أن يراها، كأنه خرج من ذاكرة لم تُكتب بعد، أو من احتمالٍ قديم أو ظلّ مؤجلاً.. ؛ ملامحه غير ثابتة؛ تتبدّل مع الضوء مثل سطح ماءٍ لا يقرر شكله.. , لم يكن شخصاً بقدر ما كان فكرة تمشي على الأرض.

تبادلا النظرات أولاً، وكأنهما يستعيدان لغةً فقدت كلماتها.. , ثم جاء الكلام خفيفاً، متدفقاً، بلا ارتباك، كحوارٍ سابق لم يُكمل في زمنٍ آخر.. , لم يسألاً عن البداية، لأن البداية كانت حاضرة بينهما دون حاجة إلى تعريف.

حولهما كانت المدينة تمضي كضبابٍ بارد، لكن بينهما تشكّل مناخٌ مختلف؛ مساحة تنكّش فيها المسافات، ويصبح الصمت نوعاً من الفهم.

لم يكن ما يحدث حباً بالمعنى المألوف، بل اقتراباً من نوع آخر: شعور بأن الروح، أخيراً، وجدت ما يشبه صداها.

اقتربا دون حساب، كأن الاقتراب اعترافٌ متأخر بأن الوحدة لم تكن قدراً كاملاً. لحظة العناق لم تكن جسداً بقدر ما كانت محاولة لفهم العالم من خلال آخر.

كان كل واحدٍ منهما يرى في الآخر نسخةً لم تكتمل من ذاته، أو نافذةً مفتوحة على احتمال النجاة.

لكن شيئاً ما مرّ.

نظرة عابر مسنّ، محمّلة بثقل أجيال كاملة، شقّت اللحظة كحجر يسقط في ماء ساكن.. , لم تكن نظرة عتاب فقط، بل منظومة كاملة من الخوف القديم، من العادات التي تراقب حتى في صمتها.

ترجع الزمن بينهما لحظة، لا خوفاً، بل دهشة: كيف يمكن لعالم كامل أن يتدخل في لحظة كانت على وشك أن تصبح حياة؟

ثم عادت النار، لا كعاطفة، بل كحاجة أعمق: الحاجة إلى أن لا يكون الإنسان وحيداً في داخله.. ؛ اقتربا من جديد، كأن شيئاً فيهما يرفض أن يُهزم بهذه السهولة، وكأن الاعتراف بالآخر صار ضرورة وجودية لا خياراً عاطفياً.

حين هدا كل شيء، جلسا على مصطبتين متجاورتين قرب الحديقة.. , كان الصمت بينهما أثقل من الكلام، لكنه لم يكن صمتاً فارغاً؛ كان مزدحمًا بكل ما لم يُقل. جسداهما مرهقان، لكن الإرهاق بدا كأنه أنثر عبور لا تعب.. , كأن شيئاً فيهما قد تحرّك من مكانه القديم دون أن يستقر بعد.

وفي لحظة غير محسوبة، توقفت سيارة سوداء عند الحافة المقابلة للضوء.

ترجّل رجل مسنّ، ونادى باسمه.. , لم يكن النداء مجرد صوت، بل كان امتداداً لقوة خارج اللحظة، قوة تعرف كيف تقطع الخيوط دون أن تمسّها.. ؛ التقت الغريب فوراً، كأن خيطاً غير مرئي سحبه من مكانه.

نهض بلا تردد.

لم يقل شيئاً.. , لم يعتذر.. , لم يشرح.. , فقط تحرك نحو السيارة كأن الطريق معروف منذ زمن، وكأن اللحظة التي عاشها للتو لم تكن سوى استراحة قصيرة في مسار أكبر منه.

بقي وحده.

يراقب السيارة وهي تبتعد، لا كحدثٍ ينتهي، بل كاحتمالٍ يُسحب من الوجود قبل أن يكتمل.

لم يكن الحزن واضحاً، كان أعمق من ذلك: إحساس بأن الحياة لا تمنح لحظاتها فرصة الاكتمال، وأن البشر يمرّون ببعضهم كأنهم يمرّون عبر حيوات مؤقتة لا تُحفظ.

اختفت السيارة في الليل.

واختفى معها شيءٌ لم يُسمّ.

عاد الصمت القديم، لكن هذه المرة لم يكن صمت غرفة، ولا مدينة، بل صمت داخل ذاكرةٍ اكتشفت للتو أنها كانت ناقصة.

ومشى وحده من جديد، يحمل في داخله ظلاً ... ؛ مرّ أمام نافذته للحظة ... ثم اختفى.

الضفاف لا تغوي... لكن السفن لا تقاوم (٦٦)

في المحمرة، حين كان الفجر ينهض ببطء من ماء الكارون، بدا النهر كأنه يتوضأ من ليلٍ طويل.. , النخيل على الضفة كان ساكناً، كأنه ينصت لخطوة الضوء الأولى، والمدينة ما تزال بين النوم واليقظة، بين ما يُقال وما يُخفى.

خرج الأستاذ كريم من المسجد بعد صلاة الفجر.. , رجل في منتصف العمر، يحمل من الطيبة ما يكفي لجعله دائم الخسارة، ومن التأمل ما

يكفي لجعله دائم السؤال.. , كان يمشي وحده كعادته، لا لأن العزلة خيار، بل لأنها أصبحت طبعه الثاني.

كان يظن أن العالم كتاب يمكن قراءته بالنوايا الحسنة.

على ضفة الكارون، وقف.. ؛ نظر إلى الماء.. , لم يكن يبحث عن منظر، بل عن معنى.. , عن ظل فكرة ربما سقطت من ذاكرته ولم يعد يعرف طريقها.

قال في نفسه بصوت خافت:

“حتى النهر يتغير... فلماذا تظل الأرواح معلقة في أماكنها؟”

لكن النهر لم يجب.

كان الفجر في تلك اللحظة يشبه وعدًا غير مكتمل.

لم تمض دقائق حتى اقتربت سفينة صغيرة من الضفة، كأنها لا تنتمي إلى المكان ولا الزمن.. , توقفت بلا ضجيج، ثم نزل منها شاب.

كان اسمه رجائي.

لم يكن يشبه أهل المحمرة ولا أهل المدن القريبة.. , ملامحه خليط من أسفار بعيدة: في صوته شيء من بحر الخليج، وفي ابتسامته شيء من مرافئ التجارة، وفي عينيه برود المسافرين الذين لا يطيلون النظر إلى أي شيء.

كان أنيقًا دون تكلف، واثقًا دون شرح، كأن العالم بالنسبة له ليس مكانًا بل طريق عبور.

تبادلا التحية.

كانت المصافحة قصيرة، لكنها بدت لكريم كأنها مرت على طبقتين من الزمن: طبقة تؤمن بالمعنى، وأخرى تؤمن بالمصلحة.

قال رجائي بابتسامة خفيفة:

— هل هنا مطعم جيد؟

تردد كريم لحظة، ثم قال كمن يفتح بيته لغريب:

— تعال.

في المطعم، كان الطابق الرابع يطل على النهر.., الطاولات قليلة، والهواء مشبع برائحة ماء وسمك مشوي وذاكرة مدينة قديمة.

جلسا.

طلب كريم الشاي المهيل.., جلس كما يجلس من اعتاد التأمل قبل الكلام.., أما رجائي فطلب القهوة بلا تردد، كأن الطلب نفسه جزء من شخصيته.

قال رجائي وهو يرفع فنجانه:

— القهوة لا تُشرب... القهوة تُواجه.

ابتسم كريم:

— والشاي؟

— يُشبه الصبر... لكنه يطيل الانتظار.

لم يعقب كريم.., كان يحب أن يترك للناس مساحتهم في الكلام، حتى لو لم يفتح.

دخل الطعام: لحم مشوي، خبز، وأشياء بسيطة تشبه بيوت الجنوب العراقي .

لكن الاختلاف الحقيقي لم يكن في الطعام.

كان في طريقة الأكل.

كريم يأكل كمن يعتذر للطعام.. , ببطء، باحترام، كأن لكل لقمة معنى أخلاقياً.

أما رجائي، فكان يأكل كمن يُنهي صفقة.. , لا عداوة في الحركة، لكن لا عاطفة أيضاً.

قال كريم:

– تبدو كأنك لا تبقى في مكان طويلاً.

ضحك رجائي:

– المكان مثل المرأة...؛ إن طال جلوسك فيه، خسر بريقه.

توقف كريم عن الأكل لحظة:

– وهل الناس عندك كذلك؟

– الناس... محطات.

صمت كريم.

كان الصمت عنده طريقة اعتراض لا تحتاج إلى جدال.

في زاوية المطعم، مرت نادلة شابة.. , كانت متعبة، تحمل على وجهها ملامح مدينة لا ترحم.. , لم تكن تنتظر لأحد، فقط تؤدي عملها كما لو أنه عقوبة يومية.

لكن حين رأت رجائي، تغيّر شيء في عينيها.

لم يكن جماله وحده، بل ذلك النوع من الحضور الذي يربك من يفتقدون شيئاً في داخلهم.

ابتسم لها، ابتسامة قصيرة محسوبة، ثم قال جملة بسيطة.

لم تسمعها الطاولات الأخرى، لكن أثرها كان كافياً ليغير مزاجها.

في دقائق، صار وجهها أقل تعباً، أكثر خفة، كأنها صدقت وعداً لم يُقل صراحة.

راقب كريم المشهد بصمت.

ثم قال بهدوء:

— أهذه هي طريقتك دائماً؟

رد رجائي:

— الناس لا تقع بسبب الكلمات... بل بسبب الفراغ الذي بداخلها.

بعد الطعام، خرجا إلى سوق السمك.

كان السوق صاخباً، الحياة فيه مكشوفة بلا تجميل: رائحة قوية، أصوات عالية، أيدي تعمل بلا توقف.. كل شيء مباشر، بلا فلسفة.

قال رجائي وهو ينظر إلى الحركة:

— هنا الحياة صادقة... لا تدّعي شيئاً.

رد كريم:

— لكنها قاسية.

— القسوة هي الصدق حين يُنزع عنه التجميل.

لم يجب كريم.

كان يشعر أن بينه وبين هذا الرجل مسافة لا تُقاس بالأفكار، بل بطريقة النظر إلى الإنسان نفسه.

في الطريق إلى الفندق في عبادان، بدا الفندق العتيق كأنه شاهد على زمن آخر.. , جدرانه تحمل آثار الإنكليز، وأثاثه يحمل بقايا رحلات لم تكتمل.
في المساء، جلسا في الصالة.

قال كريم فجأة:

– لماذا تعيش كأنك عابر دائم؟

نظر رجائي إليه طويلاً، ثم قال:

– لأن الثبات كذبة.. , نحن لا نبقى.. , نحن نمر فقط.

– وماذا عن العلاقات؟

ابتسم:

– علاقات؟ نحن نلتقي لئَجرب أنفسنا في الآخرين... ثم نغادر.

في تلك الليلة، عاد رجائي متأخراً.

دخل الغرفة دون كلام.. , كان في ملامحه تعب مختلف، ليس تعب السفر، بل تعب الامتلاء.

لم يسأله كريم شيئاً.

لكن الصمت بينهما كان هذه المرة مختلفاً.. , لم يعد حواراً، بل فجوة.

جلس كريم قرب النافذة.

رأى النهر من بعيد.. لم يعد يبدو نهرًا، بل خطأ يفصل بين طريقتين في العيش: واحدة تبحث عن معنى، وأخرى تبحث عن تجربة.

في الصباح، قال رجائي وهو يرتب حقيبته:

— أنا أغادر.

— إلى أين؟

— البحر... ثم جزيرة أخرى... ثم مدينة أخرى.

توقف لحظة:

— الحياة لا تنتظر من يفكر كثيرًا.

نظر إليه كريم:

— وهل لا تنتظر من يشعر؟

ابتسم رجائي دون إجابة.

ثم قال:

— أنت ستتعب هنا...؛ لأنك تحاول أن تفهم أكثر مما يجب.

غادر رجائي مع السفينة.

لم يَلُوح كثيرًا.. , كان الوداع عنده فعلًا عابرًا، لا طقسًا.

وبقي كريم وحده.

في المساء، عاد إلى ضفة الكارون.

كان الماء كما هو، لكن شيئًا فيه تغير.

لم يعد يرى النهر فقط، بل صار يرى داخله انعكاسًا مختلفًا لوجهه.

وجه رجل بدأ يشك في يقينه الأول: أن الطيبة تكفي، وأن النوايا تخلق عالماً قابلاً للنجاة.

جلس طويلاً.

ثم قال بصوت منخفض لا يسمعه أحد:

– ربما لا تكون المشكلة في الناس... ؛ بل في الطريقة التي أراهم بها.

وأغلق عينيه.

ولأول مرة، لم يكن النهر هادئاً تماماً في داخله.

الساكن في الغرفة السابعة و الأخيرة (٦٧)

في الطابق الرابع من فندقٍ قديمٍ يقع عند أطراف المدينة، كانت هناك سبع غرف فقط.

سُت منها تُوجَر أحياناً للمسافرين العابرين، أما الغرفة السابعة والأخيرة، فبقيت مغلقة أغلب السنوات، حتى إن عمّال الفندق كانوا يتجنبون الاقتراب منها ليلاً، لا خوفاً من الأشباح، بل من ذلك الصمت الثقيل الذي يخرج من تحت بابها كأنه تنفّس شخصٍ نائم.

في مساءٍ شتوي رمادي، وصل رجل نحيل يدعى مجيد.

كان في الرابعة والأربعين، يرتدي معطفاً أسود أكل المطر أطرافه، ويحمل حقيبة صغيرة وصندوقاً خشبياً قديماً يضمّه إلى صدره كأن داخله قلبٌ حيّ.

حين سألـه صاحب الفندق:

— “أي غرفة تريد؟”

أجاب دون تردد:

— “السابعة.”

رفع الرجل العجوز رأسه ببطء، وحدّق فيه طويلاً، ثم قال:

— “الناس يخرجون منها أسرع مما دخلوا إليها.”

ابتسم مجيد ابتسامة متعبة:

— “وأنا تعبت من الخروج.”

كانت رائحة الغرفة تشبه كتباً قديمة تُركت في قبو مبثّل.

سريرٌ حديدي، مرآة طويلة متشققة، ومصباح أصفر يضئ كأنه يحتضر.

وضع مجيد الصندوق قرب السرير، ثم جلس يشعل سيجارته الثالثة خلال دقائق.

كانت يده ترتجف كلما اقتربت النار من وجهه.

لم ينم تلك الليلة إلا قبيل الفجر.

لكنه استيقظ فجأة على صوت خطوات داخل الغرفة.

خطوات طفل.

فتح عينيه مذعوراً، فلم يجد أحداً.

غير أن المرأة كانت مغطاة ببخارٍ كثيف، وقد كُتبت عليها جملة بأصابع غير مرئية:

“ما دفنته حياً... ما زال يتنفس.”

شحب وجهه فوراً.

وأطفأ السجارة في راحة يده دون أن يشعر بالألم.

في الليلة التالية، فتح الصندوق لأول مرة منذ سنوات.

كان داخله:

صورة قديمة،

فردة حذاء طفل صغيرة،

ورسالة مطوية ملطخة بالمطر.

تناول الصورة ببطء.

طفل في الثامنة يجلس وحده في حديقة معتمة، يبكي، بينما تبدو أرجوحة

صدئة خلفه كأنها مشنقة صغيرة.

حدّق مجيد بالصورة طويلاً، ثم همس:

— “كنتُ أظنك متّ.”

فارتجفت الصورة بين أصابعه.

وفجأة...

تحرك الطفل داخلها.

رفع رأسه ببطء شديد، وكانت عيناه فارغتين تماماً، كأن أحداً محاً

ملاحه عمداً.

سقطت الصورة من يد مجيد، لكنه سمع صوت الطفل يخرج منها
واضحًا:

— “أنت من تركني هناك.”

تراجع مجيد حتى اصطدم بالحائط.

ومنذ تلك الليلة، بدأت الخطوات تعود كل مساء.

خطوة...

خطوتان...

ثم يظهر الطفل عند باب الحمام، أو قرب المرأة، أو جالسًا تحت النافذة.

طفل بوجهه نفسه... لكن بلا ملامح.

في اليوم الرابع، انقطعت الكهرباء عن الفندق كله.

جلس مجيد قرب المصباح اليدوي وهو يدخل بعصية، حين سمع الطفل
يسأله من الظلام:

— “لماذا هربت؟”

أغلق مجيد أذنيه.

لكن الصوت اقترب أكثر:

— “لماذا تركتني تلك الليلة؟”

صرخ مجيد:

— “لأنني كنت خائفًا!”

ساد الصمت.

ثم قال الطفل بهدوء موجه:

— “وأنا بقيت هناك... خائفاً بدلاً عنك.”

عندها فقط، انهار مجيد باكياً.

لأول مرة منذ عشرين عاماً.

في الليلة السادسة، سمع طرقاً خفيفاً على الباب.

فتح ببطء.

فدخلت امرأة غريبة ترتدي ثوباً رمادياً طويلاً، وكانت رائحتها تشبه المطر بعد سنوات من الجفاف.

جلست على الكرسي الوحيد، وقالت دون مقدمة:

— “ما زلت تحمله معك.”

عرفها فوراً... رغم أنه لم يرها من قبل.

همس:

— “من أنت؟”

ابتسمت بحزن:

— “أنا النسيان.”

أغمض عينيه كأن الاسم طعنه.

قالت:

— “كثيرون يركضون خلفي، يتوسلونني كي أطفئ ذاكرتهم... أما أنت، فكنت تطردني كلما اقتربت.”

نظر نحو الطفل الجالس في الزاوية.

كان يراقبه بصمت.

ثم قالت المرأة:

— “إن أردت الراحة... اقتله.”

ارتجفت شفتا مجيد:

— “وكيف أقتل شيئاً يسكنني؟”

أجابته:

— “الناس يفعلون ذلك كل يوم... يسمونه نضجاً.”

ساد صمت طويل.

ثم اقترب الطفل من السرير، وجلس قرب مجيد، وأسند رأسه إلى كتفه
كأنه متعب منذ عمرٍ كامل.

فبكى مجيد بصوتٍ مكتوم، وقال:

— “سامحني.”

ولأول مرة...

ظهرت للطفل ملامح.

في الليلة السابعة والأخيرة، لم يسمع أحد أي صوت من الغرفة.

وحين صعد صاحب الفندق صباحاً، وجد الباب مفتوحاً.

كانت الغرفة فارغة.

لا حقيبة.

لا صندوق.

لا أثر لمجيد.

فقط المرأة.

وقد كُتب عليها بخطٍ مرتجف:

“لا يشفى الإنسان حين ينسى...”

بل حين يتوقف عن الهرب.”

اقترب العجوز من المرأة ببطء.

حينها لمح شيئاً في انعكاسها.

طفل صغير يجلس في زاوية الغرفة.

لكن هذه المرة...

كان له وجه كامل.

الرجل الذي كان يهرب على عجلتين (٦٨)

كان طالب يعتقد دائماً أن الإنسان لا يهرب بقدميه، بل بشيءٍ أسرع من ذاكرته.

لهذا أحبَّ الدراجات النارية قبل أن يلمس واحدة.

وُلد في مدينة الثورة، شرقيّ بغداد، في حيٍّ تتشابه فيه البيوت حتى تبدو كأنها خرجت من قالبٍ واحد، فيما تختلف المآسي داخلها كاختلاف الندوب على الوجوه.

هناك، كانت الأزقة تضيق كلما اتسعت الحياة، وكانت الكهرباء تتطفئ أكثر مما تضيء، فيما يكبر الأطفال على أصوات المولدات وصفارات الإنذار لا على أغاني الطفولة.

لم يتذكر طالب وجه أبيه جيداً.

الذاكرة، حين تكون فقيرة، تحتفظ بالتفاصيل الغريبة فقط.

يتذكر يده.

يدٌ خشنة كانت ترفعه أحياناً فوق كتفها ليرى الشارع ساعة الاحتفالات السلطوية .

ويتذكر رائحة تبغ خفيف، وصوت سعالٍ قصير في الليل.

ثم اختفى الأب.

قيل إنه عاد من الحرب، ثم اختفى في مكانٍ ما بين الثكنة والبيت.

لم يصل جسده، ولم تصل حقيبتيه، حتى ساعته المعدنية لم تصل.

وصل الخبر فقط، بارداً ومختصراً كطاقة.

بعدها، صار البيت أخف من اللازم.

في الليل، كان يسمع أمه تبكي وهي تظنّه نائماً.

وكان يكره ذلك البكاء لأنه يجعله يشعر بعجز أكبر من عمره.

وذات مساء، سأله أمّه وهي تخطط قميصاً قديماً:

— “كبرت هسه... شتريد تصير من تكبر؟”

فكر قليلاً ثم قال:

— “سَوّاق دراجة.”

ضحكت لأول مرة منذ أشهر.

— “مو طبيب؟ مو مهندس؟”

— “لا.”

— “ليش؟”

— “حتى أگذر أركض إذا صار شي.”

لم تفهم يومها أن الطفل لم يكن يحلم بالمهنة... بل بالهروب.

كبر طالب فيما كانت البلاد تشيخ بسرعة.

الحرب انتهت، لكن الخوف لم ينته.

ثم جاءت التسعينيات كأنها مجاعة تمشي على قدمين.

في الأسواق، كان الناس يتحدثون همساً، كأن الجدران تعمل مخبرين.

الوجوه نحفت، الرواتب تبخرت، والرجال صاروا يشبهون ظلال أنفسهم.

أما طالب، فكان يراقب الدراجات النارية.

يقف طويلاً أمام واجهات العرض في شارع الشيخ عمر، محدقاً بالمقود،

بالعجلات، بانعكاس الضوء فوق المعدن.

كان يشعر أن تلك الآلات تفهمه أكثر من البشر.

مرة قال له صاحب محل:

— “تحبها لهاالدرجة؟”

أجاب طالب مبتسماً:

— “أحسها ما توقف بمكان.”

قال الرجل وهو يشعل سيجارة:

— “ان شاء الله تشتري وحده من تكبر .. ارجع ال بيتكم الوقت تأخر .”

وحين اندلعت الانتفاضة عام ١٩٩١، خرج طالب مع الآخرين دون خطة واضحة.

لم يكن بطلاً، ولا ثائراً حقيقياً، ولا حتى شجاعاً بما يكفي.

كان فقط ممثلاً بشيءٍ ثقيل يريد أن يصرخ.

امتلات الشوارع بالناس.

رجال يركضون، شبّان يهتقون، نساء يراقبن الرجال من السطوح، وأصوات متداخلة تشبه مدينة تستيقظ مذعورة من كابوس طويل.

كان الهاتف يرتفع ثم ينكسر تحت أزيز الرصاص.

في تقاطع قريب من مستشفى القادسية، ظهرت سيارات القوات الأمنية فجأة.

تذكر طالب اللون أولاً.

ذلك الأخضر الداكن الذي يشبه لون الحديد الصدئ.

ثم تذكر الصوت.

الرصاص حين يمر قرب الرأس لا يُشبه ما نسمعه في الأفلام.

له صفير قصير، حاد، كأن الهواء نفسه يتمزق.

سقط شاب قرب مباحرة.

كان يهتف قبل ثانية فقط.

توقف صوته فجأة، وبقي فمه مفتوحاً كأنه لم يكمل الجملة.

تجمّد طالب للحظة.

ثم ركض.

ركض بلا اتجاه، يدفع الناس، يتعثّر، ينهض، يركض ثانية.

وحين وصل إلى زقاق ضيق واختبأ خلف بابٍ معدني، اكتشف أن ساقبيه ترتجفان بعنف.

اقترب منه رجل خمسيني يلهث هو الآخر وقال:

— “ليش تركض؟”

نظر إليه طالب بعينين مذعورتين:

— “أريد أعيش.”

أوماً الرجل بصمت، ثم قال:

— “كلنا.”

لكن طالب شعر يومها بشيءٍ آخر.

شعر أن جزءاً منه بقي هناك، قرب الشاب الذي سقط ولم يكمل هتافه.

بعدها صار الهروب عادته السرية.

هرب من الوظائف المؤقتة إلى الأحلام الصغيرة.

من الضجيج إلى العزلة.

من السياسة إلى الصمت.

وفي كل مرة تضيق روحه، كان يستأجر دراجة نارية لساعة واحدة.

ساعة فقط.

لكنه خلالها كان يشعر أن بغداد تتراجع خلفه، وأن الهواء يغسل شيئاً
عالقاً داخله منذ سنوات.

كان يقود بلا وجهة، ويحب ذلك.

فالوجهات، في رأيه، تشبه النهايات.

أما الطريق، فكان أكثر رحمة.

بعد ٢٠٠٣ تغير كل شيء بسرعة مرعبة.

التمائيل سقطت، الوجوه تبدلت، والمدينة دخلت زمناً مرتبكاً لا يشبه أحداً.

لكن شيئاً واحداً بقي ثابتاً:

رغبته القديمة.

وفي عام ٢٠٠٥، اشترى أول دراجة نارية حقيقية.

ظلّ ينظر إليها نصف ساعة كاملة قبل أن يشعلها.

اقترب منه صديقه حيدر وضربه على كتفه:

— “شلون حاس نفسك؟”

ابتسم طالب كطفلٍ أخيراً حصل على لعبته المؤجلة وقال:

— “كأني استرجعت شي ضايع مني.”

سافر بعدها شمالاً مع مجموعة من الرخالة.

كركوك. السليمانية. أربيل. دهوك.

كانوا ينامون قرب الأنهر، يشربون الشاي في البرد، ويتحدثون حتى
الفجر عن الحب والحرب والموت والهجرة.

وفي إحدى الليالي، سأله شاب كردي كان يجلس قرب النار:

— “إنت منو؟”

ضحك طالب:

— “ما أعرف.”

— “تسلون يعني؟”

ظل صامتاً قليلاً، ثم قال:

— “يمكن الطريق أكثر شيء يشبهني.”

وللمرة الأولى شعر أن الجملة حقيقية.

مرت السنوات.

تزوج.

عمل في دائرة حكومية.

اشترى سيارة وبيتاً صغيراً.

امتألت جيوبه بالمفاتيح والبطاقات الرسمية والإيصالات.

لكن حياته، كلما استقرت أكثر، صار يشعر أنها تبتعد عنه.

وفي التقاعد، حدث الفراغ فجأة.

استيقظ ذات صباح ولم يكن هناك ما يفعله.

جلس قرب النافذة طويلاً.

البيت هادئ أكثر من اللازم.

حتى الساعة الجدارية بدا صوتها كأنه يسخر منه.

في المساء، ذهب إلى شارع الكفاح واشترى دراجة حديثة.

وحين سأله البائع:

— “للولد؟”

ابتسم طالب وقال:

— “إلي.”

ضحك الرجل:

— “بهالعمر؟”

أدار طالب المفتاح، فاهتزَّ المحرك بصوتٍ عميق.

ثم قال بهدوء:

— “بهالعمر بالذات.”

الآن، لا يقود إلا ليلاً.

في الليل تصبح بغداد أقل كذباً.

النهار يخفي الخراب بالزحام، أما الليل فيكشف كل شيء:

الجدران المثقوبة، الأرصفة المتعبدة، والوجوه التي تمشي كأنها خارجة
من حربٍ لم تنتهِ بعد.

يقود عبر الجسور ببطء أحياناً، وبسرعة مفاجئة أحياناً أخرى، كأنه يختبر قلبه لا الطريق.

الهواء يضرب وجهه، والمحرك يهدر تحته، فيما تتداخل داخله الأزمنة:

طفل ينتظر أباً لن يعود.

شاب يركض تحت الرصاص.

رجل يحمل عمراً كاملاً من الهروب الصامت.

وعند الإشارات الحمراء، كان يرى انعكاس وجهه على زجاج السيارات.

وجه رجلٍ نجا كثيراً... لكنه لم يشعر يوماً أنه وصل.

وفي إحدى الليالي، توقف قرب نهر دجلة.

أطفأ المحرك.

فجأةً بدا الصمت هائلاً.

نظر إلى الماء طويلاً، ثم همس لنفسه:

— “المهم هو ان يصل الانسان ... بل المهم ان يبقى سائراً.”

ثم أعاد تشغيل الدراجة، واختفى داخل ليل بغداد، بينما ظل صوت المحرك يتردد بعيداً، كأنه شيء يحاول الهرب من الذاكرة... ولا ينجح تماماً.

الرجل الذي كان يسافر ليعود إلى نفسه (٦٩)

منذ سنوات، اعتاد محمود أن يختفي كلما شعر أن حياته بدأت تتشابه مع نفسها.

لم يكن يهرب من مدينة بعينها، بل من ذلك الإيقاع البطيء الذي يجعل الأيام نسخًا متكررة، والوجوه متشابهة، والروح مثل غرفة مغلقة لا يدخلها الهواء... ؛ لذلك، كان يسافر كثيرًا، كأن السفر طريقته الوحيدة لتأجيل الانهيار.

وكان يؤمن، في سرّه، أن المدن لا تُزار... بل يُصغى إليها.

لهذا، ما إن يصل إلى مكان جديد حتى يبدأ طقسه الخاص:

يمشي طويلًا بلا وجهة، يدخل المقاهي الصغيرة، يراقب الأرصفة، نبرة الباعة، تعب العيون، انكسار الضوء على النوافذ القديمة... ؛ كان يبحث عن شيء لا يعرف اسمه تمامًا، لكنه يشعر به يمرّ قربه أحيانًا، مثل عطر قديم أو ذكرى ناقصة.

في تلك الليلة، وصل إلى مدينة ساحلية باردة لم يرغب حتى في معرفة اسمها جيدًا.

استأجر غرفة في فندق قديم يطل على الميناء... ؛ كان المبنى متعبًا، والجدران تحمل رائحة رطوبة تشبه البيوت التي عاشت أكثر مما ينبغي.

ألقي حقيبته قرب السرير، فتح النافذة، وأشعل سيجارة.

في الأسفل، كانت المدينة تتحرك ببطء تحت المطر:

سيارات متعبة، نساء يركضن تحت المظلات، ضوء أحمر يرتجف فوق حانة بعيدة، ورجل مخمور يضحك وحده كأن العالم انتهى قبله بسنوات.

راقب المشهد طويلاً.

ثم همس لنفسه:

«كل مدينة تُخفي جرحها في الليل.»

في الصباح، خرج يتمشى قرب الميناء.

دخل مقهى صغيراً شبه فارغ، وجلس قرب النافذة كعادته.

كانت هناك امرأة تجلس وحدها في الزاوية المقابلة.

لم تكن جميلة بالمعنى التقليدي، لكن وجهها كان يحمل ذلك النوع من الحزن الذي يجبرك على النظر مرتين.. , كانت تقرأ كتاباً، وإلى جانبها فنجان قهوة بارد لم تلمسه منذ وقت طويل.

تبادل معها نظرة قصيرة.

ثم عادت إلى كتابها.

لا يعرف لماذا شعر أنه يعرفها منذ زمن بعيد.

طلب قهوته، وأخرج دفتره الصغير، لكنه لم يكتب شيئاً.

منذ أشهر، صار عاجزاً عن الكتابة.

كان يسافر كثيراً، يرى كل شيء، لكنه يشعر أن الكلمات بدأت تهجره ببطء، كأن روحه تعبت من تحويل الحياة إلى جمل.

وحين همّ بالمغادرة، سقطت من المرأة ورقة صغيرة دون أن تنتبه.

التقطها بهدوء.

كانت صورة قديمة لرجل وطفلة صغيرة أمام منزل ريفي.

على ظهر الصورة، جملة بخط يدوي مرتجف:

«لا تسامحني لأنني نجوت وحدي.»

تجمّد للحظة.

رفع رأسه نحوها، لكنها كانت تنظر عبر النافذة، بعينين غارقتين في مكان آخر.

اقترب منها وسلّمها الصورة.

حين رأت ما في يده، تعيّر وجهها فجأة، كأن أحدهم فتح باباً قديماً داخلها.

قالت بصوت خافت:

— ظننت أنني فقدتها.

هزّ رأسه مبتسماً:

— بعض الأشياء لا تضيع... ؛ هي فقط تختبئ منا.

نظرت إليه طويلاً، ثم قالت:

— هل تسافر كثيراً؟

ضحك بخفة:

— أكثر مما ينبغي.

— ولماذا؟

أشعل سيجارة أخرى قبل أن يجيب:

— لأنني كلما بقيت طويلاً في مكان واحد... أشعر أن شيئاً داخلي يبدأ بالتعفن.

ابتسمت، لكن عينيها بقيتا حزينتين.

بعد صمت قصير قالت:

— وأنا أهرب للأسباب نفسها تقريباً... لكن المشكلة أن الإنسان يحمل نفسه معه أينما ذهب.

كانت الجملة كافية لتَهزّه من الداخل.

شعر فجأة أنها لا تتحدث عنه فقط، بل عن ذلك التعب القديم الذي يطارده منذ سنوات.

جلسا ساعات طويلة.

تحدثا عن المدن، والوحدة، والموتى الذين يواصلون العيش داخلنا، وعن الأشخاص الذين تغادرهم جسدياً لكنهم يظلون عالقين في أعصابنا مثل شظايا زجاج.

وحين بدأ المساء يهبط على الميناء، سألتها أخيراً:

— من الرجل في الصورة؟

صمتت طويلاً.

ثم قالت:

— زوجي... وابنتي.

لم يعرف ماذا يقول.

أشاحت بعينيها نحو البحر:

— قبل ثلاث سنوات، تعرّضنا لحادث...؛ السيارة سقطت في النهر.

توقفت قليلاً.

— أنا وحدي خرجت حيّة.

أخفض محمود رأسه ببطء.

وفجأة، فهم تلك العبارة المكتوبة خلف الصورة.

«لا تسامحني لأنني نجوت وحدي.»

كانت المرأة تتكلم بهدوء مخيف، كأنها تروي قصة حدثت لشخص آخر.

أما محمود، فكان يسمع شيئاً آخر تماماً.

كان يسمع صوت أخيه.

الصوت الذي حاول دفنه سنوات طويلة.

أخوه الأصغر، سامر.

في طفولتهما، أخذه محمود ذات صيف إلى النهر رغم تحذيرات الأم.

كان الماء عاليًا يومها.

قفز سامر أولاً.

ثم اختفى.

ومنذ تلك الحادثة، لم يعد محمود قادرًا على البقاء طويلاً في أي مكان.

الآن فقط فهم.

لم يكن يسافر حباً بالمدن.

بل هرباً من ذلك النهر.

شعر فجأة أن الغرفة تضيق، وأن ضجيج المقهى صار بعيداً كالعلم.

نهض ببطء وخرج إلى الشارع تحت المطر.

كان المطر باردًا، حادًا، كأنه يسقط من داخل ذاكرته لا من السماء.

مشى بلا اتجاه.

المدينة حوله كانت تلمع بأضواء مشوشة، والوجوه تمر كأشباح، لكنه للمرة الأولى منذ سنوات لم يشعر أنه غريب عنها.

كان يشعر أنه غريب عن نفسه فقط.

توقف فوق الجسر الحجري المطل على الميناء.

أشعل سيجارة، لكن يده كانت ترتجف.

حدّق طويلاً في الماء الأسود تحت الجسر.

ثم همس بصوت مبجوح:

«أنا لا أسافر كي أجد نفسي...»

أنا أسافر كي لا أسمع صوته المبجوح.

في تلك اللحظة تحديداً، أدرك الحقيقة التي ظل يهرب منها عمراً كاملاً:

الإنسان لا يهرب من ماضيه بالسفر...

بل يأخذه معه كظلّ داخل الحقيقة.

عاد إلى الفندق قرب الفجر.

لم ينم.

جلس قرب النافذة يراقب اختلاط الضباب بأضواء الميناء، فيما كانت المدينة تبدو ككائن يحتضر بصمت.

فتح دفتره الصغير بعد أشهر من العجز.

وظل ينظر إلى الصفحة البيضاء طويلاً.

ثم كتب جملة واحدة فقط:

«كل الطرق التي سلكتها...

كانت تؤدي إلى ذلك الطفل الغارق في داخلي.»

أغلق الدفتر.

وفي الصباح، غادر الفندق قبل أن يستيقظ أحد.

لكن عامل الاستقبال وجد، فوق الطاولة، الصورة القديمة نفسها.

أما خلفها، فقد أضيف سطر جديد بخط مختلف:

«أحياناً لا ننجو لأننا أقوى... بل لأن الحياة تحتاج شاهداً يتذكر الألم.»

الذين نبحت عنهم في مرايا الآخرين (٧٠)

في بغداد، حيث تتنفس المدينة من شقوق جدرانها المتعبة، وحيث لكل رصيف ذاكرة، ولكل نخل حكاية لم تُرو بعد، كان زيد يدير شركته الصغيرة للسياحة والسفر.

لم تكن مجرد مهنة، بل كانت ثقباً في جدار الواقع يطل منه على أرواح العابرين.

كان زيد في الخامسة والأربعين، بوجهٍ نحته الزمن كما ينحت دجلة ضفتيه، بعينين غائرتين تحملان لون العسل الممزوج بغبار الطرقات.

كان يعرف أن المدن كالنساء، لا تكشف سرها لمن يقف عند بواباتها، بل لمن يتسلل إلى أحشائها في ساعة متأخرة من الليل، عندما تسقط الأفتنة وتتكشف الندوب.

في مكتبه المطل على شارع فلسطين، حيث يمتزج عبق الكتب القديمة برائحة القهوة والغبار، كان يستقبل زبائنه واحداً تلو الآخر... ؛ موظفون أنهكتهم الدوائر الرسمية، عشاق يبحثون عن متنفس، رجال يحملون حقائبهم فارغة وقلوبهم مثقلة، ونساء يعبرن كالظلال حاملات أسراراً لا تبوح بها إلا للمدن الغريبة.

دخل طه في ظهيرة يوم تموزي حار، شاب في الثلاثين، بلامح لم تتبلور بعد، كتمثال لم يكتمل نحته... ؛ كان يحمل في صوته نبرة الأعظمية العتيقة، وفي عينيه زرقة خفيفة كأنها سرقة من سماء بعيدة... ؛ جلس على الكرسي المقابل لزيد، وبدأ الحديث عن رحلة إلى أربيل، ثم تكررت اللقاءات، وتمددت الصداقة بينهما كالنبات البري الذي لا يحتاج إلى عناية.

صار زيد يرتاد مطعم طه في الأعظمية كل خميس، حيث تختلط رائحة الكباب بخشب الأراكيل، وحيث يتسلل صوت أم كلثوم من راديو قديم كأنه قادم من زمن آخر... ؛ كانا يتبادلان الصمت أكثر مما يتبادلان الكلام، فالصمت بين رجلين يفهما الحياة أبلغ من ألف حكاية.

في مساء رمادي، وقد لفّ الغسق بغداد بعباءته المخملية، دخل زيد المطعم كعادته... ؛ لكن شيئاً ما كان مختلفاً هذه المرة، كأن الهواء صار أثقل، كأن الضوء صار أكثر التصاقاً بالأشياء.

وهناك، في الزاوية البعيدة حيث يجلس طه عادة، رأى امرأة لم تشبه أي امرأة مرت من قبل.

كانت سهام تجلس كأنها طائر يحط على غصن لا يخصه... ؛ وجهها المستدير يفيض بضوء داخلي، كأنها تحمل قمرها الخاص تحت جلدتها... ؛ شفقتها الممثلتان تحملان لون التمر في آب، تنفرجان عن ابتسامة غامضة كأنها تعرف كل شيء ولا تقول شيئاً... ؛ عيناها السوداوان الواسعتان كليل البصرة، تلمعان بذكاء مفترس، وفيهما عمق لا يُدرك، كأنهما بنران توديان إلى سراديب الروح.

خصرها النحيل يتمايل تحت ثوبها الأسود كقصبة على ضفة نهر، ويدها الطويلتان تتحركان في الهواء كأنها ترسم لوحة غير مرئية... ؛ كانت تضحك مع طه، وصوت ضحكها ينساب كالزئبق، ثقيلًا وسائلاً، يملأ الفراغات بين الكلمات، ويتسلل إلى مسام الرجال كالدخان.

جلس زيد على طاولة مجاورة، وراح يراقبها خلصة... ؛ لم يكن يراقب جسدها فحسب، بل كان يراقب شيئاً آخر لا يُرى، شيئاً ينبعث منها كالرائحة، كالطيف، كالوعد الغامض... ؛ كان يشعر أن هذه المرأة تحمل مفتاحاً لباب لم يفتحه بعد، أو ربما لجرح لم يلتئم.

عندما انصرفت، مشيت كما تمشي القطط، بخطوات لا تُسمع، تاركة وراءها عطراً ثقيلاً كالذكرى.

التفت زيد إلى طه وسأله بصوت حاول أن يجعله عابراً:

"من تكون هذه؟"

ابتسم طه ابتسامة من يمسك بطرف الخيط، وقال بصوت فيه مكر التجار ونعومة العارفين:

"أعجبك سهام؟"

"بلى... أعجبتني حد الوجع."

ضحك طه ضحكة خشخشة كأنها عملات في جيب مفضوض:

"وما هدية من يأتيتك بها؟"

"سفرة إلى أربيل... ورحلة إلى حيث نشاء."

صفق طه على كتفه بقوة:

"إذن اعتبر سهام في أحضانك... لكن احذر يا زيد، هذه المرأة ليست كغيرها... ؛ هذه امرأة تبتلع الرجال ولا تلفظ عظامهم."

في شقة شارع فلسطين، حيث يتراقص غبار المدينة في عمود الضوء المنحدر من النافذة، وحيث تئن المراوح القديمة كأنها تصلي، التقى زيد بسهام بعد أسبوعين من المفاوضات الصامتة والرسائل المقتضبة.

كانت الشقة متواضعة، لكنها حملت رائحته، رائحة رجل يعيش وحده بين الكتب وخرائط المدن البعيدة... ؛ على الجدران، لوحات لبغداد القديمة، وصور لنساء من أزمنة مختلفة، وتذكارات من كل بلد زاره.

جلست سهام على (كنبة / قنفة) المخمل الأحمر، خلعت حذاءها الأسود بحركة بطيئة متعمدة، كأنها تخلع جلدًا معه... ؛ مدت ساقها الطويلتين، وطلبت خمراً. كان صوتها يحمل نبرة أمرة وناعمة معاً، كسكين ملفوفة بالحرير.

احتسب الخمر في صمت ثقيل أولاً.

كان الصمت بينهما مادياً، يمكن لمسه، يمكن شمه.

ثم بدأت أصابعهما تتلامس، أولاً بتوسل المتسولين، ثم بجرأة الاشقياء والمغامرين ... ؛ ثم انهارت المسافات دفعة واحدة، كأنهما كانا ينتظران هذه اللحظة منذ زمن طويل.

انقض كل منهما على الآخر بضراوة الجائعين، بجوع الذين اكتفوا طويلاً بالخبز اليابس، بظماً الذين ساروا في الصحاري دون واحة.

رأى فيها زيد كل النساء اللواتي افتقدن، ورأت فيه كل الرجال الذين افتقدتهم.

لمدة ثلاث ساعات كاملة، كانت الشقة كوناً مصغراً... ؛ كانت أجسادهما تتصارع وتتصالح وتنصهر وتتفصل ثم تلتحم من جديد... ؛ كانا يتبادلان الأدوار، تارة هو القائد وهي التابعة، وتارة هي السيدة وهو العبد، وتارة هما ندان في معركة لا غالب فيها ولا مغلوب.

كانت أوضاعهما الجنسية أشبه بمخطوطات قديمة، كل وضعية تحكي قصة، كل حركة تنطق بلهجة... ؛ تارة كالحيوانات الأولى، وتارة كالألهة المنسية... ؛ كان جسدها خريطة اكتشفها بالإصبع تلو الإصبع، بالشفة تلو الشفة، بالعرق تلو العرق... ؛ وكان جسده أرضاً مجهولة امتطتها بجوارحها كلها.

في لحظة، بينما كانا يستريحان من عناق مرهق، سألهما زيد بصوت يقطر عرقاً وخمراً ودهشة:

"من علمك كل هذه الفنون؟ من أين أتيت بكل هذه الأسرار؟"

ابتسمت سهام ابتسامة المرأة التي سُئلت السؤال نفسه ألف مرة، وقالت بصوتها العميق الذي يحمل رائحة الدخان والقهوة:

"الحياة أكبر مدرسة... والحياة قاسية في دروسها... ؛ عاشرت رجالاً كثيرين، وصادقت نساء كثيرات، وفي كل مرة كنت أتعلم شيئاً جديداً.

لكن..."، صمتت قليلاً، وحدقت في السقف كأنها تقرأ شيئاً مكتوباً هناك،
"الكنني لم أتعلم كل هذا من أحد... كل هذا كان بداخلي، وكانوا هم مجرد
مفاتيح."

ثم انفجرت تضحك ضحكة فيها مرارة وفيها انتصار: "أوليس هذا ما
تفعلونه أنتم أيضاً؟ تتعلمون من نساء كثيرات، ثم تدّعون أن المعرفة
فطرتكم؟"

ضحك زيد، وسألها فجأة، بصوت يمازح ولا يمازح، كمن يلقي حبراً في
بئر ليسمع صداه:

"ومن كان أول من مارس معك السفاح؟ من كان المفتاح الأول؟"

تغير وجه سهام فجأة...؛ لم يعد وجه المرأة الثلاثينية الواثقة المتمرس،
بل صار وجه فتاة صغيرة، مراهقة خائفة، شيء ما انكسر في عينيها، أو
ربما شيء ما عاد إلى مكانه.

سحبت الغطاء على جسدها العاري، كأنها فجأة تذكرت أنها عارية ليس
من الثياب فقط، بل من كل شيء...؛ أشعلت سيجارة، وأخذت نفساً
عميقاً، ثم قالت بصوت هادئ، كمن يقرأ من كتاب قديم:

"كان اسمه عباس... منذ خمسة عشر عاماً... جارنا في الأعظمية."

صمتت، وأطلقت الدخان من فمها ببطء كأنها تطلق روحاً محبوسة...؛ ثم
تابعت، وصوتها يأتي من مكان بعيد، من زمن ما قبل هذه الغرفة، ما قبل
هذا الجسد، ما قبل كل شيء:

"كنت في السابعة عشرة، وكان هو في التاسعة عشرة...؛ كان شاباً لا
يشبه أحداً، لا يعمل ولا يدرس ولا يفكر في المستقبل...، كان 'مطيرجياً'،
يربي الحمام على سطح دارهم...، كان يقضي أيامه كلها هناك، بين

الطيور، يطعمها ويطلقها ويراقبها.. , كان يحمل همّ الحمام ولا يحمل همّ غد."

انحنيت إلى الأمام، ووضعت السيجارة في المنفضة، ثم تابعت بببطء أكثر،
كان الكلمات حجارة تخرج من بئر عميقة:

"أخته لمياء كانت صديقتي.. , وكنت أذهب إلى بيتهم بحجة زيارة لمياء،
لكن عيناى كانتا تبحثان عنه.. , كنت أحبه... كيف أحببته؟

لا أعرف.. , ربما لأنه كان جميلاً كغيمة لا تمطر، أو ربما لأنه كان
فارغاً، وفارغاً حد الامتلاء.. , كان يشبه قصيدة لم تُكتب، أو نهراً ضاع
في الصحراء."

"كنت أصعد إلى السطح بحجة مساعدة لمياء في نشر الغسيل، فأراه
هناك، محاطاً بحمامه الأبيض، كأنه ملاك سقط من السماء ولا يريد
العودة.. , كان ينظر إليّ أحياناً بنظرات تحمل كل الوعد ولا تقدم شيئاً."

"وفي يوم، جاء حميد ليخطبني.. , كان شاباً جيداً، يعمل مع والده في
التجارة، ابن ثلاثة وعشرين، يريد بيتاً وأطفالاً ومستقبلاً.. , ركضت إلى
عباس كمن يركض إلى الماء... أخبرته."

تنهدت سهام تنهيدة طويلة، كأنها تعيش اللحظة من جديد، وواصلت:

"قال لي: تزوجيه، هو أفضل لك مني.. , أنا عاطل، لا أعرف شيئاً، لا
أستطيع تحمل المسؤولية.. , قالها بهدوء، بنفس الهدوء الذي يراقب به
حمامه وهو يطير بعيداً.. , كأنه كان يتحدث عن شيء لا يعنيه، كأن قلبي
لم يكن ينفطر أمامه."

"عدت إلى البيت أبكي، وتزوجت حميد.. , كان زوجاً طيباً، محترماً،
حنوناً.. , لكنه..." صمتت، ثم أكملت بصوت أكثر حدة، "لكنه كان
ناقصاً.. ؛ لم أكن أعرف ما الذي ينقصه بالضبط، لكن شيئاً ما لم يكتمل.

كان يلمس جسدي، لكنه لم يلمس تلك المنطقة الخفية التي لا اسم لها.. ,
كان يحبني، لكن حبه كان معقولاً، مرتباً، كغرفة جلوس لا يجوز العبث
فيها.. , لم يكن يعرف أن المرأة تحتاج أحياناً إلى أن تُدمر، أن تُحطم، أن
تُبعثر لتشعر بأنها امرأة." ---

ثم جاء يوم الزيارة.. , بعد شهر من الزواج، عدت لزيارة أهلي.. ,
وجاءتني لمياء وقالت: أعددت لك وليمة بمناسبة عرسك، ثم نذهب إلى
الطبيبة النسائية.. ؛ صدق أهلي، وصدقت أنا، فذهبت معها.

ولكن ما إن وطأت قدمي عتبة بيتهم، حتى اختفت لمياء، وظهر هو.. ,
أمسك بي من معصمي بقوة، وسحبني إلى غرفته.. , لم يقل شيئاً.. , لم
يعتذر، لم يبرر، لم يشرح.. , عيناه كانتا تحملان شيئاً مختلفاً عن المرة
السابقة.. , لم تكونا عيني الشاب اللامبالي، بل عيني رجل ظل شهراً
كاملاً يحترق.

أغلق الباب، ثم انهال عليّ.. , لم يكن ذلك حباً، لم يكن ذلك جنساً، كان
شيئاً آخر... ؛ كان كالوحش الذي أفلت من قفصه.. , كان كالإعصار الذي
يكتسح كل شيء.. , لم يترك شبراً من جسدي إلا قبله، لم يترك مساماً إلا
شمه، لم يترك خلية إلا أيقظها.

كان يعضني في أماكن لم أكن أعرف أنها موجودة، كان يلحس عرقي
كأنه يقرأ كتاباً بلغة النكاح.. , كانت يدها في كل مكان، وفمه في كل
مكان، وحرارة جسده تحرقني من الداخل.. , شعرت أن روحي تخرج
من جسدي وتعود، شعرت أن السماء تنشق والأرض تنطوي.

من الصباح حتى الغروب، لم يتوقف.. , كان كالثور الهائج، يقلبني من
وضع إلى وضع، من حالة إلى حالة.. ؛ اثنتا عشرة مرة، أو ربما أكثر.. ؛
في كل مرة كان يئن ويصرخ كأنه يموت، وفي كل مرة كنت أموت معه

وأعود.. ؛ حتى خرج الدم من ركبتي، حتى خرج صوتي من حلقي، حتى فقدت الإحساس بجسدي كله ما عدا تلك النقطة التي صارت مركز الكون."

سكنتت سهام.. ، كان وجهها غريباً وهي تحكي.. ، لم يكن وجه امرأة تحكي عن اغتصاب، ولم يكن وجه امرأة تحكي عن حب.. ، كان وجهاً معلقاً بين الحالتين، كأن الحكاية نفسها لا تعرف أين تضع نفسها.

ثم أكملت بصوت هامس، كمن يعترف بسر خطير:

"المصيبة... المصيبة أنني لم أشعر أنني امرأة إلا في ذلك اليوم.. ، لأول مرة في حياتي، شعرت بأنوثتي تسري في دمي كالنار، كالهواء بعد احتضار طويل.. ؛ شعرت أن جسدي كله ينطق، أن كل خلية فيّ تصرخ: أنا هنا! أنا حية! أنا امرأة!"

"عدت إلى بيت أهلي بصعوبة، ووجع الأنوثة يملأ عظامي.. ؛ مشيت كالمندوغة، كمن قام من قبره.. ؛ كانت ركبتي تنزفان، وفخذي تؤلمان، وكان شيء ما في أحشائي يحترق... ؛ لكن الألم لم يكن جسدياً فقط... ، كان هناك ألم آخر، ألم الوعي بأن شيئاً ما انتهى، بأن باباً أغلق، بأنني لن أعود كما كنت أبداً."

"غادر عباس بعد ذلك بأسبوعين.. ، باع أهله الدار ورحلوا إلى مكان لا يعرفه أحد.. ؛ انقطعت أخباره، كأن الأرض ابتلعتة.. ، وبقيت أنا... مع ذكرى ذلك اليوم، مع طيف جسده، مع رائحته التي ظلت تطاردني لسنوات."

"ومات زوجي بعد ثلاث سنوات بمرض السرطان ... ؛ فجأة، دون مقدمات.. ، وبقيت وحدي.. ، منذ ذلك الحين، وأنا أبحث عن عباس في

كل رجل.. , أفتش عن ملامحه تحت كل وجه، عن رائحته في كل عناق،
عن وحشيته في كل قبلة.. , أنام مع هذا وذاك، ليس بحثاً عن المتعة، بل
بحثاً عن ذلك الإحساس الأول، عن تلك الهزة التي شعرت بها في غرفته
ذلك اليوم."

توقفت، وأطفأت السجارة في المنفضة بقوة، ثم أكملت بصوت يحمل
رائحة العدم:

"ولا أجده... لا أجده أبداً.. , يأتي الرجال ويذهبون، يمارسون الجنس
بطريقتهم المتحضرة المهذبة، يطالبون الإذن قبل كل حركة، يعتذرون بعد
كل قبلة.. , رجال لطيفون، محترمون، يحبون بتردد وينتهون بسرعة.. ,
ولا أحد منهم... لا أحد... يفعل بي ما فعله عباس."

ضحكت ضحكة مرة، كأنها تكتشف حقيقة سخيفة للتو:

"أليس هذا مضحكاً؟ نحن النساء، نهرب ممن يحترمنا، ونركض نحو من
يعذبنا.. , نهرب من اللطف الزائد كأنه مصيدة، ونلتصق بالقسوة كأنها
خلاص.. , أنا لا أبحث عن رجل، أنا أبحث عن ذلك الشعور، عن أن
أكون دمية في يدي رجل يعرف كيف يكسرنني."

حلّ الصمت بينهما.. , صمت طويل، ثقيل، صمت يحمل كل ما قيل وما
لم يُقل. كان زيد ينظر إليها بانبهار ورعب.. , لم تكن مجرد امرأة تحكي
ماضيها، كانت امرأة يرى فيها كل الرجال أنفسهم، ويرى فيها سقوط
الأساطير التي بناها عن الحب والرغبة.

في تلك الليلة، بينما كانت سهام نائمة بجانبه، وعطرها يملأ الغرفة
كشبح، بقي زيد مستيقظاً حتى الفجر.. , كان يفكر في كل النساء اللواتي

عرفهن، في كل المدن التي زارها، في كل الحكايات التي سمعها.. ,
وفجأة، ضربه الفهم كالبرق:

نحن لا نحب من يحسن إلينا... , نحن نحب من يحفر فينا عميقاً، حتى لو
كان الحفر مؤلماً.. ؛ نحن لا نقع في غرام الوجوه الجميلة ولا الأخلاق
النبيلة... ؛ بل نقع في غرام الندوب التي يتركونها فينا.. , ندوب لا تلتئم،
ندوب تبقى مفتوحة كالجروح التي نقدها.

نحن، رجالاً ونساءً، نقضي أعمارنا نبحث عن شخص واحد، ليس لأنه
كان الأفضل، ولا لأنه كان الأجمل، ولا لأنه كان الأكثر حباً... ؛ بل لأنه
كان الأعرق أثراً.. , لأنه حفر فينا بئراً لا تملؤه كل أمطار العالم.

كانت سهام تبحث عن عباس في كل رجل، وهو ربما كان يبحث عن
شيء ما في كل مدينة سافر إليها، في كل امرأة عرفها.. , كلانا لاجئون
في مطار الذاكرة، ننتظر طائرة لن تقلع أبداً.

في الصباح، استيقظت سهام، وجمعت أغراضها بصمت.. , قبل أن
تخرج من الباب، التفتت إليه وقالت:

"لا تبحث عني... فأنا لا أبقى.. , أنا مجرد محطة في رحلة رجال
كثيرين، كما أنهم محطات في رحلتي نحو لا شيء."

ثم خرجت، تاركة وراءها فراغاً لم يستطع زيد أن يملأه.. , فراغاً يشبه
فراغ المدينة بعد رحيل من نحب، فراغاً يشبه الصمت بعد كلمة لا يمكن
استعادتها.

وقف عند النافذة، وراقبها تباعد في شوارع بغداد الصباحية.. , كانت
تمشي كما دخلت حياته، كالظل، كالطيف، كالذكرى التي لم تتكون بعد.

ثم جلس على مكتبه، وأخرج دفترًا قديماً، وكتب سطراً واحداً:

"الذين نبحث عنهم في مراكب الآخرين... لا وجود لهم.., إنهم نحن... في لحظة لم نعد نقدر على استعادتها."

ثم أغلق الدفتر، وأحس أن بغداد كلها صارت تشبه سهام.., مدينة تبحث عن نفسها في مراكب الماضي، ولا تجد سوى الحنين إلى خراب لا يمكن ترميمه.

الدرجات التي لا تُرى.. (٧١)

المشهد الأول: النشأة في رحم المحلة

في الأزقة القديمة من بغداد، حيث كانت البيوت تتكئ على بعضها كما يتكئ الفقراء على الأمل، ولدت صداقة غريبة بين طفل اسمه محمد ورجل اسمه الملة ياسين...؛ كانت العلاقة بينهما تشبه علاقات الجيران العادية؛ كانت أشبه بخيط خفي بين عالمين: عالم الطين وعالم الروح.

كانت المحلة رحماً كبيراً يضم الجميع، وبيوتها المتلاصقة شرايين تنبض بالأطفال الذين يجوبونها كالكهرباء في أسلاك مكشوفة...؛ في ذلك الزمن البعيد، زمن السبعينات الذي يلفه ضباب الحنين، كان محمد طفلاً لا يعرف أن الذاكرة ستصبح يوماً معبداً للغياب.

كان بيت الملة ياسين ملاصقاً لبيتهم، يفصل بينهما جدار رقيق يحمل أصوات البكاء في الليل وأصوات الضحك في النهار...؛ كان الأطفال يدخلون البيوت بلا استئذان، فالقلوب كانت تسبق الأبواب في الانفتاح...؛ نعم، أن بيوت المحلة كلها كانت متجاورة بالقلوب قبل الجدران...؛ و

كان الأطفال يركضون من بيتٍ إلى بيت كما لو أن الحيَّ بيتٌ واحدٌ كبير،
تنتقل فيه الضحكات كما تنتقل العصافير بين الأشجار... ؛ الأبواب
مفتوحة، والقلوب أوسع من الأزقة، والضجيج الطفولي يملأ الهواء كأنه
صلاةٌ جماعية بريئة

لكن بيت الملة ياسين كان مختلفاً ... ؛ كأنه محطة استراحة لأرواحهم
المتعبة من لهو الطفولة... له نكهة خاصة، كان الأطفال حين يدخلونه
يشعرون بشيء غامض يتسلل إلى صدورهم... ؛ كأن الزمن يبطئ،
وكان الصخب ينحني احتراماً لشيء لا يُرى... ؛ عندما يدخلونه
يشعرون بالراحة تغمرهم كالماء الدافئ، أصواتهم العالية تخفت،
شجاراتهم الصغيرة تتبدد، ويحول تدافعهم الطفولي إلى سكونية غير
مفهومة... ؛ كانوا لا يدرون أن القداسة تنتقل بالعدوى، وأن جدران بيت
يصلّي فيه صاحبه خمسين عاماً تتشرب النور، ثم تبعثره على من يدخل .

وكان الملة ياسين يقف للصلاة كمن يقف على حافة الكون، يدعو الله
ويبكي... ؛ بكاء لم يكن بكاء حزن، بل بكاء عشق، بكاء من اشتعلت فيه
روحه حتى فاضت من عينيه... ؛ ولم يكن بكاء رجلٍ منكسر، بل بكاء
رجلٍ يرى شيئاً لا يراه الآخرون... ؛ كانت دموعه تسقط كما تسقط نجوم
بعيدة في بحر الليل... ؛ كانوا يرونه قائماً في المحراب فيندهشون: كيف
يمكن لإنسان أن يقف هكذا ساعات كمن يخاطب من يراه؟! .

كان كالشجرة التي تمتص نور السماء بجذورها، إلا أن جذوره كانت في
الأرض وقلبه في السماء .

وعندما كان ينتهي من صلاته، كان يستقبلهم بوجهه البشوش وضحكته
الهادئة... ؛ لكن عينيه... آه من عينيه!

كانت تنظر إليهم لكنها ترى شيئاً آخر، شيئاً وراءهم، خلفهم، في أفق بعيد
لا تراه العيون العادية... ؛ كانت عيناه تنظران إلى السماء بينما هو على
الأرض، وكان تأمله أشبه بالشرود الذهني، أو الإغماء أحياناً، كمن
يختطف من عالم إلى آخر، ثم يعود محملاً بأسرار لا يستطيع البوح بها

... ؛ نعم , عيناه لم تكونا تنتظران إلى الناس بقدر ما كانتا تنتظران عبرهم , نحو السماء ... ؛ وكثيراً ما بدا وكأنه شاردٌ في تأملٍ طويل، حتى ليظن الناظر إليه أنه يغيب قليلاً عن العالم .

المشهد الثاني: الأسئلة التي لا تموت

كان الأطفال يسألونه عن الجنة: هل فيها دراجات هوائية؟!

كان أطفال الحي فقراء، وفي سبعينيات القرن الماضي لم تكن الدراجة لعبة سهلة المنال... ، كانت حلمًا يدور في الأزقة ولا يُمسك به أحد .

كانوا فقراء، لا يملكون دراجات في الدنيا، فأرادوا أن يعوضوا في الجنة... ؛ كان يجيبهم بابتسامته الهادئة: “نعم”.

لم يكن يكذبهم، لأنه يعلم أن الله الذي خلق الورد في صحراء القلوب قادر أن يخلق الدراجات في جنات الخلود... ؛ كان يعلم أن الجنة ليست مكاناً، بل حالة، حالة تحقيق الرغبات التي طالما حلمت بها الأرواح المحرومة والنفوس المغبونة .

أما محمد فكان مختلفاً... ؛ كان يسأل أسئلة عميقة، أسئلة تقف النفس أمامها حائرة... ؛ في أحد الأيام سأله سؤالاً سيظل يلاحقه حتى الشيخوخة: أنت تقول: الله خالق، لأنه لا بد لكل شيء من خالق... ؛ فمن خلق الله؟!

ارتج الملة ياسين، ليس لأنه لم يعرف الجواب، بل لأنه عرف أن السؤال ليس سؤال طفل، بل سؤال روح بدأت تبحث عن الخالق قبل أن يكتمل نموها... ؛ تلعث قليلاً، ثم أجاب بصوت خافت كأنه يهمس بسر كبير :

نعم، لا بد لكل مخلوق من خالق، ولكل مصنوع من صانع، ولكل مسبب سبب... ؛ هذه هي قوانين العالم الذي نراه... ؛ لكن هذه القوانين لا تنطبق على الله... ؛ فلو قلنا إن لكل خالقٍ خالقاً قبله، فسوف نستمر في سلسلة لا نهاية لها... وهذا ما يسميه العلماء التسلسل، والتسلسل باطل؛

لأن العقل لا يقبل سلسلة بلا نهاية , فلا بد أن تنتهي السلسلة عند خالق أول...؛ هو سبب الأسباب وعلة العلل ... ؛ هذا هو الله.

لم يفهم محمد كلام الملة ياسين بعقله، لكن روحه فهمته... ؛ هناك أشياء تفهمها الأرواح قبل العقول... ؛ كانت هذه الكلمات كنواة تزرع في عمقه، ستنمو معه، ستكبر مع السنين، وستثمر في لحظات الحيرة والبحث ... ؛ فقد سكنت تلك الكلمات روحه , وكبرت معه , كبرت كما تكبر البذور في تربة لا يعلم صاحبها أنها تحمل غابة... .

المشهد الثالث: معركة الروح مع المادة

تعلم محمد الصلاة على يد الملة ياسين، وكان في الثامنة حين وقف لأول مرة بين يدي الله، يقلّد صوت الرجل الذي كان يبكي في الليل .

لكن حياة الملة لم تكن هادئة كما يظن الأطفال ... ؛ فقد كانت زوجته، خيرية، ترى العالم بعينٍ أخرى...

كانت خيرية امرأة من هذا العالم، جسدها هنا، وقلبها هنا، وأحلامها هنا... ؛ كانت ترى الدنيا بما فيها من ذهب وفضة ومتاع، وكان الملة ياسين يرى ما وراءها... ؛ كانت تسأله: لماذا لا تطور نفسك مادياً ... ؛ كل النساء تلبس الذهب إلا أنا ؟!...

فيجيبها: ألسن تأكلين وتشربين وتنامين في بيت دافئ والدار ملكنا؟ أليس لنا أثاث وطعام؟ لماذا لا تقنعين؟ إن الشكوى من النعمة كفر بها .

فيخرج من درج الخشب مالا كثيرا ويعطيها ... ؛ ويقول لها : خذي... واشتري ما تريدين من الذهب ، ولا تشتكي ...

ثم تعود تشتكي من غلاء الحياة... ؛ شكواها لم تتوقف قط , تشتكي من كل شيء ...

وفي أحد الأيام، انفعل الملة على غير عادته، وغضب الملة غضباً لم يعرفه الناس عنه من قبل... ؛ وأخرج نقوداً ومزقها إرباً إرباً أمام

عينها...؛ وقال لها: هذا هو ربك الذي تعبدينه...؛ المال سأمزقه لعلك تتحررين من عبوديته...؛ أريدك أن تعرفي أن المال مجرد وسيلة، لا يصبح إلهاً إلا حين نعبدّه .

صدمت خيرية، رأت تصرفه تافهاً، سفيهاً...؛ لم ترَ في ذلك زهداً...؛ وازدادت جشعاً، وازداد هو زهداً...؛ كانت معركتهما معركة قديمة، معركة الروح مع الجسد، معركة البقاء مع الفناء...؛ كانا كمن يسيران في اتجاهين متعاكسين، يبتعدان يوماً بعد يوم، حتى لم يعد بينهما سوى الشجار الذي أصبح طقساً يومياً كغروب الشمس.

صبر عليها، وصبرت عليه، حتى كبر الابناء، و زوج بنتيه: كريمة وابتسام، ولم يبق في البيت سوى الأولاد الثلاثة: طه، وحسن، وصادق...؛ شعر المُلة ياسين أن الدار لم تعد تتسع لروحه...؛ عندها قرر الهجرة إلى النجف الأشرف .

كانت الهجرة إلى النجف عند العباد والزاهدين مثل الموت الاختياري...؛ كانوا يتركون الدنيا طواعية قبل أن تتركهم...؛ كانوا يهاجرون إلى حيث الجو الروحي الصافي، حيث يمكن للروح أن تتنفس بلا رنّتين...؛ هاجر إلى النجف، إلى حيث المراقدة المقدسة والدروس الدينية، وحلقات الذكر، والمحاضرات الأخلاقية والعرفانية، والقلوب المتعبدة التي تبحث عن الراحة والخلاص...

المشهد الرابع: الاختفاء الكبير

كان الناس يقولون عن من يهاجر إلى النجف: إنه طلق الدنيا .

هناك، في الأزقة الضيقة حول الضريح العلوي العالي، عاش المُلة ياسين حياة أشبه بالصومعة...؛ لكن القدر كان يخبئ له امتحاناً أخيراً

...

في النجف، كان ياسين يعيش حياته الجديدة، حياة الصلاة والتأمل والذكر ... ؛ كان ابنه صادق، آخر العنقود، يزوره بين الحين والآخر... ؛ كان يحبه حباً جماً، كان يراه كغصن أخضر في شيخوخته، كأمل يتجدد

وفي عام ١٩٩١، اندلعت الانتفاضة الشعبية في العراق ... ؛ جاء صادق لزيارته فجأة، فخاف عليه... ؛ كانت الأخبار تصل عن تقدم القوات العسكرية وعناصر الأجهزة الأمنية والبعثية والحرس الجمهوري وقوات الطوارئ الاجرامية، عن القتل، عن الاعتقالات، عن الاعدامات الميدانية، عن القصف العشوائي... ؛ عندها قرر العودة به إلى بغداد .

خرج الأب وابنه من النجف متجهين إلى بغداد... ؛ وفي الطريق، بين النجف وكربلاء، رأوا سيطرة عسكرية... ؛ أوقفتهما ؛ كان الجنود يرتدون البدلات الزيتونية، على رؤوسهم (الشطافي، الشماغ) الحمراء، وجوههم تقطر حقدًا، وعيونهم يتطاير منها الشرر الطائفي والعنصري المقيت ... ؛ كانوا يصيحون، يضربون، يقتلون، يعتقلون ...

رأوا صادق فصاحوا به : ها أنت... ، أكنت من الغوغائيين الخونة المجرمين ؟!

ارتبك الفتى، ولم يجب .

قال الملة ياسين : انه صبي، لا يعرف شيئاً .

رد أحد الجنود : اسكت أيها الكلب النجس ... ؛ واضح أنك من رجال الدين... ؛ اسكت وإلا قطعناك إرباً... !!

سحبوا صادق من بين يدي أبيه، وذهبوا به إلى جهة مجهولة .

اختفى صادق ... ؛ كما تختفي قطرة ماء في بحرٍ أسود .

عاد الملة إلى صومعته في النجف... ؛ لكنه لم يعد كما كان... ؛ عاد وهو يبكي ويستغفر ويحمد الله ويشكره ولا يندب حظه... ؛ كان يدعو الله أن ينجي ابنه، لكن الدعاء كان يرتد إليه كالصدى في صحراء موحشة... ؛ كان يعلم، يعلم علم اليقين أن الشيوعي الذي تعتقله أجهزة صدام لا يعود أبداً... ؛ كان يعرف ذلك من قصص كثيرة، من عائلات كثيرة، من أمهات كثيرات فقدن أبناءهن إلى الأبد... ؛ لذلك لم يبحث عن واسطة ولم يسأل عن مصير صادق ولم يصرف الاموال كما يفعل البعض ؛ كان يعرف أن من تأخذ تلك الأيدي القاسية لا يعود

المشهد الخامس: خيرية بين البكاء والموت

جاءت خيرية بعد انتهاء الأحداث مع ابنها : طه وحسن إلى النجف... ؛ كانت تبحث عن صادق، تظن أن الملة يخفيه... ؛ صدمت عندما عرفت الحقيقة، صرخت، عوت، لطمت وجهها... ؛ ولم تكن تعلم أن البكاء المزمّن يمكن أن يتحول إلى مرض، إلى عمى، إلى موت

بحثت عن وساطات، عن محسوبيات، اتصلت بعناصر من الامن وحزب البعث... ؛ بحثت عن أي طريق يوصلها إلى ابنها... ؛ كانت تتوسل للناس، تسأل هذا وذاك، لكن لا أحد يعرف... ؛ ولا أحد يريد أن يعرف... ؛ في زمن الطغيان الطائفي الصدامي ، المعرفة نفسها كانت جريمة لا تغتفر يحاسب عليها !!... .

أما الملة ياسين، فلم يفعل شيئاً... ؛ كان يجلس في صومعته، يدعو، يبكي، يسلم أمره لله... ؛ كان يعلم أن البحث عبث، وأن الوساطات وهم، وأن صرف الاموال استنزاف يضاف الى عقوبات المعتقلين وذويهم... ؛ و أن الأمل في زمن القتل هو من أكبر الأكاذيب

ماتت خيرية بعد سنوات من البكاء والعيول والنوح والطم ...

ماتت خيرية قبل سقوط المجرم صدام بسنة... ؛ ماتت من البكاء، من الحزن، من الكمد... ؛ كان بصرها قد ضعف كثيراً، لكنها كانت ترى صادق في كل مكان، تراه في الظل، في الضوء، في النوم، في اليقظة...

كانت نساء الجنوب يمتنن هكذا، يمتنن كمداً على أولادهن المفقودين والمقتولين والشهداء والمعتقلين والمعدومين والمعاقين ، كأن الحزن في جنوب العراق وراثته تنتقل من أم إلى أخرى

المشهد السادس: الشيخوخة والضياع

بعد سقوط صدام، ذهب الملة ياسين مع أولاده يبحثون عن صادق في ضابير الأجهزة الأمنية... ؛ كانت هذه وصية خيرية الأخيرة: ابحثوا عن ابني... بحثوا في كل مكان، في السجلات، في التقارير، في المقابر الجماعية... ؛ لم يجدوا له أثراً... ؛ كان صادق قد اختفى في الثقب الأسود للتاريخ، في ذلك الفراغ الذي تبتلع فيه الأنظمة الشمولية البشر ثم تنكر وجودهم...!!

عندها رجع الملة ياسين إلى صومعته في النجف... ؛ لكن الزهايمر بدأ يأكله، يأكل ذاكرته، يأكل ماضيه، يأكل اسمه... ؛ أصبح ينسى من هو، وأين هو...

وفي أحد الأيام، ذهب إلى بغداد يبحث عن بيته القديم... ؛ ضل الطريق... ؛ دخل منطقة الفضل في زمن الحرب الطائفية، في زمن كان الموت فيه يوزع بالهوية، بالاسم، بالانتماء .

وجدوه مذبحاً، وكانت لحيته البيضاء تخضبت بدماءه الزكية... ؛ لكن ابتسامته المعهودة لم تفارق ثناياه... ؛ في قمة الموت، كان يبتسم... ؛ في قمة الفناء كان يضيء... ؛ كان كمن رأى ما لا يراه الآخرون .

المشهد السابع: الرؤيا

كان محمد قد كبر، وانتقل من المحلة القديمة إلى حي آخر... ؛ لكنه ظل يتابع أخبار الملة ياسين ؛ وفي إحدى الليالي، وصل الخبر إلى مسامعه: مقتل الملة ... ؛ انهارت قواه ... ؛ وبكى طويلاً كطفل صغير فقد أباه ... ؛ وتذكر الأيام الخوالي ... ؛ وتذكر الحزن الدافئ، تذكر الضحكة الهادئة ... ؛ وتذكر كيف كان الملة يمازحه ويحضنه، وكيف علمه الصلاة، وكيف فتح له نافذة صغيرة على السماء

عرف في تلك اللحظة أن الملة ياسين كان أباه الروحي، الذي أخرجه من الظلمات المادية إلى الأنوار المعنوية .

نام محمد تلك الليلة والدموع على خديه ... ؛ وفي نومه، رأى رؤيا عظيمة :

رأى أبواب السماء تُفتح فتحةً عظيمةً ؛ لم تكن أبواباً تشبه أبواب الأرض ... ؛ كانت أبواباً من نور، كل باب أكبر من الدنيا وما فيها...

ورأى من ورائها الجنة، لكنها لم تكن جنة واحدة، بل درجات، بين كل درجة وأخرى كما بين الأرض والسماء .

نعم ، كانت الجنة طبقات شاهقة، بين طبقةٍ وأخرى كما بين الثرى والثريا...

ورأى الملة ياسين في الدرجة الأولى، عالية كالجبال، محاطة بالأزهار والأنوار...

لكنه لم يكن ياسين العجوز الذي يعرفه، بل شاباً قوياً، ينبض بالحياة، يضيء كالشمس...

وكان إلى جانبه شاب آخر يمسك بتلابيب رداءه، وعلى رأسه تاج من ياقوت أحمر ... ؛ تأمل محمد في وجهه، فإذا هو صادق .

سمع منادياً ينادي: أدخلوها بغير حساب، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب...؛ فأطلق الملة ياسين كالصاروخ نحو أعلى الدرجات، نحو القمة السندسية التي لا ترى؛ عند سدرة المنتهى.

وهنا، في درجة متدنية من الجنة، رأى خيرية...؛ وكانت ترتدي ثياباً بيضاء بسيطة، وتقف على أرض خضراء...

صرخت بأعلى صوتها: ياسين، ياسين، ياسين؛ وأنا زوجتك، ما مصيري؟

رد عليها صوت من بعيد، أسرع من الضوء: تدخلينها يا خيرية، ولكن بحساب بسيط.

عندها توجهت خيرية في اتجاه آخر، نحو الجنة البسيطة، والدرجة المتدنية منها،

وبينما كانت تمشي، سقطت أسنانها في يديها...؛ فتذمرت قائلة:

كيف آكل في الجنة وقد سقطت أسناني؟

استيقظ محمد من الحلم...؛ ففهم أخيراً شيئاً لم يفهمه في طفولته:

أن الناس لا يختلفون في الدنيا فقط...؛ بل حتى في الجنة يحمل كل واحد روحه كما عاش بها...؛ فالدنيا ليست مكاناً نعيش فيه فحسب...؛ بل هي المرأة التي تُشكّل ملامح أرواحنا...؛ قبل أن نصعد بها إلى الدرجات التي لا تُرى.

أغنية في حضرة الموت (٧٢)

في الزمن الذي كانت فيه الرصاصات أكثر سخونة من قبلات الأمهات...؛ إذ كانت البنادق فيه تزهر ناراً بدل الورد...؛ وكان الشباب

يُساقون إلى الجبهات كما تُساق السنابلُ إلى مناجل الريح ... ؛ والرجال
 يذوبون في جحيم المعارك الخاسرة كشموع تقدس الموت ... ؛ ظلّ
 الداخلُ يعجُّ بالأعراس والولادات، كأنّ الحياة تُكابِر الموت وتُغاضيه
 بالضحك والطبول ... ؛ اذ كان الناس في الداخل يتزاجون ويتناسلون
 كأنهم يزرعون للموت الجماعي لا للحياة...؛ لا لأنهم يجهلون المصير،
 بل لأنهم يعرفونه جيّدًا؛ يولدون كأنهم قرابينٌ مؤجّلة، تُربّى في حضيرة
 الزمن ليأتي القصاب الأكبر فيختار منها ما يشاء... ؛ نعم ، كانوا
 كالأنعام التي تسمن في الحظيرة لتُذبح، بل أقسى حظاً منها ، فالأنعام
 تروى وتشبع قبل الذبح، أما هم فيُذبحون وهم جياع عطاشى تحت شمس
 الطاغية التي لا تغيب ... ؛ فبعضهم يُذبح وهو يحلم بكأس ماءٍ لم يكتمل
 !!...

في إحدى ليالي الأعراس (الحنة) المستعجلة ؛ مخافة هجوم الموت
 المباغت ، حين كانت الرياح الشمالية تحمل عبق دجلة والبحر الأبيض
 البعيد ... ؛ اذ هبّت ريحٌ شماليّة عذبة تُداعب وجوه البيوت الطينيّة
 والصرائف والمساكن البسيطة ... ؛ اخترق صدر الليل صوت بابل
 الجنوب، الفنان عبادي العماري، يشدو بأعذب الألحان ؛ اذ كان صوته
 ينساب عبر مكبراتٍ معلّقة على أعمدة الكهرباء، يركب الأثير بجناحين
 من نورٍ وأسى، ويغني :

عَرَجَ على حرم المحبوب منتصباً*** لِقَبلة الحُسْنِ واعذرنى على السهر

وانظر الى الخال فوق الثغر دون لمى*** تجد بلالا يراعى الصبح في
 السّحر

سمع سعدٌ صوتاً يشقُّ العتمة... ؛ كان صوت عبادي العماري، البابل
 الذي اعتاد أن يطرز الليل بأنغامه ... ؛ لم يكن الصوتُ مجرد غناء؛ كان
 سلماً خفياً ينزل من السماء إلى صدور المتعبين والبائسين والمحاصرين

في القرى والمدن والاحياء الشعبية ، يربّت على قلوبهم التي أرفقها
الانتظار والترقب .

لم يكن سعد يعرف لماذا يحبّ صوت عبادي العماري إلى هذا الحد.

ربما لأن الصوت يشبه الجنوب؛ حزيناً ودافئاً في الوقت نفسه.

أو ربما لأن الحرب كانت تجعل الناس يتعلّقون بأي شيء لا يشبهها.

في تلك السنوات، كانت المدينة تننّس بخوف.

كل بيت فيها ينتظر خبراً سيئاً.

الجدران مغطاة بصور الجنود القتلى .

والنساء يتحدثن همساً، كأن الموت نائم في الغرفة المجاورة.

كان سعد في الخامسة عشرة.

نحيقاً، طويل الرقبة، بعينين متعبتين أكبر من عمره.

أمه تقول دائماً:

— هذا الولد يفكر أكثر مما يأكل.

في تلك الليلة، كانت أمّه تخبز قرب التنور حين وصلهم صوت الطبل من
بعيد.

رفعت رأسها وقالت لأبيه:

— بدأوا الحنة عند بيت جاسم.

أبو سعد كان يصلح مروحة مكسورة تحت الضوء الأصفر.

لم يرفع رأسه.

— خليم يفرحون... اليوم عدهم ولد معرس ، باجر الله يعلم.

سكتت الأم قليلاً، ثم التفتت إلى سعد:

— لا تتأخر.

هز رأسه بسرعة، وخرج.

الهواء الليلي كان رطباً.

كان سعد، يسير خلف الصوت كأنه يسير خلف سراب في صحراء
اليأس... ؛ كلما تقدم اقترب الصوت، وكلما تاه ابتعد، وكأن للحن روحاً
تهرب منه وتدنو في آن... ؛وكان الطريقَ لعبئة مرايا، أو كأن الصوتَ
يمتحنه :

أأنت تمشي إلى الفرح، أم تهربُ من الخوف؟

كان صوت العماري ينسيه شبح التجنيد الإلزامي الذي يطارده في
أحلامه، رغم أنه لم يتجاوز مقاعد المتوسطة , ويجعله ينسى أن الغد قد لا
يأتي... ؛ في الأزمنة المريضة تكبرُ البنادق أسرع من الأطفال، ويُقاس
العمرُ بالطول الذي يسمح بحمل البندقية...!!

وصل سعد إلى منطقة الأورفلي فإذا بالبشر يموجون كالبحر، والناس يرددون خلف المطرب: “خل نصعد فوك للعالي... ونسمع شيكول هل العالي” بينما البعض يرقص على إيقاعات “البستة” كأنهم يرقصون على صفيح ساخن... ترتفع الأيدي، تتمايل الأجساد، تتكسر القيود لساعة واحدة؛ كانت قناني البيرة توزع كالماء و كأن السلطة التي تبخل بالخبز تُسرف في النسيان...!!

والنساء ينظرن من السطوح عبر نوافذ صغيرة لا تكشف إلا العيون، وكان العماري يغني وأسه مطأطأ إلى الأرض لا يرفعه، متحاشياً النظر إليهن، حتى وهو ثمل؛ يسكر بالخمير ولا يسكر بالنساء... نعم، كان يغض بصره كأنه يخاف أن يחדش الغناء حيائه، رغم أنه يشرب الخمر أحياناً حتى الثمالة...؛ فيه تناقض البشر: ضعف يتجاوز مع نقاء، وخطيئة تعانق فضيلة...!!

وبدافع فضولٍ مراهقٍ لم يكتمل، طلب سعد رشفةً من قنينة أحد الشبان، فجره الشاب بخشونة فابتعد صامتاً...؛ فسكت سعد ولاذ بالصمت...؛ لم يكن الصمت خجلاً فقط، بل كان درساً مبكراً في حدود الأشياء...؛ فهناك أشياء تحرم على الصغار...، و تُمنح للكبار؛ وأخرى تُفرض عليهم، وأثقلها الحرب...

ثم جذبتَه الأضواء نحو المطرب عبادي العماري، فاخترق جموع الحضور المتطفلين، وكان بينهم عمال غرباء مصريون جاءوا للعمل في المدينة كأسراب الجراد الذي يأكل الأخضر واليابس...؛ كان سعد وسيقاً ملفتاً للنظر، كأن البراءة ما تزال تُقيم في وجهه رغم كل ما يحيط به، فلاحظه العماري من على المنصة، وأشار إليه بعين الأب، فصاح به محذراً بصوته الأجش: ((يا ولد... روح لا تقف بجانب المصريين...؛ اذهب وقف مع من هم في سنك)).

كان العماري معروفاً بغيرته وشيمه، تلك الشيم التي لا يمحوها الخمر ولا تغيب مع الأضواء...

وفي تلك الليلة وفي حضرة صوته ، عاش الناس لحظةً من سلام مستعار، كأنهم في بلدٍ آخر ؛ غير العراق، وفي عهد غير عهد الطاغية، وفي زمن لا حرب فيه ولا سجون ومعتقلات ... ، ولا قوائم انتظار إلى الجبهات ؛ كانت الأغنية وطناً مؤقتاً، يُؤويهم من جحيم الحقيقة... ؛ كانوا يرقصون على حافة الهاوية دون أن يعلموا أن الغد يحمل في جعبته كفاً جديداً ...

لكن ما إن انتهت الحفلة ... ؛ وما إن انطفأت المكبرات، حتى عاد الليل إلى طبيعته... ؛ و انقشعت سحب النشوة، وعادت الهموم تغزو القلوب كالجرذان الجائعة ... ؛ فهناك أب يفكر بابنه الوحيد الذي سيُساق غداً إلى الجبهة ...، وجندي يستعد للالتحاق بمعارك الحجيم الخاسرة ؛ وأم قلقة على ابنها الذي اعتقل بعد صلاة الفجر ... ؛ وزوجةٌ تتحسس فراشاً خالياً منذ استشهاد زوجها... ؛ وتكلى تعود لتتوحد على ابنها وأخيها وإبيها ، وفاقدة تبكي شهيدين كأنها تبكي قلبين خرجا من صدرها دفعةً واحدة ... ؛ وأيتامٌ يسألون عن آباءٍ صاروا أسماءً على جدار ... ؛ كأنهم يسألون عن سر الحياة المفقود... .

عاد سعد إلى دارهم في وقت متأخر، فوجد والده واقفاً (على رأس الدربونة) في بداية الفرع ؛ كتمثال من غضب متحجر لا ينام ... ؛ وما إن رآه حتى ولّى هارباً إلى بيت عمه الذي آواه وحماه... ؛ كما تُؤوي الشجرةُ عصفوراً مرتعشاً...

لكنه لم يستطع النوم، ظل يرتجف تحت اللحاف، لا يخاف من الضرب فقط، بل يخاف من الصباح الذي سيأتي حتماً ... ؛ نعم ، في تلك الليلة، لم يذق سعد طعم النوم... ؛ كان يفكر ... ؛ كيف يمكن لصوتٍ أن يُنقذ روحاً ساعةً واحدة، ولا يقدر أن يُعَيَّر قدراً؟!!

كيف يُمكن للأغنية أن تكون أقوى من الرصاصة في القلب، وأضعف منها في الواقع؟!!

لكن خوفه الأكبر كان من زمن يُربّي أبناءه ليأكلهم ...؛ ومن الطاغية
الحاقد الذي لا ينام ولا يرحم ، ومن الموت الذي ينتظرهم جميعاً في
الطوابير الطويلة ...

وفي زاوية الغرفة، بينما كانت الريح تعزف لحناً حزيناً على نافذة صدئة،
أدرك سعد أنّ الإنسان لا يعيش بالأمان وحده، بل بالأمل ...

وأنّ الأغنية، وإن لم توقف الحرب، فهي تُذكّرنا أننا ما زلنا بشراً...

وأنّ في صدورنا منسجاً لصوتٍ يقول: لسنّا قطيعاً، ولسنا حطباً للنار ...
؛بل قلوباً خلقت لتخفق ولوفي حضرة الطاغية , وفي زمن الاوغاد ...

الفهرس

المقدمة	١
حارس الذاكرة (١)	٤
ندوب القدر وثرات الغدر (٢)	٩
نافذة في الطابق الرابع عشر (٣)	١٢
وليمة الأجنحة المكسورة (٤)	١٩
مصطبة بين عالمين (٥)	٢٤
مرايا الإسفلت (٦)	٣٠
مرأة الله المكسورة (٧)	٣٧
مذكرات رجل لم يعد يخاف من شيخوخته (٨)	٤٤
في بيت قديم عند أطراف المدينة، بيت يشبه ذاكرة رطبة أكثر مما يشبه مكانًا للسكن، جلس حسين قرب النافذة الخشبية يتأمل الغبار وهو يعبر شعاع المغيب ببطء جنازي	٤٥
مدينة الدخان.. ومزرعة المعنى (٩)	٥١
مدينة الانتظار .. حكاية الرجل الذي وُلد في الطابور (١٠)	٦٤
ما تبقى بين الأصابع ... (١١)	٧١
يدبر الأمر ... (١٢)	٧٦
وليمة الجوع الذي لا يُشبع... وسراب الشَّبَع الذي لا يرحم (١٣)	٧٩
علاقة غريبة الاطوار (١٤)	٨٦
عندما نزل الملاك على سطح البيت (١٥)	٩١
عندما يسرق الفراغ قلبًا (١٦)	٩٥
قصتي مع البلبل القليل (١٧)	١٠٠
قناع العيد (١٨)	١٠٦
كان أقرب ممّا ظنّ (١٩)	١١٢
كرتي الأولى (٢٠)	١١٣
كرتي الثانية (٢١)	١١٩
لحظة موت (٢٢)	١٢٤
لقاء العيون في زمنٍ متشظّ (٢٣)	١٢٦
لواعج الغائب , نيران في القلب تأبى الانطفاء (٢٤)	١٣٢
عطر الجلنار (٢٥)	١٣٥

عشرون وجهاً في مرآة واحدة (٢٦)	١٣٨
عرسٌ مؤجلٌ إلى الأبد (٢٧)	١٥٢
عتبةٌ بين بابين (٢٨)	١٥٧
عازفُ المنافي و سيمفونية الرماد (٢٩)	١٦٣
ظلالٌ تتبدّل حين يطول الغياب (٣٠)	١٧٢
ظلالُ الصوتِ الحر (٣١)	١٧٨
طيفٌ من نور في ليل الخراب (٣٢)	١٨٤
صومعة الماء (٣٣)	١٩٣
رجوع إلى الجُب (٣٤)	١٩٥
رحلتي في غياهب الإيجار (٣٥)	٢٠٢
زخات المطر وقاع المدينة (٣٦)	٢٠٨
سائقٌ بالصدفة... ورفيقُ الغبن (٣٧)	٢١٣
سرير من رماد (٣٨)	٢١٨
سلسلة من نار (٣٩)	٢٢٤
سُلّم الذِّكر الذي قادَ إلى الشيطان !!.. (٤٠)	٢٢٩
شمعة اللاهوت وصومعة الظلام (٤١)	٢٣٣
شيطان الأرق ... (٤٢)	٢٤١
صدى اليقين (٤٣)	٢٤٦
صرخة في سكون ظلام الزمن الأغبر (٤٤)	٢٤٩
رأسٌ ممتلئٌ بالغياب (٤٥)	٢٥١
درجٌ إلى الأعلى... ومرآةٌ إلى الداخل (٤٦)	٢٥٦
حين يصبح الطيبون سبباً للبكاء (٤٧)	٢٥٩
حين يشوي العمّ (أبو محمد) لحمُ الذاكرة على جمر الزمن ... (٤٨)	٢٦٢
حين يأكل الفقْرُ ملامحَ الروح (٤٩)	٢٦٦
حين صار الجسد جواز سفر (٥٠)	٢٧١
حين تدور الأسطوانة... ويستيقظ زمنٌ لم يمت (٥١)	٢٧٨
حمدي يختبئ خلف الباب... (٥٢)	٢٨٥
حلمٌ... وقرار (٥٣)	٢٨٨
جدر الباميا ... (٥٤)	٢٩١
تبعات الرؤيا (٥٥)	٢٩٥

بين فحين... حلم يقطر دماً (٥٦)	٢٩٩
بين الدخان والتلج (٥٧)	٣٠٤
بين الأجرة والرحمة (٥٨)	٣٠٨
بوابة تُفضي إلى الوطن (٥٩)	٣١٣
بوابة الغواصة (٦٠)	٣١٧
أنا عاهرٌ وليست هي عاهرة (٦١)	٣٣١
المدفع النمساوي والهلع الصدامي (٦٢)	٣٣٧
الغرفة العاجية المعزولة (٦٣)	٣٤١
العينان اللتان أوقفنا الزمن (٦٤)	٣٤٤
العابر بين ظلاله (٦٥)	٣٤٩
الضفاف لا تُغوي... لكن السفن لا تُقاوم (٦٦)	٣٥٢
الساكن في الغرفة السابعة و الاخيرة (٦٧)	٣٥٩
الرجل الذي كان يهرب على عجلتين (٦٨)	٣٦٥
الرجل الذي كان يسافر ليعود إلى نفسه (٦٩)	٣٧٤
الذين نبحت عنهم في مرايا الآخرين (٧٠)	٣٨٠
الدرجات التي لا تُرى.. (٧١)	٣٩١
أغنية في حضرة الموت (٧٢)	٤٠٠



رياض سعد

كاتب وقاص وباحث عراقي، وُلد في بغداد عام 1973.

أسهم في تأسيس عدد من المنظمات المدنية والإنسانية والثقافية، ومارس التدريس لسنوات طويلة.

وهو عضو في نقابة المعلمين العراقيين، واتحاد الصحفيين العراقيين، ونقابة الصحفيين العراقيين.

أنشأ موقع «صوت الأمة العراقية» وأشرف عليه، ونشر عبر مسيرته مئات المقالات والدراسات في الفكر والسياسة والاجتماع والثقافة، فضلاً عن عشرات القصص والوصفات الأدبية والخواطر. تنطلق كتاباته من هاجس الإنسان والهوية والوعي الاجتماعي، وتمزج بين التأمل الفكري والبناء السردي، في محاولة دائمة لقراءة الواقع واستكشاف أسئلته العميقة.



الرقيم السومري للنشر والتوزيع

العراق - ديالى - بعقويه

07775262892

ISBN 978-9922-5525-14

